

محمود الطناحي ....

ذكرى لن تغيب

قد كان قبلك أقوام فجعت بهم ... خلى لنا فقدهم سمعا وأبصارا
أنت الذى لم يدع سمعا ولا بصرا ... إلا شفى فأمر العيش إمرارا

إعداد
محمد محمود الطناحي

توزيع

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٨٢٧٨٥١

دار المدني بجدة
شارع الصحافة حى مشرفة
تليفون - فاكس : ٦٧١٣٤٢٤


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م

رقم الإيداع ١٧٤٤ / ٩٩

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۞ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر : ٧٣ ، ٧٤]

صدق الله العظيم

إهداء

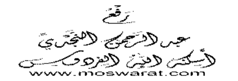
إلى من كان النور في دنيا الظلمات .....

إلى من كان البسمة في دنيا الأحزان .....

إلى الأب والأستاذ والأخ والصديق .....

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته

« أسرتك »



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

ما مات من أحيا علمًا

محمد محمود الطناحى

الحمد لله المقدسة أسماؤه ، السابغة آلاؤه ، الواسعة رحمته ، المنجية مغفرته ، وصلاة ربنا وسلامه على خير خلق الله سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ، دعوة أبينا إبراهيم ، وبشارة كلمة الله عيسى ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى إخوانه المصطفين الأخيار وآله الأطهار وصحبه الأبرار .

وبعد ...

ما عسى أن يسع موجز القول من سيرة رجل ملأ دنيانا علمًا وأدبًا ، منحه الله تعالى نشأة قرآنية وشبابًا أزهريًا ومعرفة تراثية واسعة ، لذا فإن حياته - رحمه الله - جديرة بأن تفرد لها الصفحات وتعدَّ لها الأقلام ويشحذ لها الفكر ، وهى أكبر من أن يسطرها قلم أو يحتويها مقال .

لقد كان - رحمه الله تعالى - عالمًا من جلَّة العلماء الباحثين المتعمقين فى التراث الإسلامى ، تحقيقًا وتدريسًا له وتعريفًا به وانقطاعًا إليه واستغراقًا وبحثًا فيه ، خدم الثقافة الإسلامية خير خدمة من خلال موقعه العلمى المتميز أستاذًا مبرزًا فى أعرق الجامعات العربية ، وعضوًا ومستشارًا وخبيرًا فى أكبر الهيئات والمؤسسات الثقافية العربية ، وكاتبًا مدققًا فى أقدم المجلات الثقافية العربية وأشهرها ، كما خدم - رحمه الله - الثقافة الإسلامية أيضًا من خلال ما قدم إلى المكتبة العربية من مؤلفات وتحقيقات تبرز

علمًا غزيرًا وإطلاعًا وسيعًا وثقافة متبحرة ومعرفة متنوعة ، قلَّ أن تجد لذلك كله نظيرًا أو شبيهًا .

ثم أقول :

لقد شاءت إرادة المولى عز وجل أن يفارقنا الأب العالم إلى جوار ربه الكريم أوفر ما كان نشاطًا وأسخى ما كان عطاءً وأغزر ما كان علمًا ، لذا فإن الخسارة برحيله فادحة والمصيبة بفقده عظيمة ، فقد أغلقت برحيل هذا العالم أبواب وأطفئت بغيابه منارات ، فلقد أتقن- رحمه الله - كثيرًا من العلوم التى عرفها السلف أو استحدثها الخلف كعلوم القرآن والحديث والقراءات والنحو والصرف والشعر والعروض والتراجم والعناية بالمخطوط العربى تحقيقًا وفهرسة مضافًا إلى هذا كله أسلوب فريد مميز فى الكتابة تفرد به واشتهر .

وبرحيله طويت صفحة من صفحات التراث الإِسلامى وهوت علامة بارزة من علامات المجد العربى ، وفقدت العربية ابنًا بارًا ظل طيلة حياته صابرًا على سبر أغوارها غيورًا عليها صامدًا أمام كل من يحاول الانتقاص من هيبتها ، وفقدت مصر والأمة الإسلامية عَلَمًا شامخًا ومحققًا مدققًا وأديبًا كبيرًا .

ولقد اشتهر - رحمه الله تعالى - بشخصيته الفريدة المميزة تلك الشخصية التى ساهمت عوامل شتى فى تكوينها أذكر منها نشأته الدينية وتعليمه الأزهرى وحفظه لكتاب الله فى سن مبكرة ثم قراءاته وإطلاعاته الكثيرة والمتنوعة فى الكتاب العربى مطبوعه ومخطوطه وفى شتى صنوف العلم التى عالجها هذا الكتاب العربى على اتساعه واتساعها ، كما أرسى عمله فى ميدان المخطوطات

طيلة أربعين عامًا ناسخًا ومفهرسًا ومصححًا ومحققًا وباحثًا بمعهد المخطوطات العربية ومشاركًا فى بعثاته الخارجية ثم مجالسًا ومشافهًا لأكابر العلماء والمحققين داخل مصر وخارجها لَبِنات واضحة فى بناء هذا الصرح الطناحى الشامخ .

وقد عرف عنه - رحمه الله - خصال حميدة كثيرة أذكر منها نبل النفس وعفة اللسان وعلو الهمة وطيب الخلق والصبر على طلب العلم والحنو على طلبته والحرص على مساعدة الناس وتقبل الإِساءة بالإِحسان والرد على الشر بكل خير ، فكان كمن خاطبه الشاعر قائلًا :

كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعًا
يرمى بصخر فيلقى خير أثمار

وعن الطناحى الأب أقول :

فقدت برحيله أبًا حنونًا وصديقًا أثيرًا ، ومعلمًا أمينًا ، ومهما قلت عن هذا الأب العالم فلن أستطيع أن أوفيه حقه ولا بعضًا منه ، فكلمتى هذه ليست سوى تنفيث عن حزن لا يزال يحتدم فى النفس على فراق ذلك المعلم الأب الذى افتقرت نفسى إليه :

سأبكيك ما فاضت دموعى فإن تَغِضْ
فحسبك منى ما تُجِنُّ الجوانح
وما أنا من رُزْءٍ وإن جلَّ جازع
ولا بسرور بعد فقدك فارح
لئن حَسُنَتْ فيك المراثى وذكرُها
لقد حسنت من قبل فيك المدائح

وقبل أن أختم كلمتى أقدم جزيل شكرى وخالص امتنانى وعرفانى إلى كل من واسانا فى هذا المصاب الفادح ، وإلى كل

من شرفنا بالكتابة فى هذا الكتاب ، فلئن مضى الطناحى إلى لقاء ربه فإن لنا فى صفوة أصدقائه وزملائه وأبنائه ومحبيه خير عزاء .

والدى ......

رحمك الله قدر ما عَلِمْتَ وَعَلَّمْتَ وَعَمِلْتَ بما عَلِمْتَ وجعل كل حرف كتبته ذودًا عن لغة القرآن الكريم شفيعًا لك يوم يقوم الناس لرب العالمين ويوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا ، وألهمَنا أبناءك وطلابك وزملاءك ومحبيك ومريديك الصبر والسلوان ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

الرَّحيلُ الهادئ ![*]

أ. أحمد عبد الرحيم

خبر ما ... صكَّ أسماعنا ... ففزعنا منه بآمالنا إلى مظنة الخطأ .. حتى إذا لم يدع لنا صدقه أملاً، غلبتنا العبرة، وملكتنا الحسرة!

كنا فى رحاب الجامع الأزهر الشريف، ضحى الثلاثاء: السادس من ذى الحجة ١٤١٩هـ، الثالث والعشرين من مارس ١٩٩٩م - حين فَجِئنا النعى: « انتقل إلى رحمة الله منذ ساعات قلائل .... محمود الطناحى » ... فخفقت من الحزن القلوب، وفاضت من الرحمة عيون، وارتفعت إلى الله أكفٌّ فى حلقة العلم تبتهل إلى الرحيم الودود أن يتغمد الفقيد بواسع رحمته، وأن يتقبل منه عمله ونصحه لدينه وأمته، وأن يحسن الخلف فيه ....

فيا له من ثلاثاء حزين !

فيا يوم الثلاثاء كم كئيب رماه الحزن فيك، وكم عميد !
فكم سخنت فينا من عيون وكم أعبرت فينا من خدود !

ويا لله! أهكذا يقبض العلماء فى صمت ؟!

أهكذا يرحل الكرام فى هدوء ؟!

أهكذا تطوى الصفحات العامرة، وتختم الصحف الحافلة، ويغيب الثرى الأنفس الحبيبة الكريمة ؟!

(*) حفل تأبين كلية الآداب - جامعة حلوان - القاهرة - مصر- ٣ مايو ١٩٩٩.

لقد ذكرنى رحيل أبى محمد الهادئ السريع أبياتا رقيقة معبرة، قالها أعرابى [وهى تنسب إلى كعب بن زهير، وأحسبها، والله أعلم، نسبة لا تصح !] فى صاحب له توفى فجاءة، فى حين أمن وسلامة، وكان نشيطا لا يهدأ، رُحَلَةً لا يستقر، عاملاً لا يكل .... قال :

« فى بعض تطواف ابن طُعْـ ـمَـةَ آمنًا، لاقَى حِمَامَهْ
وصَدًا لـه مِن خلفه يَغترُّه ... لا ! بل أمَامَه
غُـرٌّ امرؤ مَـنَّتْـهُ نَـفْـ ـس أن تدوم له السلامة
هيهاتَ ! أعْيَا الأولَيْـ ـن دواءُ دائِك يا دِعامَة »

بعد أقل من عامين من رحيل شيخ العربية الأكبر فى هذا القرن المؤذن بالانصرام الشيخ الجليل أبى فهر محمود محمد شاكر..... وبعد أشهر معدودة من رحيل الأستاذة الجليلة ... فخر نساء هذا العصر ... الدكتورة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطئ » رحمهما الله وأحسن إليهما وبرد مضجعهما.

أقول: بعد هذا الرحيل المحزن فقدت الثقافة العربية الإسلامية ركناً مهماً من أركانها الثابتة، وعلماً من رجالاتها المبرزين.

ذاكم هو شيخنا الحبيب .. أبو محمد محمود محمد الطناحى .... أفاض الله عليه شآبيب عفوه ورحمته ....

ولست الآن بسبيل الحديث عن علمه وأعماله، فتلك شعاب ليس لمثلى أن يلج فيها ... وإنما أن أعرض على حضراتكم فى هذه العجالة المتاحة بعض الملامح البارزة فى حياة الطناحى ، التى أحسب أن التركيز عليها بعض مما كان يهتم به الفقيد الحبيب ....

وأول هذه الملامح: التأكيد على قيمة اللغة فى حياة الأمة

فقد تمركزت حياته - رحمه الله - على محور اللغة... وهذا من منطلق إيمانه بأن اللغة هى وعاء الحضارة وكون الاهتمام باللغة - فى كل مجال - بداية النهضة الحقيقية للأمة، وأس بنيانها كله ... فبسلامة اللغة تسلم للأمة هويتها وتمتاز شخصيتها... بل إن وجودها نفسه رهن بحالة اللغة فيها، وحال أهلها معها .....

دع عنك كون اللغة العربية مجلى ظهور الكلام الإلهى الأسمى فى القرآن العظيم وهذا معنى جدير يحمل كل مسلم صادق على محبة هذه اللغة الشريفة، والعمل بكل سبيل على صيانتها ومراعاتها ... فهذا باب من محبة الله ورسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - كما قال الدكتور الطناحى - رحمه الله - وهذه خلفية مهمة من خلفيات اهتمام الطناحى البالغ باللغة وآدابها .

وثانى هذه الملامح: تعلق الفقيد بتراث الأمة الخالد .... تعلقا وصل به إلى حد العشق وقد رفد هذا الجانب من شخصيته صلاته العميقة بأساتذة الجيل فى هذا المجال ومن أمثال الجلة الكرام الأساتذة الأعلام : عبد السلام هارون، والسيد أحمد صقر، ومحمد محيى الدين عبد الحميد، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ... وإخوان هذا الطراز الفريد - رحمهم الله أجمعين - ثم تأتى بعد ذلك وقبله صحبته الطويلة للشيخ الأكبر .. الإمام الجليل أبى فهر - طيب الله ثراه - وثالثها - أعنى تلك الملامح المشار إليها : حرصه الشديد على تأكيد اتصال الأجيال الناشئة بتراث سلفها المزهر .. وأُلمع فى هذا المجال إلماعة سريعة إلى حرصه الشديد على

تدريس كتب العلم الأصيلة فى أبوابها التى حفظت شخصية الأمة وكيانها قرونا متطاولة ، والتى هى جديرة بأن تؤدى هذا الدور الآن وبعد الآن ... لو تجد لها فى دور العلم أنصارا !

ومما يتصل بهذا .. رفضه - رحمه الله عليه - أن يقرر على تلامذته « مذكرة » من صنعه خشية أن يصرفهم بها عن وجه العلم الأصيل.... بالرغم من أنه لا وجه لمقارنة بين تحقيقات الفقيد وتدقيقاته العلمية - وبين كثير مما تسود به « أوراق الجرائد » الحائلة، التى يفرض عناء قراءها ومدارستها فى أروقة الجامعات فرضاً.

ولأكف اللسان عن الخوض فى هذا ... ويكفينى الآن ويكفيكم إن شاء الله قول أبى الطيب رحمه الله:

وفى النفس حاجاتٌ وفيكَ فَطَانةٌ
سُكوتى بيانٌ عِندَها وخِطَابُ !

وثمة ملمح رابع يتصل بما سبق ... وهو دور « المشافهة » فى حياة الطناحى العلمية ... فسنة العلم - لا سيما علم أمتنا الشريف - تلقيه من أفواه الأشياخ والمزاحمة عليه بالركب ... وهذا ما حرص عليه فقيدنا قديماً ومن لدن نعومة أظفاره - فى المعهد الدينى الأزهرى .. ثم فى جميع أدوار حياته ولعل فيما أشرت إليه آنفا من توثق علائقه - رحمه الله - بكبار أساتذة الجيل من العلماء والمحققين - غنية عن إعادته... وقد كان - رحمه الله- لا يمل من التأكيد على هذه القيمة الجليلة والسنة الجليلة ، والسنة الشريفة من سنن أسلافنا .. فى لقاءاته العامة، وجلساته الخاصة ، وفى كل ما يكتب وينشر ... ما وجد إلى هذا سبيلا.

ولعمر الله... إنه ما اختلت أحوالنا الثقافية والعلمية والدينية إلا مذ حرفت أجيال الأمة عن هذا السبيل القديم ، الذى تتأصل به قيم الثقافة والعلم والدين والحضارة ... كما تأصلت وترامت عبر قرون طوال ...

وكان من نتيجة هذا »التحريف« ما كان مما نلمسه ونعايشه الآن من مستوى متردٍّ، وضعف وضآلة فى جامعاتنا ومدارسنا، وفى مختلف نواحى الحياة .... ولكن لهذا حديثا آخر ليس هذا المقام محله !

* * *

أرى مجال القول متسعاً .... ولكن المقام كما ترون !

فكيف لى توفية الطناحى حقه من القول الصادق !

أأذكر كرم أخلاقه ، وسَجاحة نفسه ، وطيب عنصره ، ونبل شخصيته ؟!

أم أذكر طلاقة وجهه ، وصفاء قلبه ، وحضور نكتته ، وتوقد ألمعيته ؟!

أم أذكر علمه المحقق ، وتحقيقه المنمق ، وبيانه المعجب ، وأياديه البيضاء على العلم وأهله !

ماذا آخذ من جوانب الرجل وأدع ؟!

كيف السبيل إلى الإفاضة فى جوانب لا تفى ببعضها مجالس كاملة وصفحات متكاثرة ؟!

إن أبا محمد ممن صدقوا الله ما عاهدوه عليه من القيام على ثغور الأمة بالحياطة والدعاية وأخلصوا النصح لله ورسوله وكتابه

حتى أعنقت للمنون رحلتهم .. أحسبه كذلك ، ولا أزكيه على الله ، فهذا خبر عن حال ، والله حسيبه وأمثال هؤلاء المجاهدين لا تطوى كتبهم بطى صفحات حيواتهم ...

وفيهم تصدق مقالة الأديب الصادق الرافعى - عليه رحمة الله : «أعرف أنهم ماتوا، ولكنى لم أشعر قط إلا أنهم غابوا .. والحبيب الغائب لا يتغير عليه الزمان ولا المكان فى القلب الذى يحبه، مهما تراخت به الأيام... وهذه بقية الروح إذا امتزجت بالحب فى روح أخرى تترك فيها ما لا يمحى لأنها خالدة لا تمحى! »

وأزيد أنا : فإن لهم من وراء أعمارهم المحدودة بحدود الزمان والمكان ، أعماراً أخرى متطاولة ، ما بقى للعلم معهد، وما ظل فى القلوب وفاء !

* * *

لقد قال أبو فهر - رحمه الله - بعد رحيل أستاذه الجليل .. شيخ العربية فى زمانه الرافعى :- «إن الرافعى قد صار ميراثا نتوارثه، وأدبا نتدارسه ، وحنانا نأوى إليه » ...

وقالها أبو أروى فى شيخه أبى فهر غداة موته ...

وها نحن اليوم نقولها لأبى أروى !

ليرحمك الله أبا محمد، وليطيب ثراك، وليتغمدك بعفوه وفضله، وليتقبلك فى الصالحين .....

وإلى روحك الطاهرة - فى مستراحها المطمئن - مقالة صدق ، تصدق عليك إن شاء الله كما صدقت فى شيخك الجليل أبى فهر .....

ما رحلتْ منك فكرةٌ نَبُهَتْ ضياؤها فى سمائنا شُهُبُه
مقهورة بالأسى مدامعُنا يحرقها من وداعه لَهَبُه
يا بَرَّدَ الله مضجعًا سخِنَتْ به عيون ، تَبِيت تحتسبُه
ما صوَّحتْ من ناديك زهرتُه يا راحلاً ليس تَنطوى كتبه
والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ...

ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *



د. محمود الطناحى
معين لا ينضب.. وذكرى لا تغيب! (*)

د. أحمد عرفات القاضى

« البقاء لله، مات محمود الطناحى صباح اليوم ودفن عقب صلاة الظهر » خبر انتشر بسرعة البرق بين زملاء وأحباء محمود الطناحى وما أكثرهم بطول الجامعات المصرية وعرضها وبين أوساط المثقفين والمفكرين ممن جمعهم بالطناحى زمالة العديد من اللجان والمؤسسات العلمية والبحثية داخل مصر وخارجها.. لقد ترك الخبر الجميع فى حالة من الذهول.

كان ذلك صباح الثلاثاء الحزين ٦ من ذى الحجة ١٤١٩هـ الموافق ٢٣ من مارس ١٩٩٩م حيث انتقلت روح فقيد العلم والأدب والظرف والفكاهة الدكتور محمود الطناحى فى الساعة السابعة وخمس عشرة دقيقة عن عمر يناهز ٦٤ عامًا قضى الفقيد الراحل ما يزيد على خمسة وثلاثين عامًا منها فى خدمة العلم والفكر محققًا لعيون التراث العربى ناشرًا لفضائله، مدافعًا عن العلم والعلماء فى أكثر المجلات العلمية احترامًا كالهلال والعربى وغيرهما، ومحاضرًا وأستاذًا فى العديد من الجامعات العربية والمصرية، ومشاركًا فى مئات المؤتمرات والندوات المتصلة بالثقافة العربية والإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها.

اتصل الطناحى بالتراث العربى مع بداية حياته العلمية كطالب بكلية دار العلوم فعمل ناسخًا ومفهرسًا ومحققًا منذ عام

(*) جريدة « الأخبار » - مصر - ٩ أبريل ١٩٩٩.

١٩٥٨م فنسخ كثيرًا من المخطوطات المشرقية والمغربية وأعان بعض المستشرقين الذين نزلوا مصر لهذا الغرض مما أكسبه خبرة واسعة بالمخطوطات العربية وفنونها المختلفة ، وبالخطوط العربية وتاريخها، وفى عام ١٩٦٣م نشر الطناحى بالاشتراك مع المرحوم الأستاذ طاهر الزاوى ثلاثة أجزاء من كتاب « النهاية فى غريب الحديث والأثر لمجد الدين بن الأثير » ثم أكمل الطناحى وحده بقية الكتاب فأخرج الجزء الرابع والخامس منفردًا حتى يستفيد الباحثون من الكتاب بكامله، وفى عام ١٩٦٤م أخرج مع زميله وصديقه المرحوم الدكتور عبد الفتاح الحلو كتاب « طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى » وهو موسوعة ضخمة فى عشرة أجزاء تضم بالإضافة إلى التراجم، السير والتاريخ والفقه والكلام والأصول والتصوف، ولذلك كان الطناحى يوصى شباب الباحثين بعدم إغفال كتب التراجم والطبقات أو الاستهانة بها.

لقد أخرج الطناحى عشرات الكتب من عيون التراث. فى فنون الفكر العربى المختلفة كالنحو وعلوم القرآن والتراجم والسير والجغرافيا والتصوف وغيرها مما لا يقدر عليه إلا أولو العزم من الباحثين الذين كان الطناحى بحق فى طليعتهم، هذا بالإضافة إلى أن علم التحقيق علم ثقيل يحتاج إلى جهد كبير وصبر طويل ولذا لا يقبل عليه إلا من نذر نفسه للعلم ووقف حياته عليه غير عابئ بالعائد المادى محتسبًا جهده وصبره عند الله ملتمسًا منه الأجر والمثوبة وهذا ما عبر عنه المفكر الإسلامى الكبير الدكتور محمد سليم العوا الذى قال لى فى سرادق العزاء: لقد كان الطناحى رحمه الله من أصحاب العلم الذى يحتاج من صاحبه أن يبذل من جهده وماله، ورغم ذلك لا يدر عائدًا، وأشهد أن الطناحى الذى شرفت بالعمل معه مترفعًا عن الماديات والمناصب التى يتكالب

عليها الكثير، لم يخرج الطناحى يومًا مذكرة للطلاب ولكن يكتفى بشرح كتاب قديم كألفية ابن مالك ويعد لتلاميذه محاضرات فى الصرف والعروض يمليها عليهم ويعطى لهم ما كتبه ليصوروه ويتداولوه فيما بينهم .

لقد كان الطناحى أحد وجوه الثقافة العربية والإسلامية المشرقة والمشرفة، وهذا ما عبر عنه أحد الأساتذة المرموقين- الدكتور عبده الراجحى - فى تقرير ترقية الدكتور الطناحى إلى درجة أستاذ فقد أكد التقرير أن الطناحى ظاهرة تشرف الجامعة المصرية والثقافة العربية والإسلامية، كما رحل وهو فى قمة الحيوية والنشاط وفى قمة العطاء والنضج العلمى، ولذا فإن خسارة الفكر العربى والثقافة الإسلامية برحيله عظيمة وكبيرة، فبرحيل الطناحى فقدت الثقافة العربية والإسلامية مدرسة أصيلة كان الطناحى آخر رجالاتها العظام، مدرسة شهدت أمثال الأساتذة العظام عبد السلام هارون وأحمد شاكر وأبو الفضل إبراهيم ومحمود شاكر الأب الروحى لمحمود الطناحى، والذى كان يعد الطناحى هو الاستمرار الحى لمدرسته، وهذا ما عبر عنه زميل الطناحى ورفيق عمره الدكتور سيد السنوسى فى سرادق العزاء حين قال لى: برحيل الطناحى طويت مدرسة محمود شاكر إلى الأبد، ومن ثم خف إلى سرادق العزاء وجوه العلماء من أساتذة وزملاء وتلاميذ وأصدقاء الطناحى ومحبيه.

أما محمود الطناحى الإنسان الظريف الخفيف المحبوب المرح الجميل الشمائل والخصال فحدث ولا حرج، فقد كان خليقًا أن يسامر الملوك والعظماء بروحه المرحة التى تفشى السعادة والمرح فى جميع الحاضرين وترسم البهجة والبسمة على وجوه الحاضرين

وشفاههم، فهو يذكرك بأزهار الربيع فى تفتحها وريحها العذب الذى يفوح منها، وبالأنهار فى تدفقها وما تحدثه فى الأرض من عمار ونماء وحياة وجمال، وبالطيور فى تغريدها فى أول النهار فتشيع الأمل والرجاء، لقد كان محمود الطناحى أينما حل زينة المجالس التى تشنف له الاسماع وتشخص له الأبصار بحب وإعجاب وتقدير واحترام، لقد كان الطناحى ربيعًا دائمًا وشبابًا متجددًا ، فهل يحلو العام دون الربيع؟ وهل يبقى للإنسان سوى ذكريات الشباب؟ رحم الله فقيد العروبة والإسلام العالم العلامة والإنسان الوديع والنفس الكريمة الصافية من الحقد والدنس، وعوضنا عنه بمن يخلفه فى علمه ويلهمنا وذويه الصبر والسلوان ، لقد كان الطناحى معينًا لا ينضب وستبقى ذكراه فى نفوس زملائه وتلاميذه ومحبيه أبدًا لن تغيب.

* * *

وهَوَت لَبِنَةٌ أخرى(*)

أ.د أحمد محمد الخراط

حملت أنباء الكنانة فَقْدَ ركن ركين من حوزة العربية، ومن المنافحين عن حياضها بإخلاص ومعرفة واسعة؛ ذلكم هو الأستاذ الحبيب محمود الطناحي؛ الذي رسخت معالمه في ذهني من يوم أن كنت طالبًا في جامعة القاهرة؛ فكنت أتردد إلى قسم المخطوطات من جامعة الدول العربية في شارع التحرير؛ فيلقانا ببسمته، ويذلل لنا كل ذي صعب، ويجيب عن استفساراتنا حول المخطوطات التي تحملها بعثة الجامعة؛ من خلال رحلاتها المترامية في الخافقين؛ فما كان - رحمه الله- يضن علينا بشئ وكنت أستذكر قول زهير كلما قابلته:

(كأنك تعطيه الذي أنت سائله)

وتمر الأيام ويشاء الله أن التقيه في الرياض والمدينة؛ فكان يشعرني بتواصل المودة فألمس منه خلق العالم، وأريحيته، وحرصه الأكيد على ذمار العربية، وازدهار مسيرتها. لقد أجمع أصحابه وكل من خبره عن كثب أن الفقيد يتمتع بأخلاق عالية؛ لا نظير لها عند الكثيرين ممن أقبلت عليهم هذه الدنيا؛ فقل ودهم، وندر وفاؤهم.

والسمة الثانية؛ التي لمحتها في الفقيد تمكنه من علوم العربية، وفقهه بتراثها العريض؛ حتى إنه يذكرك بشيخه الجليل محمود شاكر -رحمه الله- من حيث سعة الاطلاع على تراث العربية

(*) جريدة «البلاد» - السعودية - ١٥ أبريل ١٩٩٩ .

مخطوطًا ومطبوعًا؛ حتى إن محدثه يعجب من قوة حافظته؛ فكأنه ينهل من معين لا ينضب؛ وهذا الاطلاع الواسع على التراث وتمرسه فيه، أورثه قوة في الديباجة، ورقيًا في أسلوب التعبير؛ حتى إن تأثره بهذه المدرسة يجعلك تتذوق اللغة الرفيعة من ينبوعها الصافي، لقد أثرى الدكتور الطناحي المكتبة العربية بتحقيقات قيمة تلمح فيها صفوة معلومات غزيرة نجمت عن معايشة مع التراث، وخبرة عميقة بجوانبه ومعالجة نصوصه. وعلى الرغم من أنه كان مقلًا، ولكن ما تركه ينبئ عن قدم راسخة في مجال التحقيق العلمي للنصوص. ولقد أحسست في فقد هذا العزيز أن حبات العقد الفريد قد انفرطت؛ بعد أن سبقه راتب النفاخ وعبد الفتاح الحلو ومحمود شاكر.

فمن للعربية بعد هذه الجبال الشم في عصر يتصف بالهوى، وأضحت بضاعة الكثيرين مزجاة؛ بعد أن كان الجيل السابق صبورًا على كسب المعرفة، غيورًا على العربية، صامدًا أمام من يحاول الانتقاص من هيبتها؟؟

رحم الله فقيد العربية، وطيب الله ثرى من أثرى فن التحقيق العلمي بأعماله الرصينة، وعوض الله هذه المسيرة خيرًا.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

وعام وفاتك أرخته
بـ « نيلِ الطناحِيّ لحُسْنِ الخِتَامِ » (*)

د . أيمن رشدي سويد

قبل وقفة عرفات بيومين، وبالتحديد في يوم الثلاثاء ٦/ ١٢/ ١٤١٩هـ الموافق ٢٣/٣/١٩٩٩م، رُزي المسلمون بوفاة عالم من علمائهم، وأستاذ كبير من أساتذة تحقيق التراث الإِسلامي؛ الدكتور محمود محمد الطناحي المصري - رحمه الله تعالى - الذي كان لي شرف التتلمذ عليه في جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ومنه تعلمت كيفية التعامل مع المخطوطات، والإِخراج العلمي للنصوص، كما شرفني بأن كان مشرفًا علي في تحضير رسالة « الماجستير » وكانت بعنوان : التذكرة في القراءات الثمان لطاهر بن غلبون الحلبي (ت٣٩٩هـ) دراسة وتحقيق .

وقد أتاح لي هذا الأمر معرفة الدكتور الطناحي عن قُرب؛ فلمست منه أخلاق العلماء ونبل الفضلاء . ولعلي بهذه العجالة أضع بين يدي القارئ الكريم شيئًا من سيرته ومآثره، عسى أن يكون نبراسًا لشبابنا الباحثين، وقدوة للمحققين .

نشأ أستاذنا الطناحي في القاهرة، وترعرع في رحاب الأزهر؛ فأنهى فيه دراسته الثانوية، ثم التحق بكلية « دار العلوم » في جامعة القاهرة، وبعد أن تخرج فيها تابع دراساته العليا في الكلية ذاتها؛ فنال منها درجة (الماجستير) ثم (الدكتوراه) وكانت رسالته بعنوان « ابن الشجري وآراؤه النحوية »؛ مع تحقيق

(*) جريدة « البلاد » - السعودية - ١٥ أبريل ١٩٩٩ .

الجزء الأول من كتابه (الأمالي) وذلك في سنة ١٣٩٨هـ الموافق ١٩٧٨م.

وكان الأستاذ الطناحي - في مدة دراسته الجامعية - كثيرًا ما يتردد على دار الكتب المصرية؛ مما أتاح له الاتصال بأساتذة تحقيق التراث. وأساطين العلماء من أمثال الأساتذة: عبد السلام محمد هارون، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وأحمد راتب النفاخ، وأحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، بل إن الدكتور الطناحي كان يتردد إلى بيوت هؤلاء الفضلاء، ويشاركهم سهراتهم العلمية، ويستمع إلى آرائهم النقدية، بشغف تام، وهمة عالية؛ مما كون لديه الحس النقدي والمعرفة التامة بأصول تحقيق المخطوطات.

هذه المعرفة أهلت الدكتور الطناحي لأن يكون ضمن البعثات التي كان يرسلها معهد إحياء المخطوطات العربية؛ التابع لجامعة الدول العربية، إلى البلاد الإسلامية المختلفة؛ لتصوير ما في خزائنها من مخطوطات نفيسة؛ فكانت له عدة رحلات إلى المغرب، واليمن، والهند، والمدينة المنورة، وغيرها، وكم هي البطاقات التعريفية بالمخطوطات في المعهد المذكور التي مازالت بخط الدكتور الطناحي شاهدة على آثاره الواضحة في خدمة التراث.

وفي سنة ١٣٩٩هـ جاء الدكتور الطناحي إلى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة؛ للعمل فيه، ولم يلبث أن عرف القائمون على الجامعة قدره؛ فأضافوا له - إلى جانب عمله بالمركز المذكور - التدريس بكلية اللغة العربية، والإشراف على الرسائل الجامعية؛ فكان ممن تخرج

على يديه في هذه الكلية : الدكتور عياد الثبيتي ، والدكتور عثمان الصيني .

كما ناقش الدكتور الطناحي عددًا من رسائل « الماجستير » و« الدكتوراه » كرسالة (الدكتوراه) المقدمة من عبد المهيمن عبد السلام طحان ؛ وكانت بعنوان : « جامع البيان في القراءات السبع لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت٤٤٤هـ) من أول الكتاب إلى أول فرش الحروف ، تحقيق ودراسة » ؛ وذلك سنة ١٤٠٦هـ الموافق ١٩٨٦م .

وفي سنة ١٤١٠هـ عنّ لأستاذنا الطناحي العودة إلى أرض الوطن ؛ فعاد إليها ؛ ليعمل أستاذًا في « كلية الآداب » بجامعة حلوان ، وقد بقي فيها إلى أن وافته المنية يوم الثلاثاء ١٢/٦/ ١٤١٩هـ - الموافق ٢٣/٣/١٩٩٩م .

هذا وقد ترك لنا الأستاذ الجليل عددًا من الآثار العلمية ، والتحقيقات التراثية التي تعد - بحد ذاتها - مدرسة نموذجية لأصول التحقيق ؛ منها :

(١) أمالي ابن الشجري ، لهبة الله بن عليّ بن محمد ؛ المعروف بابن الشجري (ت ٣٧٠هـ) في ثلاثة مجلدات[١] .

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس ، لأبي الفيض محمد مرتضي الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) تحقيق المجلد السادس عشر من طبعة وزارة الإرشاد والأنباء في دولة الكويت .

---

(١) طبع بمكتبة الخانجى - القاهرة ، ط١ ١٩٩٢م - ١٤١٣هـ.

(٣) الشعر، لأبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) في مجلدين[٢].

(٤) طبقات الشافعية الكبرى، لعبد الوهاب بن علي السبكي (ت٧٧١هـ) في عشر مجلدات[٣].

(٥) فهارس كتاب الأصول في النحو، لأبي بكر محمد بن السري بن السراج البغدادي (ت ٣١٦هـ) في مجلدة صغيرة[٤].

(٦) فهارس الشعر واللغة في «غريب الحديث» لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) في مجلدة صغيرة[٥].

(٧) مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، في مجلدة صغيرة[٦].

(٨) منال الطالب في شرح طوال الغرائب، لمجد الدين المبارك بن الأثير الجزري (ت٦٠٦هـ)[٧].

(٩) الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم[٨].

---

(٢) طبع بمكتبة الخانجى - القاهرة، ط١ ١٩٨٨م - ١٤٠٨هـ.

(٣) حققه الدكتور الطناحى مع الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو (رحمهما الله تعالى)، وطبع فى مطبعة عيسى البابى الحلبى - القاهرة ط١ ١٩٦٤م. ١٣٨٤هـ.

(٤) نشرته مكتبة الخانجى - القاهرة، ١٩٨٦م - ١٤٠٦هـ.

(٥) نشر فى مجلة البحث العلمى والتراث الإسلامى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة - العدد الرابع ١٤٠١ هـ.

(٦) نشرته مكتبة الخانجى - بالقاهرة، ١٩٨٦م - ١٤٠٥هـ.

(٧) طبع بمركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة - ١٩٨٠م- ١٤٠٠ هـ.

(٨) نشرته مكتبة الخانجى - القاهرة، ١٩٨٥م - ١٤٠٦هـ.

(١٠) النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين المبارك بن الأثير الجزري (ت ٦٠٦هـ) في خمسة مجلدات[٩].

كان الدكتور الطناحي - رحمه الله تعالى - دمث الأخلاق، لين الجانب، واسع الاطلاع، محبًا للكتب، وخاصة المخطوطات منها، محبًا للعلماء، معترفًا بفضلهم، يترحم على من مات منهم، ويدعو بالخير للأحياء ذا دعابة من غير إسفاف، يمزج درسه بشئ من الفكاهة حتى لا يمل السامعون، شديد الغيرة على التراث من عبث العابثين.

وأذكر - هنا - أنه قام معي بمقابلة كتاب «التذكرة» لابن غلبون - على طوله - كلمة كلمة؛ من غير كلل ولا ملل.

وكان خلال هذا العمل يعلمني أصول التحقيق، والأمانة العلمية في عدم التصرف في كلام الآخرين؛ بل يذكر كلامهم كما هو، وما كان من تعليق للمحقق فمكانه الهامش.

ومن عباراته - رحمه الله - التي كان يكررها كثيرًا:

(١) إنما يُشْكَلُ ما يُشْكِلُ؛ وذلك بالنسبة لضبط الحروف بالحركات.

(٢) الكتب بلا فهارس كنزٌ بلا مفتاح.

كما كان للشيخ الطناحي صلة وثيقة بقراء القرآن الكريم؛ يزورهم؛ ويتابع أخبارهم، وقد قرأ شيئًا من القرآن الكريم على شيخنا العلامة المقرئ؛ عامر السيد عثمان - رحمه الله تعالى -

---

(٩) طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبي، القاهرة، ١٩٦٣م - ١٣٨٣ هـ.

شيخ القراء وشيخ عموم المقارئ المصرية ، وكان له به علاقة قوية ، توطدت مع الأيام ؛ مما حدا بأستاذنا الطناحي إلى رثاء الشيخ عامر حين وفاته في ١٤٠٨/١٠/٥هـ بالمدينة المنورة ، في مقال طويل في (ملحق التراث) من جريدة المدينة ، العدد ٧٧٢٦، يوم الخميس ١٤٠٨/١١/٩هـ .

وبعد ؛ رحمك الله - سيدي أبا أروى وأبا محمد - رحمة واسعة ، وغفر ذنبك ، وستر عيبك ، وأعلى مقامك ، وجزاك عن تراث الإِسلام خير الجزاء ؛ فقد كنت الصدوق الأمين ، والمعلم المكين ، وفيك قلت :

أعينيَّ فابكي على ذا الإِمام ... وجودي بدمع كَسَحِّ الغمام
فشيخ التراث وأستاذه ... غدا فجأة نهبة للحمام
أشيخي الطناحي الحبيب الأريب ... ويا عَلَمًا فضلُه لا يرام
نثرتَ العلوم بأرض الحجاز ... وشرق وغرب ومصرَ وشام
وجدت بوقتك للطالبين ... معينا مبينا أمينا وحام
فكنت لهم مثل أم رؤوم ... وللعابثين كحد الحسام
سألت إلهي لكم رحمة ... وعفوًا وغفرًا وعالي المقام
وعام وفاتك أرخته ... بـ « نيل الطناحي لحُسن الختام »

١٤١٩هـ.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

* * *

الصديق الذي فقدته (*)

د . أيمن فؤاد سيد

عرفت المرحوم الأستاذ الدكتور محمود الطناحي أول ما عرفته في ربيع سنة ١٩٥٨م وكنت ما أزال في المرحلة الابتدائية وكان هو في السنة النهائية في معهد القاهرة الديني، شابًا نحيلًا مرحًا يتردد على والدي في منزلنا في الحلمية كل يوم جمعة، يقرأ مع والدي رحمه الله أثناء تحقيقه بعض كتبه ويشرح لي بعض ما يعن لي في دراسة منهج اللغة العربية، ومنذ هذا التاريخ توطدت علاقتي به، علاقة تلمذة وصداقة وزمالة وأخوة فلا يمضي أسبوع دون أن نلتقي مرة أو مرتين عندنا في منزلنا في الحلمية، ثم بعد انتقالنا إلى الظاهر حتى وفاة والدي رحمه الله في ديسمبر سنة ١٩٦٧م ثم في مجلس العلامة المحقق المرحوم محمود محمد شاكر الذي جمعنا ثلاثين عامًا ذهبنا إليه معًا أول مرة فور خروجه من المعتقل أول أيام عيد الفطر سنة ١٣٨٧هـ يناير ١٩٦٨م بصحبة الأستاذ أحمد محمد المانع أطال الله عمره وطوال هذه الصحبة عرفت فيه صفاء الطبع وكرم الخلق والطبيعة المرحة وروح الفكاهة والظرف وحسن الحديث وطلاوته.

وهو قبل كل ذلك العالم الكبير الذي حصل من بطون الكتب وأفواه الرجال ومجالسة العلماء علمًا غزير، ووعت حافظته أخبارًا وشواهد ومعارف قل أن تجدها عند غيره من أهل جيله.

(*) جريدة « المدينة المنورة » - السعودية - ١٢ أبريل ١٩٩٩ .

برع المرحوم محمود الطناحي في علم المخطوطات انتقاء وفهرسة ووصفًا وفي تحقيق المخطوطات ونشرها، وله في كلا المجالين الأثر الظاهر في المكتبة العربية تلقي علم المخطوطات عن عالمينِ جليلَيْنِ كان دائم الإشادة بهما وبعلمهما في أحاديثه ومجالسه: والدي المرحوم فؤاد سيد الذي احتضنه في دار الكتب المصرية وجعله يخطو أولى خطواته في هذا الباب عن طريق نسخ المخطوطات، فنسخ العديد منها وخاصة للمستشرقين مثل الوافي بالوفيات للصفدي وكنز الدرر لابن أيبك الدواداري والمغازي للواقدي، وساعدته هذه الرحلة على تحصيل الكثير من المعارف فمهنة نسخ الكتب كان يقول عنها والدي- رحمه الله- مهنة العلماء كياقوت الحموي، والعالم الثاني هو المرحوم رشاد عبد المطلب بعد التحاقه بالعمل في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، وهو الخبير كل الخبرة بما في المعهد من أفلام بمفردات من خزائن الهند والقسطنطينية والشام ومصر وغيرها، وشارك معه بعد ذلك في بعثات معهد المخطوطات وخاصة تركيا والمغرب.

وفي مجال تحقيق التراث يعد محمود الطناحي تلميذ مدرسة أساتذة التحقيق وشيوخه: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون والسيد أحمد صقر ومحمد أبو الفضل إبراهيم فقد كان تلميذًا مباشرًا في دار العلوم للأستاذ عبد السلام هارون وكأي عضو دائم في مجالس الثلاثة الآخرين يقرأ عليهم ويناقشهم ويتلقى منهم، وما أخرجه من أمهات المخطوطات في تحقيقات علمية تدل على سعة معارفه وثقافته الواسعة ومعرفته التامة بالمكتبة العربية وعلاقات الكتب بعضها ببعض انظر تعليقاته وهوامشه على كتاب الشعر لأبي علي الفارسي والغريبين للهروي

ومنال الطالب لابن الأثير و« الأمالي » لابن الشجري و« طبقات الشافعية الكبرى » للسبكي وغيرها.

وسجل معرفته بحركة نشر التراث العربي ورجاله الذين بدأوا هذه الحركة والمطابع الأهلية والمؤسسات الثقافية التي أخرجت في كتابين هامين الأول هو « مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي » والثاني « الكتاب العربي المطبوع في القرن التاسع عشر » وكلاهما نتاج تجربة وممارسة طويلة في هذا المجال قل أن تتوفر لأحد غيره.

رحم الله محمود الطناحي وجزاه عن ما أسهم به في نشر تراث العربية خير ما يجزي العلماء اللهم إنا نسألك أن تتغمد ذنبه وأن تقبل عذره وأن تنير قبره وأن تجعله مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقًا.

* * *

أجملى جزعا ....

(أنين عبرات حرَّى) (*)

أ. إيهاب محمد أبو ستة

« غلام الطناحى »

الحمد لله فاتحةُ كل خير، تمامُ كل نعمة، والصلاة والسلام الأتَمَّان الأكملان على سيدنا محمد ؛ خَيْرِ مَن عَبَد وحَمَد، وأُصِيب فاحتسب، وجاهد وشاهد وعرَف ولزِم، ونَطَقَ مما عَلِم ﴿وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى﴾ [النجم: ٣-٥].

اللهم ارزُقْنا حُسْن التأسى به، وأمِتنا على دعوته، وأدخلنا فى شفاعته واحشرنا تحت لوائه، وارضَ اللهم عن آل بيته الأكرمِين، وأصحابه النجوم الهادين المهديِّين، ثُمَّ عن كل من سلك سبيله وسبيلهم إلى يوم الدين، وارحم اللهم آباءنا، وأمهاتنا، ومشايخنا، وأستاذينا، وكل من له حق علينا، ورحم الله عبدًا قال: آمين. ثم أما بعد.

فهذه كلمةٌ- على ما أريتُكَ- قد أُرِيدَ لها أن تكون تأبينًا لفقيد العربية ووارث عِلْم أئمتها فى زمان الناس هذا؛ سيدى، وشيخى، وحبيبى الأستاذ الدكتور محمود الطناحى- برَّد الله مضجعه، وطَيَّب ثراه. وحَرِيٌّ بهذا اللون من الكلام أن يكون بُكاء مُرًّا، ونفثة ثكلى، وأنَّةَ حَيْرَى إلى آخر جبال الحزن تلك، مما

(*) حفل تأبين « كلية الدراسات العربية والإسلامية » - « جامعة القاهرة » - الفيوم - مصر - ٨ مايو ١٩٩٩ .

توالى تباعا، وأطبق على الصدور فى أمَدٍ قصير بأُخَرَةٍ من أيامنا؛ فإذا العلم يُنزع ، والعلماء تُقبض ، وإذا الناس يتلفتون فلا يرون بين ظهرانيهم شاكرًا ، ولا الشعراوىَّ، ولا بنت الشاطئ، ولا الطناحى ...، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

هكذا بَغْتَةً، بين عشية كنا نتحادث فيها، وصبيحة لها شُئِمَتْ علىَّ؛ تركنى فيها وحيدًا، وعجل إلى ربه ليرضى.

« عليكَ سلَام اللهِ قَيسَ بن عاصمٍ
ورَحمَتُه ما شاء أنْ يَترحَّما
تحيةَ مَن غادرتَه غَرَضَ الرَّدَى
إِذَا زارَ عنْ شَحْطٍ بلادَك سَلَّما
فما كان قَيسٌ هُلكُه هُلْكَ واحدٍ
ولكنَّه بُنْيانُ قومٍ تَهدَّما

ولعلَّ ما أريد لهذه الكلمة يسوغ لو كان المؤبَّن نمطًا غير نمط الطناحى الفريد مِن مَن يَرحَل فيُطْوَى، ويُبْكَى ثم يُنسَى، ولا شىءَ بَعْدُ. لكنَّ ما تَرك الشيخُ - رحمه الله- من عِلم وخُلق ، وديانة وإخلاص ، مع ما هو عليه من حَدَب وحُنو، وتواضع جمٍّ وظرف ، كل ذلك يأبى للطناحى إلا أن يكون ميراثًا نتوارثه ، وأدبًا نتدارسه، وحنانًا نأوى إليه، ولو أنك لم ترَ فى الطناحى - رحمه الله- إلا علمه لكفاك سطرٌ مما كتبَ آيةً على دقة عجيبة ، وذهن يقظ ذَكُور، وصبْرٍ كالجبال، وعُمْرٍ من الاطلاع، ولو أنك لم ترَ فى الطناحى - رحمه الله- إلا حنوه وحدبه لكفاك لمحة من بَشاشِ وجهه حين يحتضنُك بسمُه الآسِرُ الودود ، وهو الذى لم يعرفْكَ قبْلُ، وأنت الذى لما تعرفه بعد ، ثم لا يلبث إلا قليلا حتى

ترى أبًا يباسط ولده فى الحديث ، فكأنك مِنه، وكأنه منك، يُلقى على مِسْمَعِك الطرفة والنادرة ، فتشعر كأنما رتب كلامه لكلامك، وأعد جوابه لسؤالك حتى ترتاب، وترى أمامك جبل علم، ووادى حنان، ونهر أبوة، ونسيم ظَرْفٍ، وكل ذلك ملفَّف فى بِجادٍ من تواضع يَذْهَلُك بفَرْطِه حتى تنسى أنك فى حضرة أستاذ جليل ، يحمل إليك اللقمة ليضعها فى فيك! أو ينازعك حمْل الكوب لك ، و.......، و....... حتى تراك قد هَلَكْتَ بتواضعه المطبوع ، وتصاغرت أمام نفسه الرضيَّة، فإذا لمح ذلك منك هدأ روعك ، وسكن جزعك ، وأبان خبيئته فى خُلُقه، بأن السر فى هؤلاء الذين جالسهم طول العمر، ولا يترك لك تكرار التسآل ، حتى يلقى البشرى بأنك يومًا ما - لو ظَلَلْتَ على الدرب - ستصل إلى ما وصل إليه لكن لا تستطل الطريق، وإياك والكسل، وإياك والملل.

ولا يفتأ يخُطُّ لك الدرب، ملقيًا الصوى ، مزجيًا ما خَبَره إليك سهلًا رهوًا، يختصك فى كل مناسبة للقول ببعض كلام، يميل بك فيه إلى العربية ، وكتابها مخطوطًا ومطبوعًا، ومن وراء ذلك حديث القراءة، والإخلاص، وأنه حتى يومِه هذا يقرأ ، ويستظهر، ويردِّد كالطلاب! ثم يقيد فى دفتره، وعلى حاشية كتابه، لتنظر فتراك أمام طالب علمٍ على درجة أستاذ فإذا أنت أردته فهاك السبيل أمامك قد بَيَّن لك مدارجَها بجوامع كلم تعجب له، يردده لك وكأنه يريد مَزْجَك به حتى يُحكِم كل خطاك، ويجنبك كل صواب، ويجنبك كل خطأ:

- فالقراءة صيد والكتابة قيد ، والصادق يُعْطَى ثلاثَ خصال: الملحةَ، والمحبةَ، والمهابةَ، والمللُ من كواذب الأخلاق ،

ومَن حفِظ المتون فقد حاز الفنون ، وبابُ حضارتنا اللغة، والعربيةُ كتاب واحد، واقرأ الكتاب دفعةً واحدةً، واعرف فرْقَ ما بين الطبعات كما تعرف فرق ما بين المخطوطات، والزم باب خيرٍ، فمن لزم بابًا من الخير فُتح عليه غالبٌ منه ، نَقِّبْ ، فكم فى الزوايا من خبايا، وإياك أن تستسهل المسالك، واصبر على الشقاء بالعلم ، فمَن أحبَّنا أهل البيت فليُعد للفقر جلبابًا.

هذه أخلاق رجل ولَج باب العربية يحمل عِبْء الذوْد عنها فينضَح بنَبْل مخالقة الناس بخُلق حسن، ويجالد بسيف علمٍ لا يُفلُّ ولستُ بواجدٍ إلا دعوة شيخى لشيخه الشيخ عامر عثمان حين قال: « اللهم اغفر لأستاذنا وارحمه ، واعف عنه، واجعل كل ما قدمه من خدمة كتابك، وخدمة العربية، وكل حرف كتبه فى موازينه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وهيئ لهذه الأمة من يخلف هؤلاء الرجال العظام، ويقوم مقامهم؛ حياطة لدينك ، وحفظًا لكتابك، إنك على ما تشاء قدير. وصل اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ».

* * *

الليلـــة الأخيـــرة (*)

أ.د تركي بن سهو العتيبي

الحمد لله وَحْدَه الذي جعل لكل شيء أجلًا، والصلاة على رسول الهدى صلى الله عليه وسلم.

في مساء يوم الأربعاء ١٤١٩/١٢/٧هـ وبعد صلاة العشاء وفي اتصال هاتفي مع الزميل العزيز الدكتور محمد الربيع أبلغني خبرًا نزل علي كما نزل عليه قبلي أشد ما تنزل الأخبار، ألا وهو وفاة الزميل العزيز والرجل الفاضل الأستاذ الدكتور محمود الطناحي، صبيحة الثلاثاء ١٤١٩/١٢/٦هـ قلت: سبحان الله العظيم. لقد كنتُ حديثَ عهد به فقد اتصلتُ به هاتفيًا، منذ ليلتين؛ أعني ليلة وفاته مساء يوم الاثنين ١٤١٩/١٢/٥هـ، وكان على أحسن حال وأخبرني أنه سيتصل بعد قليل بالدكتور محمد الربيع، وفي صبيحة اليوم التالي غادر إلى الدار الآخرة، أنزله الله فيها منازل الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

نعم لقد انتقل أبو أروى الدكتور الطناحي إلى جوار ربه، ولحق بشيخه محمود شاكر، الذي أحبه وقدره واقتفى أثره في العلم والتعليم والتحقيق والتدقيق والحرص على المثالية في العلم، رحم الله الشيخين وغفر لهما وأسكنهما فسيح الجنان فقدْ فقدَ التراثُ النحوي رجلًا من أخلَص الرجال الذين أحبوا التراث وأحسنوا في تحقيقه ونَقْدِه وتقويمه والإشراف على عدد من الرسائل التي تناولته.

(*) جريدة «المدينة المنورة» - السعودية - ١٢ أبريل ١٩٩٩ .

عرفت الدكتور محمود منذ زمن بعيد، عرفت فيه أخًا وفيًا، وأستاذًا فاضلًا، دمث الخلق حَسَن المعشر محبًا للعلم وأهله، مقدرًا لعلماء العربية قدْرهم وإنما يَعْرِف الفضل من الناس ذووه ، يحب الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة ويقدره ويجل الدكتور أحمد كحيل ويعجب بالدكتور أمين سالم، ويحتفي بزملائه ويوليهم حقهم من التقدير والرعاية.

رحم الله أبا محمد وأسكنه فسيح الجنان، ما أكثر تألقه وأجود عبارته، وأحسن طرائفه، سمعته في ليلة شارك فيها الدكتور كحيل مناقشًا في مكة حرسها الله يبدي إعجابه بالشيخ وملحوظاته ويتواضع في نفسه ونقده، ويعلم الله لقد كان متألقًا محلقًا معدًا لتلك المناقشة أحسن العدة وأروعها.

سمعته كثيرًا وفي أماكن متعددة، وما زال صوته وهو يختم مناقشة له على غير عادة المناقشين الذين يجاملون الطلاب ويتوددون من إفلاسهم وكأن الأمور منعكسة لقد قال أبو محمد رحمه الله تعالى في تلك الليلة: ولا أقول كما يقول بعض المناقشين إن هذه الملحوظات لا تَغُضُّ من قيمة هذه الرسالة بل تغض وسِتِّين تغض.

عفا الله عنك أيها الأخ الوفي، وغفر لك، وأسكنك فسيح الجنان، وأمطر على جدثك شآبيب الرحمة والرضوان، ورفع منزلتك في عِليين. وجبر مصاب محمد وأروى وأمهما وأهل العلم والعربية.

إذا نحن أَثْنَيْنَا عليك بصالح
فأنت كما نُثْني وفوق الذي نثني

من مثـالية الطنـاحي

لقد كان الأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي رائدًا من الرواد الذين خدموا التراث النحوي، وأحبوه، وأمضى سنيَّ عُمْرِهِ في تعليم أصوله وتحقيقه، وكان مثالًا في الوفاء لأهل هذا العلم، وكان كثيرًا ما يردد: العلم رَحِمٌ بين أهله، نعم لقد كان العلم رحمًا ونعم الرحم، كان يتمثل الوفاء والتقدير لذلك التراث الذي أحبه وأفنى عمره في خدمته وتحقيقه، مقدرًا أولئك الرجال الذين أمضوا جُلَّ أوقاتهم في العمل على التحقيق والتدقيق والمراجعة، وكان من بين أولئك القلائل الذين حازوا حُبَّ أبي أروى- كما يحب أن يكني- وتقديره شيخه أبي فهر محمود شاكر، فقد كان دائم الصلة به، معترفًا بفضله إذ يقول عنه: أما شيخ العربية أبو فهر محمود محمد شاكر هذا الإمام الجليل؛ فإن له على أيادي كثيرة أعد منها ولا أعددها- كما يقول صاحبه أبو الطيب- حَسْبُه أنه أشعر قلبي حب هذا التراث والعصبية له، وتلقيه بما ينبغي له من الجلال والحيطة والحذر» أمالي ابن الشجري ص١٢، وقال عنه في هـ٢ من الصفحة نفسها : «ليس هذا من التفصيل الممل، ولكنه تاريخ ينبغي أن يسجل لهؤلاء الشيوخ العظام، وما يبذلونه لتلاميذهم سخيةً نفوسُهم، طيبةً قلوبُهم» . فهذا هو الوفاء وعرفان الفضل لأهله في زمن جُحد الفضلُ وضاع العلم، فهذا هو الوفاء والتقدير لأستاذ يستحق هذا وأكثر وقد كان حريصًا على زيارة شيخه بأهله كل جمعة، وكان معه في أيام مرضه حتى توفاه الله ، واستمر الدكتور الطناحي على صلته بأهل الشيخ بعد وفاة الشيخ فلم ينقطع عنهم، حتى لحق هو بشيخه، فرحمهما الله تعالى .

أنصف الدكتور الطناحي العاملين الجادين المتميزين، وممن حاز إعجابه وتقديره وإنصافه شيخي وأستاذي محمد عبد الخالق عضيمة، فقد ذكره أحسن الذكر، وأثنى عليه بما يستحق الشيخ

عضيمة، فقد قال الطناحي: «وقد بهر الناس الشيخ الجليل محمد عبد الخالق عضيمة- رحمه الله- بكتابه الفذ «دراسات لأسلوب القرآن الكريم» وعمل الشيخ هذا في ميدان الفهرسة، ولكن أي فهرسة لقد عكف على كتب التفسير والقراءات والنحو والأمالي عكوف العالم الصابر الذي ترك الشهرة خلف ظهره ودبر أذنيه، فاستخرج من أضابير تلك الكتب الأشباه والنظائر، ونسق ذلك كله على الأدوات والأبواب، وساعدته على ذلك حافظة جامعة وبصر نافذ «فهارس كتاب الأصول للطناحي ص١٠، وعلق على هذا في هـ٢ ما نصه: وسترى إن شاء الله مما استخرجه الشيخ موضوعات للماجستير، ولن يذكر أصحابها أنهم استفادوا من علم الشيخ.

رحم الله- الدكتور الطناحي- لقد كان منصفًا مقدرًا في حين كثر المتشدقون والمتفيهقون الذين يحسنون الدعاوي دون العمل، ويرون أنفسهم منظرين عارفين يمدحون بهواهم دون علم أو عقل، فلا يعون ما يقولون، لقد سمعت أحدهم ينتقص عمل الشيخ عضيمة- رحمه الله- في المقتضب، ويرى أنه كتاب مختصر ضخمه الشيخ بهوامشه.

وأقول نعم لقد كان مختصرًا استطاع الشيخ أن يبدع في تحقيقه والتعليق عليه، وبقي وما زال مفتاحًا لكثير من مغاليق كتاب سيبويه، في حين لا يستطيع هذا وأمثاله التعليق على قضية نحوية واحدة، وجل همهم التخريج الذي خدمته كتب الفهارس، وسمعت آخر من حملة الألقاب العلمية يرى أن الشيخ لم يقدم شيئًا في كتاب الدراسات فرددت عليه ردًا ما ندمت عليه لحظة، وسبحان الله إذ ذهب من يعرف العلم ويحسن تقديره ويعرف قدره.

هذا بعض مما أعرفه واستعنت عليه بما كتبه توثيقًا للخبر وتأكيدًا للقول، ولم يكن إعجاب الدكتور الطناحي من فراغ، بل كان عن قناعة بأئمة هذا العلم الذين أحسنوا فيه صنعًا.

لقد كان د. الطناحي محبًا للتراث بكل صوره وفنونه مقدرًا لأهله قدرهم، ولم يكن- رحمه الله- من الذين تسمع لهم جعجعة ولا ترى طحنًا، ولم يكن من أولئك النفر الذين لم يتجاوز كدهم إثبات فروق وتخريج شواهد، ويصدق فيهم قول أبي محمد: «ولا تعجب ولا تنكر من كثرة ما ينشرون، فإن تحقيق كتب التراث قد صار في هذه الأيام من أيسر الأمور وأقربها، وهذه هي خطواته ومراحله:

- نسخ الكتاب والله وحده هو الذي يعلم من يقوم بنسخ الكتاب.

- التعريف بالأعلام من كتاب خير الدين الزركلي وسلخ مراجعه وإحالاته.

- تخريج الآيات القرآنية من معجم محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله.

- تخريج الأحاديث من المعجم الذي صنعه المستشرقون.

- تخريج شواهد الشعر من كتاب شيخنا عبد السلام هارون وليته ما صنعه..!

- صنع فهارس تقليدية ميتة باردة.

- ثم يأتي السطو والإغارة على تعليقات الميمني في «السمط» وعضيمة في «المقتضب» ومن يليهما من شيوخنا الأجلاء الرواد، مقدمة الشعر صفحة (ج).

إذا كانت هذه غيرة أبي محمد على التراث في ظل المعطيات العصرية الكثيرة التي جعلت من التراث مصدرًا من مصادر الاسترزاق عند بعض الناس ؛ فهل الطناحي صاحب منهج في التعامل مع التراث؟ هذا ما يجيب عليه قول الطناحي عن عمله في تحقيق كتاب الشعر ص١٠٦: «نسخته بقلمي، وقابلت بين نسختيه ثم التمست موارده في كتب السابقين وتتبعت نقوله في كتب الخالفين، وجردت شواهده واصطحبتها في حلي وترحالي أعرضها على ما أعرف من كتب العربية، وقد حرصت على ربط قضايا الكتاب ومسائله بالمتاح لي من كتب أبي علي مطبوعها ومخطوطها، ثم وصل هذه القضايا بكتب النحو».

ثم أخذ رحمه الله يشرع في بيان هذا المنهج القائم على معالجة المسائل النحوية وتوثيقها وعرضها على كتب النحو الأخرى، ذلك المنهج الذي قصرت دونه حبال الكثيرين من أدعياء التحقيق، فتحقيق النصوص يختلف عن إخراجها، وما كل دعوى تحقيق يسلم بها، ما لم يكن المحقق ضليعًا في فنه يحسن تقويم النص والتعليق عليه بعلم ودراية ومعرفة، وهو ما فقده الناس في عدد غير قليل من كتب التراث المنشورة، والتي أتمنى لو أعادت الجامعات النظر في بعضها، ومكنت المتميزين من طلبة الدراسات العليا من تحقيقها مرة، أتمنى لو حصل هذا، وما ذلك بعزيز، ويغفر الله لأبي أروى ويسكنه فسيح الجنان، وأسأله تعالى أن تكون أعماله المنشورة من العمل الصالح الذي ينتفع به بعد موته.

* * *

عاشق التراث وعالم لغتنا العريقة الذي رحل محمود الطناحي.. والزمان الذي كان (*)

د. توفيق الفيل

حملت الأنباء رحيل عالم جليل، وباحث عظيم من الرعيل الذي وقف نفسه على خدمة العربية ونشر تراثها، هو الأستاذ الدكتور محمود الطناحي.

لقد رحل محمود الطناحي بعد حياة قصيرة إذا عدت بالسنين والأعوام، لكنها كانت حياة طويلة عميقة إذا قيست بالأعمال. فقد ترك محمود الطناحي ثروة علمية قلما يتركها من هم في مثل سنه، إضافة إلى القيمة العظيمة لهذه الأعمال.

التقيت الطناحي ونحن نخطو خطواتنا الأولى في دار العلوم، كانت الحياة العربية تغلي كالمرجل، وكانت الأمة تتطلع إلى إثبات وجودها، وتسعى إلى إيجاد مكان لها، فقد كان الاستعمار لا يزال يسيطر على أماكن كثيرة من العالم العربي، وكان البعث العربي قد بدأ يظهر. وحققت مصر أولى انتصاراتها على القوى الاستعمارية الباغية حين تصدت للحرب العدوانية التي فرضت عليها عام ٥٦ وبدا واضحًا للقاصي والداني قوة المارد العربي الذي استيقظ. وكانت لنا في تلك الفترة تطلعات لا تحدها حدود. وكانت دار العلوم تحظى بجيل من الأساتذة الكبار. وتعقد فيها ندوات شعر، وتتبارى فيها مجلات الحائط التي

(*) جريدة «الراية» - قطر - ٤ مايو ١٩٩٩ .

يصدرها الطلاب وتقام فيها الأمسيات الفنية. وتشكل فيها الأسر الطلابية.

والتقيت ومحمود الطناحي في قاعة الدرس، وفي الأمسيات الثقافية، وفي أسرة هاشم الرفاعي الذي اغتيل ونحن في نهاية السنة الأولى. وكان شاعرًا فذًا وقصيدته التي حملت عنوان « في ليلة التنفيذ » تتجاوب أصداؤها في كل أرجاء الوطن العربي.

بدأنا ونحن في السنة الأولى نصدر مجلتنا الخاصة « الشهاب » وقد ضمت هذه الأسرة مجموعة كبيرة شاء لها الله أن تكون قاعدة عريضة من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة.

لا أريد الإطالة في الحديث حول هذه المجموعة من الزملاء، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من لا يزال يؤدي دوره في الحياة العلمية والثقافية، وكان من بين هؤلاء واسطة العقد- صاحب النظرة الثاقبة، محمود الطناحي الذي يحبه الجميع، ويقدره الجميع منذ التقوا به وذلك لأن محمود الطناحي كان اسمًا معروفًا في الأوساط العلمية وهو لا يزال يافعًا حيث عرف طريقه مبكرًا إلى مجالس كبار العلماء والأدباء. فقد انخرط في المدرسة الشاكرية « نسبة إلى آل شاكر » الشيخ محمود، والشيخ أحمد ومدرسة عبد السلام هارون. وهي المدارس التي نصبت نفسها حرسًا على التراث العربي الإسلامي، وعملت على تحقيقه ونشره.

التقى محمود الطناحي مع الشيخ محمود شاكر، وتتلمذ مثلنا على عبد السلام هارون، وإبراهيم أنيس، ومحمد غنيمي

هلال، وعباس حسن، وأحمد الحوفي، وأحمد هيكل، وتمام حسان، وغيرهم من الأعلام الكبار.

وكان حبنا لمحمود الطناحي وتقديرنا له يزداد حين نرى أساتذتنا الكبار يخصونه بالحديث، ويتبادلون معه الدعابة. وكم كنا نسعد حين يلقى محمود الطناحي، أو أحد أساتذتنا بنادرة تعتمد في أساسها على اللغة، وتستخدم التورية. ويعجز المرء حين يريد الإحاطة بهذه الأمور. فقد كانت لنا مواقف مع أستاذنا المرحوم الدكتور حسن محمود. وكان يدرس لنا التاريخ الإسلامي، وكان حسن النادرة التي يطلقها علينا نحن أبناء دار العلوم. وكنا نبادله الموقف فيتلقاه سعيدًا ضاحكًا. فلم يكن ما نأتيه إلا في هذا المضمار. ولعل جانب الدعابة، والظرف، والدأب على التحصيل من أهم الأمور التي ظلت بيننا.

أذكر أنه أثناء ثورة عبد الكريم قاسم. أقيمت محاكمات هزلية، رأسها ضابط يدعى «المهداوي» وقمنا في ذلك الوقت بتأليف مسرحية تحمل هذا العنوان «محكمة المهداوي». ونقلنا فيها صورة لهذه المحكمة الهزلية. التي كانت تترك موضوع الدعوى، ويأخذ رئيسها في إلقاء قصائد هجاء لهذا أو ذاك من الزعماء وحين تخرجنا من دار العلوم تفرقت بنا السبل كل يعمل في جهة. لكن ظلت العلاقة التي تربطنا، فقد كنا نلتقي في الدراسات العليا. أو في ذلك المبنى العتيق الذي يقع في شارع المنيرة. وكانت قد نشأت بيننا وبينه ألفة شديدة. لم تكن هذه الكلية بالنسبة لنا نحن هذا الجيل، والأجيال التي سبقته مجرد مكان للعلم، بل كانت منتدى للثقافة والفكر والفن. وكان أبناء الجامعات الأخرى يعرفون ذلك، وربما وجدوا علينا من أجله.

اختار محمود الطناحي أن يدرس النحو، لكننا في كثير من الأحيان كنا نلجأ إليه في بعض المسائل التي تتعلق بالتراث. وبخاصة حين يأخذ أحدنا في تحقيق مخطوط، فقد كانت خبرة الطناحي في هذا الميدان لا تدانيها خبرة أحد منا. وقد كانت سعادتي غامرة حين قمت بتحقيق كتاب البيان في البيان لشرف الدين الطيبي. وحين قابلني محمود أثنى على العمل، ودقة التحقيق. كنت أعرف أنه لا يجامل، وكم عرضه صدقه وحبه للتراث، وتمسكه بكل صحيح إلى مشقات وعداوات.

أذكر أن محمود الطناحي حين حصل على الدكتوراه تقدم للتعيين في الجامعة، وإذا قوى البغي والجهل التي تعشش في بعض الجامعات تتصدى له، وتحول بينه وبين مكانة هو أهل لها. بل هو أحق بها، وفرضت الهجرة على الطناحي- كما فرضت على غيره- وفي مهجره التقى الطناحي عددًا من المريدين والباحثين عرفوا له قدره وهيأوا له الفرصة لتبدع ملكاته، وليفيد منه تلاميذه، لقد تمسكوا في المملكة العربية السعودية بمحمود الطناحي حين أراد العودة إلى مسقط رأسه ليرعى له غرسًا، وليصحب أستاذه الشيخ محمود شاكر.

عين محمود الطناحي بكلية الدراسات العربية والإسلامية في مدينة الفيوم، وأسس بعلمه فيها مجموعة من الدارسين، ورغبت بعض الكليات الكبرى أن تفيد من علمه. فأصدر مجلس كلية دار العلوم قرارًا بالإجماع يقضي بنقل الطناحي إلى قسم النحو والصرف والعروض بها. لكن قوى الشر الخفية اتهمته بما لم يكن فيه، وجاءوا على قميصه بدم كذب، وأثرت هذه الحادثة فيه، وكان من الغريب أن يكون السبب فيها أستاذٌ أُدين في سرقة

علمية كبرى حكم فيها القضاء بالإدانة. وكان لها دوى هائل في الأوساط العلمية.

في آخر لقاء بيني وبينه. وكان في شهر ديسمبر. فقد تصادف انعقاد مؤتمر للمخطوطات العربية في مبنى جامعة الدول العربية. وكنت قد ذهبت تلبية لدعوة من جمعية اللسان العربي، وهي جمعية أهلية أسست للدفاع عن اللغة العربية. وهي من الجمعيات الناشطة التي تحتاج إلى الدعم والمؤازرة.

كان محمود الطناحي ونخبة من العاملين في ميدان تحقيق التراث متواجدين.

وقابلته وأحسست بدفء قلبه، وسعادته حين رآني. وبادرني، قرأت بحثك عن ألف ليلة وليلة. وهو كلام طيب . ولابد أن يطبع ويذاع على الناس، قبل أن أتحدث قال: توفيق أنت تعرف أنني صادق مع أصدقائي، ولو وجدت شيئًا يؤخذ عليك ما تركته هكذا كان دأبي ودأبك منذ التقينا.

استعدنا في هذا اللقاء بعضًا من ذكرياتنا. وكلما هممت بالمسير جذبني، ولحق بنا العالم الصديق الدكتور عبد الله الغنيم في ساحة الجامعة. فبادرنا بسؤاله: اجتمع توفيق الفيل والطناحي فلن ينتهي لهما حديث. وقد بدأت الجلسات.

انصرف كل منا على الرغم منه إلى مكان اجتماعه على أمل أن يلتقي ثلاثتنا بعد الجلسات. لكن اللقاء لم يتم، اتصلت به في العيد. لكنه لم يجب. ولن يجيب الطناحي فقد طوى الموت صفحة من أنصع الصفحات في فكرنا العربي، أسكت الموت

لسانًا فصيحًا لم يكن يضن بالعلم على طلابه، وخمدت جمرة لهيب متقدة تدفع عن اللغة العربية كل من يحاول النيل منها.

لقد نال محمود الطناحي بعلمه وخلقه، وعذب بيانه، وجميل منطقه تقدير كثير من العلماء والباحثين، ولا أظن أحدًا عرف الطناحي لم يعتصره الألم ولم تزلزل نفسه الصدمة في فقده. لقد كنا نجد فيه العوض عن شيخه، وشيخ المحققين، وأعظم من دافع عن العربية فكرًا وثقافة وحضارة. وتصدى بكل العزم والعلم والإصرار لكل دعاة التغريب، كنا نجد فيه العوض عن الشيخ شاكر الذي رحل عن عالمنا. لكن قلب الطناحي لم يحتمل كل ما يرى من الزيف والبهتان، فسكت وخمدت جذوته. وخلف في قلوبنا ألمًا وحسرة. ولعلنا نتمثل في الفراق يقول القائل:

« لَقَتْلٌ بِحَدِّ السيفِ أَهْوَنُ مَوْقِعًا   عَلى النفس مِن قَتْلٍ بحدِّ فِراقِ »

رحم الله الطناحي رحمة واسعة، وأجزل له العطاء بقدر ما أعطى لهذه الأمة وألهم أصدقاءه وزملاءه وتلاميذه الصبر. وعوضنا فيه خيرًا.

وحسبنا أن يكون محمود الطناحي وديعة عند من لا تضيع عنده الودائع، وتحفظ عنده الأمانات، ويجزي المؤمنين الذين عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار. وهي نعم الثواب، وحسنت مرتفقًا.

* * *

ورحل ربيع العربية (*)

أ. حامد البحراوى

« الطناحى الصغير »

يا موت ، مَالَكَ تختضر المحمودين وتخترم الطاهرين
مولعٌ أنت باعتيام الكرام
مغرمٌ أنت باصطفاء الصالحين
صبٌ أنت بأرواح العلماء العاملين
مستهامٌ أنت بالتصديق على الأتراح والأحزان
يا موت ، حنانيك ، ارفق بى
خفف من سادِيَّتِكَ
أغمد أسلحتك المشرعة
يا موت ، تخطف منى أبى ، وتسلب منى سندى
وتتركنى غريبًا يتيمًا
كم أنت قاس أيها الموت كم أنت قاس أيها الموت
ابعد بعدت بعدًا لا قرب له

من الثلاثاء الأسود والموافق ٢٣/٣/١٩٩٩م=٦/١٢/١٤١٩هـ تنتحب العربية وأهلها انتحابًا وسيظل انتحابها مدى الحياة ؛ لرحيل ربيع العربية وكعبة المحققين الأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحى – عليه سرمدى الرحمات – رحل وترك فى

(*) حفل تأبين « كلية الآداب » – جامعة حلوان – مصر – ٣ مايو ١٩٩٩.

قلوب محبيه جرحًا غائرًا لن يندمل، وفى نفوس أبنائه وتلاميذه شرخًا نافذًا لن يرأب.

عندما صك أذنى هذا النبأ الكئيب، أصابنى دوار، ومادت بى الأرض، ولم تحملنى قدماى، فسقطت كمن طُعن بِمخْيَطٍ، وصرت كالكرة تتقاذفها أقدام الرياح الغليظة، وكالحصاة أتت عليها مطارق ضخام.

أستاذى الكريم، ماذا أبكى فيك؟ ووالله لن أرى - ما عشتُ - قلبًا مثل قلبك، وروحًا مثل روحك، وعقلًا مثل عقلك، ووجهًا مثل وجهك، وصدرًا مثل صدرك، ولسانًا مثل لسانك فالقلب سليم، والروح طاهرة شفافة، والعقل متدفق عميق سريع المواتاة، والوجه منير صبوح لا تفارقه الابتسامة والبشاشة، والصدر آية فى النقاء، واللسان طلق فصيح

لو أن سَحْبَانَ باراه لأَسْحَبَهُ على فصاحته أذيال فأفادِ

فضلا عن أريحية شاسع مداها، وأيادٍ بيضاء تنم على كرم مَحْيدَها

ويصدق فيه قول الشاعر:

«وقد تَجَنَّب لا يوم العطاء كما تَجَنَّب ابنُ عطاءٍ لَثْغَةَ الرَّاءِ»

وعلى وجازة صحبتى لأستاذى تعلمت منه - أسكنه الله الجنة - احترام الأساتذة والشيوخ وإجلالهم، فكان - عليه الرحمة - يذكر أساتذته وشيوخه بتجلَّةٍ وتوقير وفخر، وهذا نادر فى أيامنا هذه إذ امتلأت بعض القلوب بأحجار النكران والجحود ولا حول ولا قوة إلا بالله، وتعلمت منه أيضًا حب العلم والإِخلاص إليه والدوران فى فلكه فى حالتى المنشط والمكْرَهِ،

وتعلمت ثالثًا الحصافة واستحضار الذهن تمامًا عند القراءة، وكثيرًا ما كان ينصحنى بالقراءة الناقدة الواعية هذه القراءة لا تقتصر على كتب النحو والصرف واللغة والأدب فحسب بل تمتد أطنابها إلى كافة فروع المكتبة العربية، وكان دائمًا يقول: «المكتبة العربية كتاب واحد...» وما تعلمته كثير كثير...

كان أستاذى - رحمه الله - زينة الدنيا وبهجتها، وأكبر حسنة بجامعة حلوان، والفارس المجلي فى تحقيق التراث، وبرحيله انهد ركن ركين من أركان تراثنا الأصيل الذى كان همَّ الراحل وسدمه والذى أطعمه لحمه ودمه، والذى أخلص له غاية الإخلاص فصار - رحمه الله - ضرغام أجمة التحقيق وتُدْرُج بستان التدقيق، فيه يصول ويجول، وبين أفنانه يصدح ويغرد كل ذلك دونما سعى لشهرة أو أضواء فالرجل كان زاهدًا عما فى يد الآخرين، ترك الغناء لمن يعبدون الغناء، والأضواء لمن يصلُّون إلى الأضواء.

كان - رحمه الله - راهبًا من رهبان العلم، يعمل فى أناة وتؤدة وإخلاص نادر مرتديًا عباءةً وثيرة نسيجها التواضع ولحمتها وسداها القناعة التامة.

ولا أبالغ إذا قلت: إن الراحل الكريم كان سفينة نحو وصرف ولغة وأدب، مكتظًا بالفرائد والفوائد والنوادر، وله فى ابتداع النادرة باع طويلٌ، إذ عُرف بين محبيه وعشاقه بأنه آخر ظرفاء العصر، وآية الابتداع أنه يبدع النادرة من موقفها الراهن.

ومن أبرز سمات أستاذى - عليه الرحمة - الضبط والدقة فى إخراج الألفاظ من مخارجها الصحيحة - وهذه سمة نادرة ولا أبالغ إذا قلت منعدمة - ولقد كنت ألتذ بسماع الكلمات من

فيه وأنتفض من ضبطه ودقته انتفاض الطائر بلله القطر ، بل إنى كنت أتعمد الخطأ أحيانًا فى نطق بعض الكلمات حتى أشبع سمعى وعقلى مما يتحدَّر من ثغره الفصيح .

وما يزال صوته الرخيم المتهدج زادًا لروحى وعبيرًا لأذنى

وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا الضبط وتلك الدقة راجعان إلى أن أستاذى – رحمه الله – نشأ فى ظل دوحة القرآن وحفظ آيه وأتقن قراءاته وعلومه ، ومعلوم أن القرآن نبع ثر العطاء ، أقول : هذا صحيح ، ولكن ثمة كثيرون حفظوا كتاب الله وأتقنوا علومه ومع ذلك هم خلو من هذا الضبط وتلك الدقة ، والذى يقع فى روعى أنه الإِخلاص ، فالرجل كان إخلاصًا يمشى على الأرض .

وفى آخر لقاء لى معه كان كعادته معى ، أبوة دفاقة ، حنان مفرط ، أستاذية عالية القدر ، باذخة المكانة ، ذهن متوقد ، وجه مشرق عليه سمت الصالحين ، جسد نحيل ولكنه شعلة نشاط ، هذا اللقاء كان السبت السابق لليوم الأسود مباشرة وفيه طلبت من أستاذى – رحمة الله عليه – كتابى « المقتضب » للمبرِّد ، و« غاية النهاية » لابن الجزرى وكدأبه معى انطلق قائلًا ، هما عندى وسآتيك بهما إن شاء الله – يوم الاثنين وانتظرت وانتظرت ولم يأت ولم يأت ، ولم أكن أعلم أن أستاذى قد وصل إلى غاية النهاية وجاءه المقتضب ليعرج بروح طاهرة إلى روح وريحان ورياض حسان فى جوار رب راضٍ غير غضبان .

إلهى أسكن أستاذى فى عليين، ومتعه بلذة النظر إلى وجهك الكريم، واسقه من رحيق مختوم واجعله من الأبرار المقربين واجمعنى به قريبًا فى مستقر رحمتك يا رب العالمين

«يا ليت أعضاء جسمى كُنّ ألسنةً
فصار يُثنى عليه كل أعضائى»

☆☆ من مأثورات العالم الراحل

- مَنْ طلب من الأيام صفوًا طلب وهمًا

- لابد أن نعمل فى المنشط والمكره

- إياك وحَسْوَ الطائر . أى لابد من التضلع من العلم والتأنى فى القراءة ، فالنظرة العجلى مدرجة للخطأ فى الفهم .

- كتب بلا فهارس كنز دفين .

وأختم قالتى هذه بأبيات للفرزدق يقول فيها :

« ألم تر أن الناس مات كبيرهم
وقد كان قبل البعث بعث محمد
ولم يغن عنه عيش سبعين حجة
وستين لما بان غير موسد
إلى حفرة غبراء يكره وردها
سوى أنها مثوى وضيع وسيد
نروح ونغدو والحتوف أمامنا
يضعن لنا حتف الردى كل مرصد »

* * *

حالة عشق مع التراث (*)

أ. د. حامد بن صالح الربيعي

وسكت قلب أبي محمد - غفر الله له، وأسكنه فسيح جناته- بعد حياة حافلة بالعطاء والانتاج العلمي المتميز، الذي لن يسكت، وسوف يظل يتحدث ويكشف للأجيال القادمة عن قامة كانت شامخة، وعن علم غزير وفكر مستنير.

لقد عاش الدكتور محمود الطناحي حالة عشق مع التراث بكل ما تعني كلمة العشق، حتى أصبح التراث قضيته الأولى التي شغلت عقله ونفسه وملأت عليه حياته، فحمل هم التراث وتحقيقه، وقضى سنوات عمره مجاهدًا بين خزائنه ومعاهده، مشتغلًا بنصوصه وكتبه حتى أضحى علمًا من أعلامه وممن يرجع إليهم في قضاياه ومسائله بعد أن مضى الرعيل الأول من تلك الأسماء اللامعة التي تعلم منها، وأخذ يستمد حماسه من سير أصحابها.

لقد عرفت الراحل منذ عقد من الزمان ونيف حين كان يعمل أستاذًا بجامعة أم القرى وكانت لي معه ذكريات جميلة لا تنسى ، وكنت شديد الإعجاب بشخصية الرجل وبجديته وطموحه، وبكثير من الخصال الجميلة التي كان يتمتع بها، إلى جانب غزارة علمه، وتنوع ثقافته.

حين كان يتحدث عن كتب التراث وعن التحقيق وما يتصل به تدرك من كلامه أن التحقيق عنده ليس عملًا آليًا كما

(*) جريدة «المدينة المنورة» - السعودية - ١٢ أبريل ١٩٩٩ .

يحسب بعض المبتدئين وإنما هو عمل شاق ومسئولية كبرى لا ينهض لها وبها إلا من أوتى نوعًا خاصًا من القدرة وتزود بزاد وفير من العلم وجمع بين أنواع شتى من المعارف المختلفة، وأحسب أنه كان كذلك يرحمه الله فالتحقيق عنده فن لا يجيده كل أحد، وبحر لجي لا يقترب منه إلا من كان يجيد السباحة وارتياد الأعماق.

لقد كان الطناحي - دائمًا يتحدث عن التحقيق من منطلق فهمه هو للتحقيق على أنه عملية شاقة جدًا، يكتنفها كثير من المخاطر التي لا تحسن معها المغامرة قبل إعداد العدة، لأنه كان يفهم كلمة « تحقيق » على نحو ربما لم يفهمها عليه كثير ممن يشتغلون بهذا الميدان ولربما كان ذلك بسبب شدة غيرته على التراث تلك الغيرة التي كانت تدفعه دائمًا إلى الحديث بمرارة شديدة عن تكرار الأعمال التراثية، وعن فوضى النشر وسوء الاختيار وغياب المنهج الرشيد وما إلى ذلك من القضايا والأمور التي كان يعرف مدى خطورتها على تراث الأمة، وهي أمور ما كانت لتوجد- كما يرى - لولا غياب النقد الذي يواكب الأعمال الجيدة فيبرزها، ويدل على مواضع الجودة فيها، وينبه على ما يكون فيها من نقص أو سهو، ويتعقب الأعمال الرديئة فيعريها ويكشف زيفها، فيكون ذلك رادعًا وزاجرًا لمقترفيها عن المضي في هذا الطريق الذي لا ينبغي أن يسلكه إلا من أعد عدته.

ولعل من أبرز الأمور التي كان يلح عليها، لأنها كانت تزعجه ويعتقد أنها من أهم ما ينبغي الاهتمام به، هو معرفة تاريخ نشر الكتاب العربي تلافيًا للوقوع في التكرار، وإلمام الدارسين بحركة النشر، وأن لا يبقى ذلك وقفًا على عدد من الأشخاص.

استمع إليه وهو يقول: «إن قضية تكرار نشر التراث قضية شائكة جدًا، ومجال الكلام فيها واسع جدًا ولا ينبغي أن تظل الإحاطة بها ومعرفتها قاصرة على بعض الأفراد الذين يعرفون عدد طبعات الكتاب، وأماكن طبعه، وفرق ما بين طبعاته، كما يعرف الناس أبناءهم فلابد أن تسجل هذه المعرفة في كتاب نقرأه، ويكون لنا مرجعًا لأولنا وآخرنا لأن الناس يموتون، ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.. وقد أدركت طبقة من أهل العلم كانوا يعرفون تاريخ نشر التراث العربي معرفة محيطة عجيبة عرفت منهم أربعًا: محمد رشاد عبد المطلب وفؤاد سيد بمصر وقاسم الرجب ببغداد والفقيه التطواني بالمغرب وقد ماتوا جميعًا رحمهم الله ومات معهم علمهم وسمعت بأحمد عبيد بدمشق ولم أره».

لقد كان يعلن الشكوى دائمًا ممن لا يقدرون حرمة التراث من الأدعياء الذين اتخذوا من التحقيق ونشر الكتب حرفة كان يكرر ذلك بغصة شديدة لما يراه ويعتقده من أن التراث في هذه الأيام قد قد بات يذبح بغير سكين إذ لم تعد الشكوى فقط من أعداء التراث وإنما انضمت إليها الشكوى من محبى التراث ومادحيه والمتعصبين له فقد اكثروا الثرثرة حول أهمية التراث وجمع التراث ونشر التراث، فإذا نظرت إلى ما بأيديهم منه لم تجد شيئًا فهي حماسة كاذبة ووفاء مدخول.. فالتراث قد ضني به الأوائل وسجلوه في أمانة وحرص ثم انتهى إلينا ليذمه من يذمه بجهل وليمدحه من يمدحه بغباوة.

ولم تقتصر شكوى هذا العالم الجليل على الشكوى مما يقوم به الأدعياء- كما كان يحلو له تسميتهم- ممن يسعون للكسب المادي أو المعنوي، ولكنها امتدت إلى ما يحصل للتراث وكتبه

داخل الجامعات ودور العلم العربية؛ فهو في الوقت الذي لا يخفي فيه إعجابه بما قام به بعض المحققين الأوائل الذين نالوا على أعمالهم درجات علمية وما يقوم به بعض معاصريه يبدي استيائه مما آل إليه الأمر في جامعاتنا حتى صرخ بأعلى صوته في محاضرة له بقاعة المحاضرات الكبرى بجامعة أم القرى منذ أكثر من عشر سنوات قائلًا : « ثم تمادى الأمر، واقتربت الحال، واختلت الموازين ولحق نشر التراث ما لحق غيره من أسباب الضعف والفساد، وانفتح الباب على مصراعيه، وصار التراث مطية ذلولًا ومركبًا سهلًا للحصول على الشهادات والترقيات؛ فكل من قصرت خطاه وضاقت أمامه السبل ركض خلف مخطوطة- ولتكن أي مخطوطة- يخرجها إخراجًا مشوهًا، ويقدم لها بدراسة هزيلة، ويفهرسها فهرسة تقليدية باردة، ثم يخرج في نهاية المطاف بلا شيء؛ لأنه دخل بلا شيء فلا هو استفاد ولا التراث استفاد، وهي جريمة كبرى سنسأل عنها جميعًا بين يدي رب العالمين ﴿يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خير محضرًا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا﴾ وجانب آخر سيئ في هذه القضية وهو أن هذه النماذج الرديئة التي يخرج بها تراثنا من داخل الجامعات العربية قد زهدت الناس في جدوى هذا العمل بل إنها دفعت بعضهم إلى أن يسأل هل يكون تحقيق الكتب الذي نراه الآن علمًا؟ والجواب بالقطع لا. انتهى كلامه.

* * *



محمود الطناحي ... سيرة قرآئية

د. حسين محمد بافقيه

شعرت وأنا أطالع خبر وفاة المحقق الكبير محمود الطناحى أن جزءاً من الذاكرة نما فى وجدانى ؛ حينما أعادنى ذلك الخبر الذى أصابنى بالحسرة والألم، إلى سنوات التكوين التى لما تنته بعدُ تلك السنوات التى أعجب كيف ضَمَّتْ وفى سلك واحد تلك الأسماء المختلفة التى حرصت أن تكون مؤتلفة فى ذاكرتى حتى لو أمعنت فى اختلافها يمنة ويسرة؛ لكنها كانت تشدنى إليها شداً رفيقاً، وتمس مني مواطن الإكبارلتلك الأسماء التى أشعلت فىَّ الأسئلة وجعلتنى مشغوفاً بها، حتى لو تنافرت تلك الأسماء الكبيرة، بل لعل تنافرها هو مجمع ائتلافها فى تكوينى: (عمر فروخ، محمود محمد شاكر، غالى شكري، عبدالله الطيب المجذوب، نجيب البهبيتي، محمود محمد الطناحي .. إلخ).

كان كتاب (مدخل إلى نشر التراث العربى) العتبة الأولى التى تعرفت من خلالها إلى جهد الطناحى-رحمه الله-هذا الكتاب الذى مازال- وصنوه(الموجز فى مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريف العلوم)- قريبا من متناول يدى كلما هممت بقراءة أجد فيها متعة دون أن أصاب بملل لكثرة تقلب ذلك الكتاب- وصنوه- بين يدى! منذ عام ١٤٠٨ هـ وحتى الآن وكنت كلما عاودت قراءة هذين الكتابين المهمين- ازداد إكباراً لهذا الرجل الذى ارتبط منذ شبابه الأول بالتراث قراءة ونشراً

(*) جريدة « البلاد » - السعودية - ١٣ مايو ١٩٩٩ .

وتأليفا، وزاد اهتمامى به، ومتابعة انتاجه الفكرى، مقالاته الرفيعة التى كان يطالعنا بها -رحمه الله-فى مجلة (الهلال)، تلك المقالات التى جمعت إلى علمه الواسع باللغة والأدب تلك المقدرة على الكتابة الأدبية التى جعلته من أهم كتاب تلك المجلة العتيدة حتى طالعت خبر وفاته-رحمه الله-فلم ألبث أن تألمت لعدم تعرفى إلى هذا العالم الأديب.

* * *

ينتمى محمود محمد الطناحي إلى ذلك الجيل من العلماء الأدباء الذين أخذوا على أنفسهم تجويد عبارتهم وتجميلها؛ مع ذلك التضلع من العربية وآدابها والتراجم والسير، وعلم الرجال؛ الذي يعد من أظهر العلوم العربية، ولعل ذلك أن يكون سر إكباره للعلامة خير الدين الزركلي- رحمه الله- الذي نعته بـ (علم الأعلام) في إهدائه كتابه (الموجز في التراجم)، هذا الكتاب الموجز الذى اشتمل على فوائد شائقة في محتواها العظيم إلى تلك اللغة البيانية الرفيعة التي أخرجت هذا الكتاب الوراقي (الببليوغرافي) من رتابة المصنفات المشابهة له، ما يجعل من هذين الكتابين مرجعين أساسيين في بابهما؛ وبخاصة (مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي)، لريادته في هذا الفن؛ الذي عني بتسليط الضوء على طبقة (الناشرين والمحققين) في العصر الحديث- عربا ومستشرقين- على ذلك النحو من العلم الكبير، والرواية الواسعة؛ التي يتسم بها هذا المحقق؛ الذي استطاع- وثلة من المحققين- أن يجعلوا من نشر التراث العربي عملا جماليا وفنا قائما بذاته؛ على تلك الهيئة؛ التي تجدها في نشره لـ (أمالي ابن الشجري)، و(كتاب الشعر) لأبي علي الفارسي، و(أعمار الأعيان) لابن الجوزي؛ إذ لم يكن نشره

هذه الكتب وغيرها، عملا آليا، لا يسمح لك أن تقف، ولو وقفات قصارا، على تقديم الناشر، كما تجد ذلك لدى عدد ليس بالقليل؛ من أولئك النفر؛ الذين حولوا نشر التراث العربي إلى ساحة لـ (نشر) التراث بـ (منشار) العبث العلمي؛ الذي يمارس- وذلك مما يؤسف عليه- باسم الغيرة على التراث!

غير أن الأمر لدى عالم أديب كمحمود الطناحي- رحمه الله- جد مختلف! حيث يغدو نشر التراث لديه خطاب عشق، بين النص وناشره، أو كأنه لا يريد لعمله أن يظل هامشا على متن، لكنه يحاصرك بتلك المعلومات التي تنثال عليها انثيالا: لغة ونحوا وأدبا وتاريخا وفقها- كما في نشره لـ (أعمار الأعيان) لابن الجوزي، عبر تلك المقدمة التي تعد درسا بليغا في علم الكبار؛ في إحاطته الموثقة بعلم التاريخ والتراجم لدى العرب؛ في فنونه المختلفة متسلحا بذلك التواضع الذي لا تجده إلا لدى الكبار؛ حيث يقول، بعد أن جال في مظان كتب التاريخ والتراجم واللغة والأدب:

«وهذا الذى ذكرته على سبيل الوجازة والاختصار- وقد فاتني منه الكثير- يدلك إن شاء الله، على اتساع دائرة علم التاريخ عند المسلمين أحداثا وتراجم، ولعله يزهدك في تلك الدعوة التي تثار بين الحين والآخر: وهي دعوة (إعادة كتابة التاريخ الإسلامي) على ما يرى بعضهم من نبذ الكتاب القديم؛ بعد استخلاص مجمله وتخليصه من الشوائب التي فيه ثم تقديمه بلغة العصر!».

ويبدو أن لتلمذة الطناحي لشيخه محمود محمد شاكر أثرا في تكوينه العلمي والفكري؛ يتضح ذلك في عدد من آرائه

(الحدية) التي لا ترى في الجديد سوى آثار الهدم والتشويه للثقافة العربية!

ولذلك لم ير- رحمه الله- في (الوحدة الموضوعية، وتراسل الحواس، و«المونولوغ» الداخلي، والشعر المهموس، والحداثة المعاصرة)، سوى كونها (قضايا فارغة)! أو وصفه لـ (اللسانيات المعاصرة) بأنها «كانت البلية التي دونها كل بلية في خضوعنا للفكر الغربي في درس علوم اللسان العربي؛ نحوا وصرفا ولغة..»! وهذه النغمة ليست بغريبة في عدد من الأعلام الكبار؛ الذين كانت لهم مواقفهم المتحفظة من حركات التحديث والتجديد؛ لكنهم يظلون كبارا؛ حتى لو ناهضوا الجديد، وللطناحي – في هذا الباب- سلف أعلام اعتقدوا ما ظنوه حقا؛ ولم تحل محاربتهم للجديد دون تقدير الثقافة العربية المعاصرة؛ كـ (عمر فروخ ومحمود محمد شاكر).

غير أن لتلمذته، كذلك، لمحمود محمد شاكر أثرا إيجابيا في تكوينه الأدبي والفني فـ (القوس العذراء) تشهد على شاعرية الشيخ محمود محمد شاكر – رحمه الله- و(نمط صعب ونمط مخيف) درس رفيع في التذوق الفني للنصوص الأدبية قلما تجده لدى النقاد المحدثين! فلا غرابة أن تكون لغة تلميذه الطناحي بيانية عالية، جعلت من الطناحي النحوي من أبرز كتاب المقالة الأدبية- التي تجمع إلى العلم رشاقة الأسلوب- في مجلة (الهلال) المصرية، وأن يظل أديبا ذا حس فني عال؛ حتى لو كانت المادة التي بين يديه مسألة في النحو أو اللغة؛ كما في مقاله (الآي تترى) – الهلال: ربيع الأول ١٤١٩ هـ- الذى ربط فيه بين همزية شوقي:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

وبخاصة بيته الرائع:

والآي تترى والخوارق جمة   جبريل رواح بها غداء

والمبحث اللغوي المتعلق بكلمة (تترى) والخطأ الشائع في استعمال بعض الناس- ومنهم أدباء وعلماء- كلمة (تترى) على أنها فعل مضارع؛ فقدم بحثا لغويا دقيقا في كلمة (تترى)! دون أن يشهر سيف النحاة وفقهاء اللغة في وجه الناس!

رحم الله المحقق الفنان محمود محمد الطناحي العالم الأديب وأجزل مثوبته.

* * *

فقيد التراث (*)

أ.د. حسين نصار

كان من الممكن ألا نلتقي شخصيًا، وأن يعرف أحدنا الآخر في كتاب يصدره، أو مقال ينشره فقد كان ابن كلية غير الكلية التي أنتمي إليها ولا يعمل- في أول الأمر- في إحدى الجامعات التي اتصلت بها مدرسًا أو مشرفًا على إحدى الرسائل أو مناقشًا فيها.

وفي يوم من الأيام دعاني الصديق أ.د تمام حسان إلى مشاركته في مناقشة إحدى الرسائل النحوية، التي تحقق ألفية « ابن معطي » وتدرسها، وعندما تلمستها عرفت أنها من إنجاز من يدعى محمود الطناحي وكانت رسالة صغيرة ولكنها تدل على قدرة صاحبها.

وانقطعت صلتي بصاحب الرسالة إلا من مرات قلائل متباعدة تمت فيها بيننا لقاءات عابرة، لكنها كشفت عن أنه ما يزال يحفظ الذكرى والامتنان، ويحسن تقدير اللقاء فكشفت بعض ما تبينته فيه- بعد- من إنسان يحمل الود للناس ويصون الشكر لما رآه جميلًا من أفعالهم، وإن كان في الواقع واجبهم الذي يفرضه عليهم عملهم.

ثم أراد الله لي أن أعين رئيسًا لمعهد المخطوطات في جامعة الدول العربية، وكان الطناحي أحد العاملين فيه، والحق أن أكثر العاملين في هذا المعهد كانوا كأنما صبوا لعملهم فلا يشغل

(*) جريدة « المدينة المنورة » – السعودية – ١٢ أبريل ١٩٩٩ .

أفكارهم غير البحث عن أماكن المخطوطات ومعرفة أهميتها، والسعي وراء الحصول على مصورات جيدة لها، وإنجاز الفهارس المرشدة، وتيسير الوصول إليها أمام الدارسين والمحققين، لا يعبؤون ببعد هذه الأماكن أو صعوبة الوصول إليها أو عدم توفر أسباب المعيشة اللائقة فيها.

ولم يقنع كثير منهم - والطناحي في مقدمتهم- بهذا الإنجاز واختاروا مخطوطات نفيسة قاموا بتحقيقها مجتمعين أحيانًا، ومنفردين أحيانًا ومنذ ذلك الوقت نشأت بيننا صداقة وطيدة، استمرت في الرسوخ والاتساع على مر الأيام، فالرجل كان نعم الصديق، نفسًا صافية، وروحًا بشوشًا ولسانًا حلوًا وقولًا تستملحه القلوب، وتتهافت إليه الآذان.

وكان نعم الدارس، عاشقًا للتراث، نشأ في رحابه، وتربى على يدي خيرة من رجاله مثل الشيخين السيد أحمد صقر ومحمود محمد شاكر فذاق حلاوة العمل فيه، وعرف متعة الكشف عن المجهول والمستغلق والساقط منه فكان خير تلميذ لخير أساتذة أخذ في الترقي إلى أن صار من أساتذة التراث المرموقين وقدم للمكتبة العربية نماذج حميدة من التحقيق على الأصول العلمية السليمة.

صفتان متباعدتان قد يظن ظانون أنهما متناقضتان ولكنهما اجتمعتا في مزاج رائق في الفقيد فمنحتاه شخصية العالم في البحث والنقاش، وشخصية السمير في النجوى والاجتماع.

فإذا جذبت هاتان الصفتان أحدًا للاقتراب أو الاتصال بصاحبهما وجد كنزًا ثمينًا من المعرفة بالمشتغلين بالتحقيق

ومناهجهم وأقدارهم وكنزًا رائعًا من التواضع الذي دفعه إلى أن يكشف جميع مراحل كفاحه في سبيل بلوغ ما يؤمل من الحياة دون أي غطاء ودفعه إلى أن يكون أخًا للواعدين من الناشئين الذين يلمس عنهم الجد الحق.

رحم الله محمود الطناحي وأسكنه فسيح جناته.

* * *

كَان صَخْرةً رَّاسِيةً في ذَلِكَ الهَرَمِ الشَّامِخِ (*)

أ. د. رياض حسن الخوام

رحل «أبو أروى» فجأة؛ فأورث في القلوب حسرةً ولوعةً؛ لأن ذكرياتنا معه تمتد إلى أكثر من عشر سنوات خلت؛ كان لنا معه جلسات- رعى الله أيامها- ومسامرات ما أجمل سويعاتها وحكايات- ما ألذ سماعها من «أبي محمد»!- فالدعابة هجيراه، والابتسامة دائمًا على محياه، واللطافة سيماه؛ فلا يمل جليسه، ولا يُسأم حديثه، وكأنه وكل - رحمه الله وبرد مضجعه- بإدخال السرور على قلوب محبيه، وكشف الهموم عن مجالسيه.

رزق ذكاءً حادًا، وحافظة عجيبة، ومشايخ شهد لهم بالفضل والإمامة أشهرهم:-

(الشيخ محمود شاكر، والشيخ أحمد راتب النفاخ) فتهدى بهديهما، وترسم خطاهما منهجًا وسلوكًا، منافحًا عن تراثه ذائدًا عن حياضه؛ فكان- رحمه الله- صخرة راسية في ذلك الهرم الشامخ، ومنهلًا عذبًا معطاءً ظل يروي العطاش، على مدى ثلاثين سنة ملأها - رحمه الله- تحصيلًا وتدريسًا وتأليفًا ؛ فأفاد وأجاد؛ حتى أجمع القوم الذين يعتد برأيهم على علو طبقته، ورفعة منزلته.

سرت اللغة في دمه، وامتزجت النصوص اللغوية الراقية مع روحه «فكبترها» في داخله وفق «برمجة» دقيقة؛ فآتت أكلها، دقة في الضبط، وجزالة في اللفظ وروعة في البيان؛ مع حسن صياغة، وجمال صناعة؛ فكأن القديم عنده صار حديثًا، والحديث أضحى قديمًا. إن طلبته في اللغة وما يتصل بها وجدته ابن

(*) جريدة «البلاد» - السعودية - ١٥ أبريل ١٩٩٩ .

بجدتها، وإن رمته في تحقيق النصوص فهو أبو عذرتها، موهبة أصيلة، وخبرة طويلة؛ فحاز السبق في هذا الفن حتى تحقق فيه، وصار جزءًا من شخصه.

عارضته- رحمه الله- مشافهة فيما كتبه في مقدمة كتاب (الشعر) لأبي علي الفارسي لأن الباعث له علي هذه الكتابة رجل عالم فاضل، وكل منهما قد خدم التراث العربي خدمات جليلة، فهما أخوان في خندق واحد، ثم إن الكمال لله وحده؛ فازدادت بذلك الوشيجة بيننا قوة ومتانة، وتوثقت العلاقة صلابة، وتوطدت أركانًا.

شمائل رفيعة وصفات حميدة من سريرة نقية، وقلب طيب، وحال رضية، واختلاف الرأي عنده في مسألة- لا يفسد للود قضية - هذا هو حال العلماء وسلوك النبلاء.

رحمك الله أبا أروى، وتغمدك بألطافه؛ فهو البر الرحيم، العفو الغفور، تركت جيلًا من الطلبة مازالوا يذكرونك:

حبًا ووفاءً، ودخلت سويداء قلوبهم؛ فهم يتحدثون عنك شكرًا وثناءً؛ فلله الحمد والمنة، ولعلها بشائر خير وقبول، وعزاؤنا أن هذا الطريق مطروق؛ فأنت سابق، وغيرك بك لاحق، فما لقضاء الله رد.

جمعنا الله جميعًا في جنته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

ألهم الله أهلك وأحباءك الصبر والسلوان، ولا يسعنا إلا أن نقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون).

* * *

أنين قلب (*)

أ.د. سعد حمدان الغامدي

منذ كنا في الجامعة طلابًا سنوات التسعينات الهجرية إلى يومنا هذا مر تحت أسماعنا وأبصارنا عدد كبير من الأساتذة في كلية اللغة العربية، منهم من حسن عمله وخلقه ومنهم غير ذلك، كانوا طرائق قددًا، وقد كان في كل واحد منهم خير وذلك لأن الحد الأدنى من محاولة إفادة الطلاب وتعليمهم كان ولا زال، إلى ما يكون من ندوات ومناقشات ومماحكات بين الأساتذة تؤتي أكلها كل حين فائدة علمية هنا أو خلقية هناك أو خبرة هنالك، وكان لجملة هؤلاء الأساتذة الأجلاء من المصريين والسعوديين وغيرهم أثر طيب كالشمس وضوحًا وبهاء تمثل في أشياء كثيرة منها إنشاء واستمرار الدراسات العليا في كلية اللغة العربية مما ساعد على تنشيط حركة البحث العلمي، وإيجاد عدد كبير من الأساتذة والباحثين الذين نتمنى لهم التوفيق والسداد في إكمال مسيرة الدرس والبحث العلميين وفي توطيد دعائم الفضيلة والخير.

وفي هذا الموقف الجليل الذي نريد فيه التعبير عن الألم والأسى وخز قلوبنا وعقولنا لوفاة أبي أروى ومحمد شيخنا محمود الطناحي، نتذكر أساتذتنا الكرام من مات منهم فندعوا لهم بالرحمة وأن يجزيهم الله أحسن الجزاء على ما قدموه من أياد بيضاء لنا ولطلاب العلم في كل مكان، أما من بقى منهم فلهم منا دعاء بتمام الصحة والعافية وأن يوفقهم الله إلى كل خير في أي مكان حلوا وأنى توجهوا وأن ينفع بهم إنه سميع مجيب.

(*) جريدة «المدينة المنورة» – السعودية – ١٢ أبريل ١٩٩٩ .

ولأبي أروى فضل عظيم ويد بيضاء لا تنسى على عدد كبير من الأساتذة السعوديين فقد كان مشرفًا على رسائل الدكتوراه والماجستير لبعضهم وناقش بعضهم، ودرس لآخرين في الدراسات العليا والدراسات الجامعية، وهو من الذين جمعوا إلى العلم حسن الخلق، فما حضر مجلسًا قط إلا شاعت فيه البهجة والمرح وتبددت فيه الكآبة وسقطت أقنعة التجهم والتكلف واندحرت أدران النفوس وأدواؤها.

في هذه الجلسات التي يزينها أبو محمد تعلمنا أن الحياة جد وهزل ، بكاء وضحك ، أسف وأمل، ظلام ونور، قيود وحرية، فهذه مسألة علمية عويصة له يد طولى في إثارتها وبحثها وتقصي مناحيهاوتلك طرفة تستخرج الضحكة المجلجلة من فم الغضوب المتزمت؛ نعم إنها مجالس حافلة كان الطناحي زينتها وأبا بجدتها وراكب صهوتها.

مات أبو محمد، وبلغنا الخبر بأُخَرَةٍ، فكانت كآبة وكان ألمًا، رحمك الله يا أبا أروى فعلى الرغم من اليأس والإحباط والدموع والألم الذي ملك على نفسي عند سماع النبأ الفاجعة، إلا أن تذكر مواقفك وكلامك ومجالسك وطرفك يأبى إلا أن تغتصب الشفاة البسمات ويأبى إلا أن يخلط الدموع بالضحكات، ويأبى إلا أن يضئ ظلمات الحزن عليك بنور الفرح بك إذ كتب الله لنا أن نلتقي وأن نتحاب في الله وفي العلم وأن نكون أصدقاء وأنت الشيخ وأنا طويلب العلم في رحاب كليتنا الحبيبة.

سيظل شغفك بالبحث والتحقيق، وشغلك بالتنقيب والتنقير في تراثنا الجميل والجليل، وحبك وعشقك له ولأساطينه وطلابه وستظل نوادرك ومعلوماتك وجدك وهزلك ودموعك وضحكاتك

وغضبك ورضاك، وضعفك وقوتك، ومرضك وصحتك، سيظل كل ذلك وكل ما فيك صفحات رائعة نتصفحها نعشقها نحاول الإفادة منها والاعتبار بها، لنكون ممن يستطيع الحياة بشقيها الحلو والمر، ولنتمكن من الضحك في غمرة الألم والبؤس، ومن الأمل في بحور الظلام واليأس، ومن الاعتزاز بالنفس والشموخ في وقت القهر والذل، ومن أن نحلم بالعدل والنور عندما تهب عاصفة الظلم والظلام.

وإذا كان الموت أكبر واعظ، وكفى به واعظًا، كما قالوا قديماً فإن موت الطناحي واعظ شديد الحضور قوي الدلالة فصيح العبارة بارع الحجة صائب الإشارة، لأنه موت للفرح والبهجة والأمل والحياة فلا اغترار، ولأنه يذكرنا في الوقت نفسه بحياة ملئت علمًا وأملًا وبهجة وفرحًا بحياة رائعة عاشها الطناحي ممارسًا فيها إنسانيته بعجرها وبجرها، وفي هذا التذكر حياة لأولي الألباب .

الطناحي أنموذج إنساني واضح في عطائه ومنعه وفي كل جوانبه الإنسانية، أراد الله أن يكون معنا وأن يؤثر فينا، وأن يجعلنا من محبيه ومن رواة طرفه ونوادره ولحاته ومن المتحدثين عن أخلاقه وفضائله. وقد خسرناه عندما غادر مكة المكرمة آيبًا إلى بلده الكريم ولكن بقي لنا ما تركه من أثر طيب خالد في نفس كل من زامله أو تتلمذ عليه وقد ندمنا أن فرطنا فيه؛ إذ بذهابه وذهاب غيره من أساتذتنا الكرام خسرنا الكثير والكثير، ولكن بقي من أثرهم الطيب الكثير والكثير طلابًا وأساتذة وكتبًا وبحوثًا ستكون نورًا لمن أراد من الأجيال الحاضرة والقادمة.

إن سيرة شيخنا الطناحي حياة وموتًا دعوة لي ولزملائي الأصدقاء منهم وغير الأصدقاء أن نجتمع وأن نلتقي وأن نتواصل عطاء ومنعًا، جدًا وهزلًا، وأن نحاول تصفية الخلافات وتنقية القلوب والعقول وأن نستكبر على الصغائر وأن نصطفى المكارم والمحامد وأن نعمل جميعًا في طريق واحد لغاية واحدة تعود بالخير لنا ولأمتنا ولغتنا الجميلة وتراثنا العظيم وديننا الحنيف وعزتنا الشماء على قدر استطاعتنا وبقدر ما يسمح به الزمان لكل منا ولنا جميعًا.

وفي موقف الطناحي من الحياة والناس وفي روحه الطيبة وأخلاقه السمحة وبساطته وإخلاصه لتراثه وأمته صورة رائعة حبذا لو حاول كل واحد منا أن يكون كما كان أبو أروى.

رحمك الله يا أبا محمد رحمة واسعة وسامحك وعفا عنك وجعل سيئاتك حسنات وأسكنك فسيح الجنات مع الصديقين والشهداء، وحفظ الله أسرتك وأغناهم وعافاهم وجنبهم السوء من بعدك، ومن علينا وعليك وعلى المسلمين أجمعين بما يَمن به على عباده الصالحين المخلصين في الدنيا ويوم الدين إنه على كل شيء قدير، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

بعد اللقــاء (*)

أ . السعيد السيد خضر

ا   الله مـن بـرأ الـورى سـواك
في صورة وسعت بديع سماك
د   دق الصنيع بكل عضو حزته
فغدوت أكمل من يراه سواك

* * *

م   ما أبدع الصنع الحكيم وقد حوى
أم اللـغـات أذاعـهـا مـولاك
ح   حاورت ألباب الحضور مداعبًا
فالكل مشدود بحبل هواك
م   من ذا الذى لا تعتريه صبابة
عند السماع فلا يود حراكا
و   والجمع يخشى أن تمر دقائق
من قبل أن يحظى بنور سناك
د   دارت على الأفواه كأس بيانكم
فازداد شوقًا من يذوق شفاك

* * *

م   محبوبة منك الحروف جميعها
فكأنها زهر يقبل فاك
ح   حاشاك من حرف يخالف مخرجًا
ثوب البيان نسيجه لحماك
م   محمودة فيك السجايا كلها
فالله بالقرآن قد ربَّاك
د   دارت حروف الحمد حولك فانثنى
عنك الرجيم فلا يمس حماك

(*) حفل تأبين « كلية الآداب » - « جامعة حلوان » - ٣ مايو ١٩٩٩.

ا الله قد أعطاك قدرة حاذق
ومحقق سبحان من أعطاك
ل لله ما أفنيت من جهد بها
تلك الأمالى كللت مسعاك
ط طاولت أجواز الفضاء مسجلًا
خمسين فصلًا لا تمل قواك
ن نعم الذى أعطى وفاض عطاؤه
إن الصعاب جميعها تخشاك
ا البحث عندك قمة مرفوعة
لا ترتضى دون العلى إدراكًا
ح حيَّاك ربك فى المقاصد كلها
وحباك بالتحقيق ما أحراك
ي يأيها المحمود إنك واحد
علم تلألأ فى السماء ضياك

* * *

اجمع حروف البدء فى أبياتنا
تجد المسمى ليس ذاك سواك
«محمود» اسمك والأساس «محمد»
أما الطناحى فهو من لقباك
نعم المسمى والمسمى والذى
قد هذب الأخلاق حين حباك
يجزيك ربك ما أفاد معلم
ويسود نهجك هاهنا وهناك

* * *

سيقولون عن الطنطاحي: ماذا قدم؟ (*)

أ. د. سليمان بن إبراهيم العايد

الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد «لكل أجل كتاب» قدر الآجال، وحد الأعمار، وقسم الأرزاق، وجعل كل مخلوق ميسرًا لما خلق له، وجعل الموت سنة جارية على خلقه كلهم؛ الصغير والكبير، الأمير والمأمور، ما نجا منه أكرم الخلق وأحبهم إليه؛ سيد ولد آدم؛ سيد الأولين والآخرين؛ محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى ينجو غيره ؛ممن تقل درجته عند رب العالمين؛ مقدر الآجال، وحاد الأعمار ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد* أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت * ونبلوكم بالشر والخير فتنة، وإلينا ترجعون﴾. [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

فالموت المصير المحتوم لكل حي ﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال: ﴿كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون﴾ [العنكبوت: ٥٧]. هذه الآيات وأمثالها مما يعظ القلوب الغافلة، ويجلو النفوس الصدئة، ويذكر الأفئدة الناسية، ويوقظ الوسنان من رقدته، ويدفع عنها غوائل الغفلة وصروفها، وإلا فما أعظم ما يصاب به المرء في حياته من زيارات ملك الموت! وقد كان السلف يعزون أنفسهم بمثل قول القائل:

« وإذا دهتك مصيبة فاصبر لها   واذكر مصابك بالنبي محمد »

(*) جريدة «البلاد» - السعودية - ١٥ أبريل ١٩٩٩ .

إنه خلال أيام خلت فقدنا أعلامًا في العلم؛ مضوا إلى ربهم، مجيبين الداعى، تاركين وراءهم فراغًا لا يملؤه غيرهم؛ لأن الرجال لا تعوض بالرجال:

«لكل مكان لا يسد اختلاله مكان أخيه من جزوع ولا نضد»

فقدنا الشيخ القاضي العلامة صالح بن علي الغصون،ومن قبله الشيخ الدكتور سالم بن عبد الله الدخيل؛ ومن بعدهما؛ وهو آخر من سلسلة لا آخر لها أ.د. حسن ظاظا؛ فقدناه بالأمس القريب، كما فقدنا أستاذنا الدكتور محمود بن محمد الطناحي؛ ولكل منهم حق، غير أن المقام يضيق عن الوفاء بحقهم جميعًا في موضع كهذا ولعله يكتب، بل كتب عن كل واحد منهم من هو أوثق به صلة من غيره.

قلنا حين رحل عنا الأديب المبدع؛ المحقق البارع شيخ المحققين؛ لا بل زعيمهم الشيخ محمود شاكر: ومن حَلَّ مكانه؟! ثم ما فتئ الموت يدير رحاه، حتى اصطفى محمودًا آخر، يتشبه به، ويتقيل آثاره؛ ففجع الوسط العلمي التراثي بفقد رجلين من رجاله في مدة قصيرة، وقد كتب عن الشيخ محمود شاكر الكثير وقت وفاته، إلى أن توج ذلك برسائل علمية، فرحمه الله، وغفر له، وأسكنه فسيح جناته.

أما شيخنا وأستاذنا الأستاذ الدكتور محمود بن محمد الطناحي، أبو أروى، وأبو محمد صاحب الدعابة، والنكتة الحاضرة، والطرفة العتيدة؛ فالحديث عنه لا يمل؛ وهو أشهى إلى النفس من الماء الزلال، ولو حدث محدث عن طرائفه ليلة ما شعر السامرون بطول تلك الليلة، ولاختلط عليهم أولها بآخرها؛ يعرف عنه ذلك محبوه ومخالطوه، وليست هذه الكلمة متجهة لذلك،

وما هو من مقاصدها، وما أنا بالذي هيئ لتلك، ولأن المقام- الآن- مقام دعاء وترحم، وطلب الغفران والعافية أبعد بنا القلم عن هذا الميدان، أو هذا السرح من القول، وما أظنه مقتربًا أو حائمًا حوله فيما استقبله من أيام.

إن الطناحي - رحمه الله- حديقة تراثية غناء تجول فيها بين الأوراق التراثية وورودها، وأزهارها، وثمارها، ومروجها ورياضها، وعيونها وأنهارها، لا يخلو مجلس له من فائدة، ولا يخلو حديثه من رائعة، إن استدللت به دلك وقادك، وإن أدليت إليه بحبلك منحت وسقيت .

وتعود معرفتي؛ بل صلتي به- رحمه الله- إلى بداية عام ١٣٩٧هـ حين التقيت به في معهد المخطوطات، ومعي رسالة كتبت إليه؛ فيها توصية بي خاصة؛ تناولها، وقرأها، ورحب بي وبكاتبها، وأجلسني إلى جواره؛ وهو يدير أقراص أفلام المخطوطات؛ يتصفح ما فيها، ويدون ما يراه جديرًا بالتدوين؛ من وصف النسخ، أو الفوائد العلمية ، وكنت- إذ ذاك- أحضر رسالة (الماجستير) في المثلثات اللغوية للفيروزآبادي، وكان هو - رحمه الله- يحقق أمالي ابن الشجري رسالة (دكتوراه)في دار العلوم.

ثم شاء الله أن يتعزز هذا اللقاء حيث استقدمته جامعة الملك عبد العزيز (شطر مكة) سنة ١٣٩٨هـ للعمل بها خبيرًا للمخطوطات: باحثًا، ومحققًا في مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي- آنذاك- مع ثلة ذات شأن في تحقيق المخطوطات؛ كان لعملها الفضل السابغ فيما اكتسبته جامعة أم القرى من سمعة في المخطوطات: جمعًا، وفهرسةً، وتحقيقًا،

وعنايةً، وريادة، وكنت أعتاد زيارته، وألم به الفينة بعد الفينة في حجرته الصغيرة التي لا تتسع لغير ما فيها من المعاجم، وأصول التراث، والموسوعات العلمية، وهي آلة الشيخ وعدته في عمله.

وكنت أجلس إليه، وأسمع منه وأفيد، وأستنصح وأستشير، وكان لا يضن بشيئ يملكه، ثم انتدب للتدريس والإشراف في قسم الدراسات العليا العربية، وقسم اللغة العربية، من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، وكنت قد شرعت في رسالة (الدكتوراه) في «غريب الحديث» للحربي، وكان المشرف- آنذاك- معالي أ.د. راشد بن راجح الشريف، الذي أثقله الإشراف مع المهمات الجديدة التي أسندت إليه في وكالة الجامعة الناشئة؛ فرغب في تخفيف عبئه العلمي؛ فكان من ذلك إشرافه على عدد من رسائل الطلاب في قسم الدراسات العليا العربية، وكان نصيب هؤلاء أن أحيلوا إلى أستاذنا الطناحي- رحمه الله- فكانت هذه الرسائل أول رسائل يشرف عليها في جامعة أم القرى.

وشهادة أشهدها بحق أنه كان نعم المشرف؛ إذ كان عمليًا: سريع القراءة، قريب الإنجاز، صادق الوعد، والأشغال كثيرة، والصوارف عن الإنجاز وفيرة؛ مع ما يزين شيخنا من خلق، ومرح، وحسن توجيه، كما كان التراث بين عينيه؛ لكثرة مطالعته، وقراءته فيه، وكان يستحضر كثيرًا من نصوصه، أو يهدي السائل إلى مظنتها، ولا يخيب؛ ولهذا كنا نفزع إليه في كثير مما يعرض لنا من مشكلات التحقيق، والتخريج، وقراءة النص، وعويص المسائل، وغريبها، كما نسأله عن الشواهد، والنصوص، كنا معه هكذا؛ ونحن طلاب، واستمرت الصلة العلمية حين خالطناه عن قرب، وصرنا زملاء في قسم علمي؛ فكنا نعرض عليه شيئًا مما نعمل،

ونفيد من ملحوظاته؛ وهذا مما يشهد به كثير ممن خالطوه، وأفادوا منه.

ومع هذا قد تسمع كليمات من أناس، غدا شغلهم الشاغل، وعلمهم الدؤوب تنقص الآخرين، وغمطهم حقهم، والاستخفاف بما عملوا، ظنًا منهم أن ذلك يرفع خسيستهم- على حد ما يقول الطناحي- لا يبالون ما قالوا: أقالوا: الحق أم زاغوا عنه؟! كما تنقص من قبل أمثال الشيخ محمود شاكر؛ إذ قيل عنه: ماذا قدم؟!

وليس قولك من هذا بضائره الحل يعرف من أنكرت والحرم!

وسيقولون عن الطناحي: ماذا قدم؟ غير أن ذلك لا يضيره؛ فهم كما قال تعالى: ﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾، ثم هي «شنشنة أعرفها من أخزم»، وحركات خفافيش ليلية؛ تتحرك حين يهجع الناس، وتهجع حين يستيقظون؛ فهم إما نائمون، وإما منوم عنهم، لا يرون، ولا يسمعون، والطناحي هو الطناحي، وكفى! على حد قول «الفراء» حين سئل عن «اليزيدي» وشيخه الكسائي، فقال: أبو محمد رجل صالح عاقل. وأما الكسائي فهو الكسائي. يردد هذه الكلمة!!

وهؤلاء (بحمد الله) أجيال منقرضة؛ فهم أمة منتقصة من أطرافها، وغيرهم نام زائد؛ يؤتي ثمارًا بالقليل من الجهد، فهم يأكل بعضهم بعضا، وهم من عناهم الشاعر حين قال:

«اصبر على مضض الحسـ ود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله!»

وهم وقود الرائحة الزكية التي ينشرها الموتى بذكرهم الحسن، وعملهم الخالد، وفعلهم الجميل:

«وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود»

وهم صفحة الإعلان المجانية لنشر فضائل العاملين من الموتى، إذاعتها بين من لم يعرفهم من الأحياء. ﴿قل موتوا بغيظكم﴾، ورحم الله موتانا، وأسكنهم جناته الواسعة.

وبعد؛ فإن العلم لا يقبضه الله انتزاعًا ينتزعه من صدور الرجال؛ وإنما يقبضه بقبض أهله؛ فإذا ماتوا اتخذ الناس رؤوسا جهالًا؛ فسئلوا فأفتوا بغير علم؛ فضلوا وأضلوا؛ وبذلك تهلك الأمة، ويبرز الأدعياء؛ الذين يقولون ولا يعملون، ويحسدون ولا ينصفون، ويقعدون للعاملين كل مرصد؛ ليقطعوا عليهم السبيل، ويصرفوهم عن شأنهم، والعمل الرصين، ولعله بعد موتهم يسوغ للمتمثل أن يتمثل قول الشاعر:

«ذهب الذين يعاش في أكنافهم
وبقيت في خلف كجلد الأجرب»

إن هذا الخلف بعد الدكتور الطناحي، وشيخه محمود شاكر، وطبقتهماهم أدعياء التحقيق؛ الذين جعلوا أنفسهم أوصياء على الآخرين؛ يحمدونهم- وقليلًا ما يفعلون- إن شاؤوا، ويذمونهم، وهذا ديدنهم والغالب على طبعهم، بغير ما ذنب، إلا شهوة الذم.

ثم إن الحديث عن الدكتور الطناحي- رحمه الله- طويل؛ لا يستوعبه هذا المقام، ولا يسمح بأكثر من هذا، وأعد، إن أقدرني

الله، وتوفرت لي الأسباب، أن أكتب عنه ترجمة ضافية تفي الرجل بعض حق له في أعناقنا.

رحم الله أبا أروى، وأسكنه فسيح جناته، وغفر له، وشفع فيه، كتابه الذي يحفظه، وألهم أهله وطلابه، ومحبيه الصبر والسلوان.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

* * *

الطناحى عاشق التراث الذى رحل(*)

د. السيد عبد المقصود

هكذا يراد لبعض المصائب حين تقع... أن تأتى فاجعة فى ذاتها وفى توقيتها كذلك... وكأن المصاب فى بعض الرجال يقع متميزًا كما كانوا متميزين، ليحفر له فى النفس موقعًا غائرًا لا يزول. رحم الله فتى العربية وعاشق التراث وأحد أمنائه وفرسانه « محمود الطناحى » .. ولا أقول الأستاذ ولا الدكتور، فقد كان فى معدنه ووزنه ما هو فوق الأُستاذية.. وهكذا العظماء هم دائمًا شىء فوق ما تعارف الناس عليه من الدرجات والنياشين..

حين قرأت للطناحى - لأول مرة منذ مدة طويلة- أحد كتب التراث التى حققها (وما أكثرها) ظننت من أول سطر أنى أقرأ لشيخ من شيوخ العربية العجائز الذين شبوا فيها وشابوا.. فصارت بين أيديهم قوامًا هينا لينا يشكلونه ويجملونه ويصرفونه كيفما شاءوا فإذا بى أكتشف بعد ذلك- حين رأيته وكلمته- أنه رجل فتى أقرب إلى الشباب منه إلى الكهولة.. نضارته من نضارة أسلوبه وفتوته من فتوته ووقاره أيضًا من وقاره، فى دعابة حلوة وروح فكهة ودماثة بادية وتواضع جم. هذا مع حنكته بمكنون التراث ووعيه بروحه وامتلائه بعبقه وجلالته. لقد كان شبلا يعدو بأقصى قوة على درب شيخه وأستاذه الراحل محمود شاكر.. فكيف يكون المصاب إذن بعد كل ذلك فى فقد مثل هذا الرجل؟! وكيف يكون فى هذا الزمن خصوصًا الذى باتت فيه سماء العلم ملبدة بالبوم والغربان من أدعياء العلم ومرتزقة الثقافة!

(*) جريدة « الأهرام » - مصر - ٢٧ أبريل ١٩٩٩ .

فاللهم، كما بكيت محمود ولم يكن بينى وبينه إلا وشيجة العلم وشرف الانتماء.. أسألك أن تتقبل دعواتى له بالرحمة والمغفرة، وأن تحتسبها مع كل من أخلصوا له الوفاء والدعاء.

* * *

ما بعد جيل الرواد

أ. د. صلاح حسنين

فقدت العربية واحداً من روادها: إنه الأستاذ الدكتور محمود الطناحى . لقد كان الطناحى - رحمه الله - من المشتغلين بتحقيق أمهات كتب التراث وأخرج لنا منه كتباً مختلفة ، منها على سبيل المثال النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ومنال الطالب فى شرح طوال الغرائب لابن الأثير والشعر لأبى على الفارسى ، والجزء الأول من كتاب الغربيين للهروى، وأمالى ابن الشجرى ، هذا فضلاً عن فهرسة كتاب غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام وكتاب الأصول فى النحو لابن السراج .

وكان الدكتور محمود الطناحى قد مكث فى مكة المكرمة فترة ليست بالقصيرة يعمل فى كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى وكون مدرسة لتحقيق أمهات كتب التراث وتتلمذ على يديه كثير من طلاب العلم وهم الآن من أعلام العلماء والمحققين فى المملكة وفى العالم العربى والإسلامى على حد سواء .

لقد كانت العربية تعلق آمالاً كباراً على الدكتور الطناحى فى أن يحل محل جيل الرواد من أمثال عبد السلام هارون ومحمود شاكر ومحى الدين عبد الحميد ولكن القدر لم يمهله ليواصل خدمة هذه اللغة الشريفة ولا شك فى أن من فجع فى وفاته هو اللغة العربية نفسها .

لقد عرفت الدكتور الطناحى منذ فترة لا تتعدى السنوات الخمس وذلك فى الرياض عندما كان أستاذاً زائراً لكلية اللغة

(*) جريدة «المدينة المنورة» - السعودية - ٢٩ أبريل ١٩٩٩.

العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وعرفنى به أخى وصديقى الأستاذ الدكتور محمد الربيع وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وعندما قابلت الرجل فاذا بى أمام شخص رقيق ابتسامته العريضة لا تفارق وجهه ، حلو العبارة سلسها يحب الناس خفيف الظل .

وفى هذا اللقاء أثار أحد الحاضرين مسألة لغوية وطلب من الطناحى أن يبدى له رأيه فيها فإذا بالرجل يمطر صاحبنا بغيث هائل من أقوال العلماء وشواهد من القران الكريم والحديث النبوى الشريف والشعر وعندما فوجئت بهذا السيل العارم سألت صديقى عما سمعت فقال لى كلمة لا زلت أتذكرها : **(هذا هو الطناحى)** .

عندما توطدت أواصر الصداقة بينى وبينه وتقابلنا فى القاهرة أخذ الرجل يفتح لى قلبه ويكشف لى عن بعض مكنونات ذلك القلب فوجدت الرجل يلقى متاعب من أولئك الذين كان يظن أنهم من أقرب الأصدقاء إليه ولكنه فوجئ بما حكاه لى .... وكان صامتاً يكتم هذا بين أضلاعه .

وبعد وفاته حكى لى أحد الأصدقاء كيف كان هذا الرجل شجاعاً وكان يقف مواقف صارمة يدافع عن زميل له وقع فى مشكلة وأنه اتخذ هذا الموقف من شخصية كبيرة ... هنا أيقنت أن الطناحى كان يمد يده ليدعم أصدقاءه وليدفع عنهم أى أذى يوجه إليهم ولكنه لم يكن يستطيع أن يقف موقفاً ولو بسيطاً من أصدقائه الذين كان يكن لهم الشعور بالصداقة .

رحم الله الطناحى وأسكنه فسيح جناته .

* * *

الطناحى فى عرس الخالدين(*)

د. طلبة عبد الستار أبو هديمة

مصاب الضاد فى فقد الطناحى عذارى الشعر تندب فى نواح
بكارة لفظها غابت وضاعت وصرح العلم شيع فى الصباح
تجمد دمع عينى فى ذهول يردد حائرًا: «مات الطناحى»
فمن هذا الذى يثنى عليه؟ وذلك فى الغدو وفى الرواح
ومن يعطى بنات الفكر ليلى؟ ومن سيواسى قيسا فى الجراح؟
وبنت العامرية فى شرود ومن لفنون شاكر والأقاحى؟
ألا يا قيس فلتهجر بعيدًا بنات الضاد صرن من السفاح
ألا يا قيس فلتندب عظيمًا ولا تبكى العذارى فى صياح
صياح زائف لا خير فيه فهل تشفى نفوس بالجراح؟
لسان الذكر طيب كل ترب وقلب الطهر يزهو فى انشراح
ألا يا قبر فلتهدأ قليلا أتاك العلم من كل البطاح
ألا يا قبر كرمه افتخارًا بتقديم الزرابى والأضاحى
وبث الشافعية باقتدار ثمار الصبر تجنى بالكفاح
فلابن أثير والسبكى انتماء فلولا الفضل ما عرفا براح
بنى الهروى مجدًا فى السماء وذلك حين أظهره الطناحى
وحققت النهاية فى حديث به ظهر الغريب من الصحاح

* * *

(*) مجلة «الهلال» - مصر - يونيو ١٩٩٩ .

محمود الطناحي
بين بطاح مكة وأرض الكنانة(*)

د. عاصم حمدان

كانت ليلة من الليالي التي هجر فيها الكري عيني ، فأخذت انصت لصوت المقرئ المعروف « أبي العينين شعيشع » فالقرآن هو دواء القلوب ، وسلوة للحزين في مخدعه ، ومجلبة للطمأنينة عندما تفاجئنا الحياة بأحداثها المروعة أو تجاربها المرة ، وينفر القريب ، وينأى عنك من تظن أنهم الأقرب إليك ، والأحب إلى نفسك .

واستيقظت لأقرأ رثاء أستاذ الجميع الإنسان المهذب الدكتور محمود محمد الطناحي ، يرثيه صديقنا في سواري الحرم ، ومنعطفات المدعي والجودرية وجليستنا في دار رجل الفضل الشيخ عبد الله بصنوي - رحمه الله - بشامية البلد الحرام ، وكان صديقنا رغم كل شيء - الدكتور محمد يعقوب تركستاني الأقرب له بين زملاء سبقونا في كلية الشريعة ودراستها العليا بمكة في التسعينيات الهجرية ، ومنهم السيد زيد الكتبي ، والمرحوم الشريف الدكتور عبد الله الحسيني ، والدكتور عبد الرحمن العثيمين ، والدكتور عبد الله باقازي ، والدكتور سليمان العابد ، والدكتور عياد الثبيتي ، والدكتور محمد العمري ، والدكتور جميل مغربي وغيرهم .

(*) مجلة « الأربعاء » - السعودية - ١٤ أبريل ١٩٩٩ .

وإنني لأتذكر - اليوم - الذي لقيت فيه الدكتور الطناحي - للمرة الأولى - وكان ذلك في منتصف التسعينيات الهجرية، وكانت الحافلة تقلنا من العزيزية حيث مقر جامعة أم القرى إلى قلب مكة، حيث الكعبة المشرفة والحجر والملتزم والمقام، فإذا الزميل الدكتور «التركستاني» يلتفت مشيرًا إلى رجل ينضح محياه بالحب والألفة والوداد، ويسألني بصوت خافت هل تعرف الرجل؟ فألوذ بالصمت ويأتيني الصوت ثانية هذا الدكتور «الطناحي»، وكان أبو محمد يتحدث عن لقائه بالمحقق والعالم الكبير محمود شاكر - رحمه الله - وكان المرحوم الطناحي واحدًا من المقربين لعالم العربية وأديبها والذائد عن تراثها في «أباطيل وأسمار»، ومن أخذ نفسه بالدربة والمران الشديدين فأخرج «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام الجمحى فلم يخرج في العربية كتاب نقدي محقق تحقيقًا دقيقًا كالطبقات، ولم يخرج ديوان في العربية يشار إلى تحقيقه بالبنان، كما هو الشأن في صنيع الأستاذ الدكتور وليد عرفات بديوان حسان بن ثابت وكانت صداقة تربط بين محمود شاكر محقق الطبقات، وعرفات محقق ديوان شاعر رسول الله - ﷺ - ومادحه سيدنا حسان بن ثابت - رضي الله عنه وأرضاه - ولم أنس يومًا زاهيًا من أيام دراستي بجامعة «لانكستر» حيث كنت ألتقي أستاذنا عرفات لأمور تتصل بدراستي العليا، فإذا هو يخرج خطابًا من محمود شاكر يثني فيه ثناء بالغًا على المنهج الدقيق والموضوعي الذي التزمه في تحقيق ديوان «حسان» الذي قال يرثي صحابة رسول الله - ﷺ - في موقعة «مؤتة»:

«عين جودي بدمعك المنزور واذكري في الرخاء أهل القبور
واذكري مؤتة وما كان فيها يوم ولوا في وقعة التغوير

حب خير الأنام طرًا جميعًا سيد الناس حبه في الصدور
ذاكم أحمد الذي لا سواه ذاك حزني معًا له وسروري»

والقائل أيضًا في رثاء سيد الخلق وهاديهم وشفيعهم في يوم الميعاد ، ومن حبه تعمق النفوس المؤمنة والخيرة :

«فبوركت يا قبر الرسول ، وبوركت
بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيبًا
عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه الترب أيد وأعين
عليه ، وقد غارت بذلك أسعد»

ومن بحر سيدنا حسان - رضي الله عنه - غرف كل من مدحوا تلك الذات الشريفة والخلق العظيم ، فالبوصيري ، والبرعي ، وأحمد شوقي ، والبارودي ، ومادح العصر السيد محمد أمين كتبي ، هم من حسنات حسان وبركاته .

أعود للدكتور الطناحي الذي لم أتلق عليه العلم مباشرة ، ولكنني قرأت له ما كتبه عن غريب الحديث ، وتاريخ نشر التراث العربي ، وما كانت تحفل به مجلة الهلال من مقالات كان ينافح فيها عن التراث بمعرفة وموضوعية أبعدته عن كل ابتذال وإسفاف ، ولقد كانت الهلال أول من عرف الناس على صفحاتها الشاعرية المتدفقة لشيخه محمود شاكر وخصوصًا قصيدته الذائعة الصيت « القوس العذراء » ، وكانت قصيدته تجمع بين أصالة القديم وروح الجديد الذي يتطلع إلى آفاق المثل العليا من حنين وشوق وعفة وطهارة .

ويوم توفى أستاذه محمود شاكر - رحمه الله - قبل أقل من عامين، قرأت كلمته المؤثرة في الأهرام عن الرجل الذي آثره بالحب، وخصه بالرعاية، فهاتفته لأعزيه، فكان الصوت يأتيني عميقًا وموثرًا، ونادبًا حظَّ العلماء في عصر الفن الرخيص وأثنى على مبادرة رجل الفضل والعلم معالي السيد أحمد زكي يماني - رعاه الله - الذي خصص صفحة في الأهرام ينعي فيها الرجل الذي وقف - يومًا - في عاصمة الضباب في الاجتماع التأسيسي لدار الفرقان، ليتكلم بصراحته المعهودة ويصف مشاعره كيف أنه فارق بلدًا يحب أرضها وسماءها وهواءها وأهلها يعني « مصر » إلى بلد يكره فيه حتى رذاذ المطر الذي لا ينقطع عن « الهايد بارك » « والكابيتول هيل ».

وكانت آن « ماري شميل » المستشرقة الألمانية التي خدمت تراث الأمة وفكره، ورفعت صوتها مثل محمد أسد - رحمه الله - بنقد فكر سلمان رشدي في الوقت الذي كان الغرب يحتضنه، وحفنة من المحسوبين على أمة الإسلام والعروبة يدافعون عنه تحت ذريعة « حرية الفكر » ولكن التجديف ضد الأنبياء وما أتى به من شرائع تقف دونه حتى حرية الغرب التي تحمي دينها من غائلة تطرف العلمانية، فالتطرف قد يأتي من كل وجهة وتوجه.

كانت « شميل » ترمقه بنظراتها، والبعض قد أعجبه القول فرفع رأسه، والآخر لم يعجبه فأشاح عنه، ولكن حب أبي هانئ للشيخ « شاكر » كان قد انغرس في النفس الطيبة منذ أن كان ابن شيخ العلم طالبًا على مقاعد الدرس في أرض الكنانة، ولعل الأستاذ أحمد فراج يعرف عن هذا الأمر أكثر مما أعرف، ولقد قادني إلى هذا الاستطراد فقد الدكتور الطناحي الذي كتب مقالًا

بعد وفاة الشيخ الشعراوي - رحمه الله - آثار ضجة فوقف الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، يكتب في الهلال يأخذ الأمور بالهويني، ويهدئ من غضبة مريدي الشيخ، ويبرئ ساحة « الطناحي » من تهمة حاول البعض إلصاقها به.

رحمك الله أيها الرجل الذي جمع بين الفكر والأدب وعرفته بطاح مكة ووديانها وقاعات الدرس فيها، كما عرفته أرض الكنانة بقلعتها الحصينة « الأزهر » ومعاهد البحث والتحقيق فيها، وعرف طلاب العلم فيه، لسانًا عفًا، وخلقًا كريمًا، وذهنًا متوقدًا.

* * *

محمود الطناحي محقق التراث(*)

أ. عاطف مظهر

غيب الموت أحد أعلام اللغة العربية وتحقيق التراث في الحقبة المعاصرة، وهو الدكتور محمود الطناحي عن عمر يناهز الرابعة والستين عامًا.

كان الطناحي محققًا بارعًا لكتب التراث، وخبيرًا في المخطوطات، وعالمًا لغويًا متمكنًا، ملك ناصية العربية أدبًا ونقدًا، وكانت لديه ملكة حافظة للشعر ونوادر الأدب تتجاوب معه في كل مقام، وكأنه راوية من رواة العرب القدامى.

وكان الطناحي ينتمي إلى مدرسة الإحياء العربية الإسلامية التي تتخذ طريقة السلف في التأليف والتحقيق، وكان يؤمن بأن العلم ليس في بطون الكتب وحدها، وإنما ينبغي أيضًا أن يتلقى شفاهة من أفواه الرجال.

ولهذا اتصل الطناحي منذ الصبا بكبار علماء جيله، وكان يحضر مجالس أعلام المحققين أمثال: عبد السلام هارون، والسيد أحمد صقر، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ومحمود شاكر.

وكانت تربطه بالأخير علاقة خاصة استمرت أكثر من ثلاثين عامًا، جعلته من أبرز تلاميذه ومريديه، وأكثرهم قدرة على تطبيق منهجه الصعب في التحقيق العلمي لكتب التراث، وهو يتطلب إلمامًا علميًا واسعًا بعلوم العربية من لغة وأدب وشعر وتفسير

(*) جريدة «الحياة» - لندن - ١٢ أبريل ١٩٩٩ .

وفقه وحديث وتاريخ، وغيرها من العلوم التي أفرزتها الحضارة الإسلامية.

قدم الطناحي إلى المكتبة العربية جواهر من مكنون تراثها، بعد أن حقق عددًا من أمهات كتب التراث مثل: «طبقات الشافعية» لابن السبكي (المتوفي ٧٧١هـ)، و«غريب القرآن والحديث» لأبي عبيد الهروي (المتوفي ٤٠١هـ)، و«كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب» لأبي علي الفارسي (المتوفي ٣٧٧هـ)، و«أمالي ابن الشجري» (المتوفي ٥٤٢هـ)، و«منال الطالب في شرح طوال الغرائب» لمجد الدين بن الأثير، (المتوفي ٦٠٦هـ)، فضلًا عن تحقيقه جزءين من موسوعة «تاج العروس شرح القاموس» للمرتضى الزبيدى، (المتوفي ١٢٠٥هـ)، وهما الجزءان السادس عشر والثامن والعشرون، وغيرها من كتب التراث الأخرى التي تزيد على الثلاثين كتابًا.

وتشير هذه الأعمال إلى أن الطناحي كان محققًا متمكنًا من أدواته، ويعرف مظان الكتب وطرق البحث فيها، وكان ماهرًا في الرجوع إلى الشواهد واستخراجها. فالتحقيق العلمي عند الطناحي ليس معناه إخراج الكتاب فقط، ولكن إقامة النص، كما أراده مؤلفه وفهم جوانبه والتعليق عليه تعليقًا علميًا يفيد النص من جانب والقارئ من جانب آخر.

وبوفاة الطناحي فقدت مدرسة المحققين الأُصلاء آخر تلاميذها النابهين الذين يلمون بالتراث ويفهمونه فهمًا جليًا ويدافعون عنه دفاعًا قويًا عن فهم وبصيرة، وليس عن هوى وتعصب.

ومن جانب آخر اتصل الطناحي بالمخطوطات العربية، منذ أن كان طالبًا في السنة الأولى في كلية دار العلوم، ناسخًا ومفهرسًا ومحققًا، فنسخ كثيرًا من المخطوطات المشرقية والمغربية، وأعان بعض المستشرقين ومنهم الألماني هانس روبرت رويمر الذي نشر كتاب «الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر»، وهو الجزء التاسع من كتاب «كنز الدرر وجامع الغرر»، لابن أيبك الدواداري، والمستشرق الإنكليزي مارسدن جونز الذي نشر «مغازي الواقدي».

كما شارك الطناحي في نشاط معهد المخطوطات العربية في القاهرة، على امتداد ثلاثة عشر عامًا، كثف المعهد خلالها بعثاته لتصوير المخطوطات العربية في مختلف بلدان العالم؛ فزار كلًا من تركيا والمغرب والسعودية واليمن، واكتشف في هذه البلدان بعض المخطوطات المجهولة التي لم تدرج في فهارس المكتبات، ومن ذلك: تاريخ عثمان بن سعيد الدارمي عن يحيى بن معين في تجريح الرواة وتعديلهم، وقد اكتشفها في مكتبة الشيخ سليمان بن صالح بن حمد بن بسام الخاصة في عنيزة في المملكة العربية السعودية. ومخطوطة «الصفوة الصفية في شرح الدرة الألفية» لأبي إسحق النيلي، وهي من مقتنيات مكتبة عارف حكمة في المدينة المنورة. والنسخة الثانية من كتاب «الوجوه والنظائر في القرآن الكريم» لمقاتل بن سليمان، المتوفي ١٥٠هـ، والنسخة الثانية من كتاب «الفَرْق في اللغة»، لثابت بن أبي ثابت من علماء اللغة في القرن الثالث الهجري، وكانت هذه النسخة أوراقًا متناثرة محفوظة في خزانة القرويين في مدينة «فاس» المغربية. والنسخة الثانية من كتاب «المحْكَم في نقط المصاحف» لأبي عمرو الداني المتوفي ٤٤٤هـ، وهي من مقتنيات المكتبة المحمودية في المدينة

المنورة، والنسخة الثانية من كتاب «أهل المئة فصاعدًا» للحافظ الذهبي في المكتبة المحمودية أيضًا.

ولد الطناحي في ٢٩ آذار (مارس) سنة ١٩٣٥ في محافظة المنوفية في شمال مصر، ثم انتقل إلى القاهرة في الثامنة من عمره، وأتم حفظ القرآن في الثالثة عشرة. التحق بمعهد القاهرة الديني التابع للأزهر، وحصل على الشهادة الثانوية العامة ١٩٥٨، ثم التحق بكلية دار العلوم، وحصل على شهادة الليسانس في علوم اللغة والشريعة عام ١٩٦٢م.

وحصل في الكلية نفسها على شهادة الماجستير (قسم النحو والصرف والعروض) عام ١٩٧٢م، وكان موضوع أطروحته (ابن معطي وأراؤه النحوية مع تحقيق كتابه «الفصول الخمسون»).

ومن كلية دار العلوم أيضًا حصل على شهادة الدكتوراه عام ١٩٧٨ بمرتبة الشرف الأولى، وكان موضوعها «ابن الشجري وآراؤه النحوية مع تحقيق الجزء الأول من كتاب «الأمالي النحوية».

عمل عقب تخرجه معيدًا في معهد الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية في القاهرة، ثم عين خبيرًا في معهد المخطوطات العربية،ثم انتدب أُستاذًا مشاركًا في قسم الدراسات العليا في كلية الشريعة في جامعة الملك عبد العزيز، وهي نفسها كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى الآن حتى عام ١٩٨٩م.

وبعد عودته إلى مصر عين أستاذًا في كلية الدراسات العربية والإسلامية في جامعة القاهرة- فرع الفيوم- ثم أُستاذًا ورئيس

قسم اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب في جامعة حلوان حيث عرف بمنهجيته العلمية ومراسه الدقيق.

وفضلًا عن ذلك كان الطناحي عضوًا في الهيئة الاستشارية المشتركة لخدمة التراث العربي في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وعضوًا في مركز تحقيق التراث في دار الكتب المصرية وخبيرًا في مجمع اللغة العربية في القاهرة.

وكان قد شارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية التي عقدت لمناقشة قضايا التراث والمخطوطات العربية، ومن بينها الندوة التي نظمتها أخيرًا مؤسسة « الفرقان » في كل من اسطنبول ولندن حول فهرسة المخطوطات.

* * *

محمود محمد الطناحي
في مهجة القلب وفي الخالدين(*)

د . عبد الرحمن حسن العارف

« وأما الرجال - وهم علماء المخطوطات - فهم يتناقصون يومًا إثر يوم ، بالموت الذي لا يرد ، وبالصوارف التي لا تدفع ، وما بقي إلا قلة خافتة الصوت ، ضعيفة الأثر »(١).

كانت هذه الكلمات التي فرغت التوة من قراءتها ، أول ما تذكرته حينما نمى إلى علمي نبأ الرحيل المفاجئ لأستاذنا الدكتور محمود الطناحي (يرحمه الله).

وطفقت أتحادث مع الذاكرة ، والنفس عن ماذا عساني أقوله بحق شيخي وأستاذي ، أأنعاه للناس ؟ أم أرثيه للذات ؟ أم أعزي ذويه فيه ؟

واحترت - كما لم أحتر من قبل - فماذا أنا قائل والمصاب جلل ؟ وماذا أسطر والخسارة جسيمة ؟ وبماذا أتحدث والرزية عظيمة ؟ فمعذرة ثم معذرة أبا أروى : إذ أكتب عنك بهذه الروح الجنائزية ؛ فلقد كان خبر رحيلك وفقدك عسيرًا على العقل ، شاقًا على النفس ؛ بل إنه كان أكبر من أن يصدق أو أن يحتمل .

ومعذرة ثالثة يا أبا محمد ؛ لأن ما أسطره عنك بهذه الوجازة إنما هو منتزع من كلامك ، مدلول عليه بفكرك ؛ فأنا إنما

(*) جريدة « المدينة المنورة » - السعودية - ٢٩ أبريل ١٩٩٩ .

(١) من حديث له فى نشرة (أخبار التراث العربي) ٦٩، ٧٠ المجلد ٦ ص١٤ ١٩٩٦م.

أكتب عنك بك، وأتقدم إليك بسابق فضلك، وموصول علمك[٢].

لقد كنت يا أبا أروى عصاميًا بكل ما تضيفه هذه الكلمة من ظلال دلالية، وكان التراث عشقك الأزلي، وبداية تكوينك العلمي، ونقطة انطلاقك نحو عالم البحث والتدريس الجامعي.

يشهد لك معهد المخطوطات العربية بالقاهرة بأنك كنت ابنًا بارًا به، اطلعت من خلاله على المخطوط العربي، واشتغلت زمنًا بنسخه، ثم في قراءته، وتحرير وصنع فهارسه، وتصحيح تجارب طبعه، وتعرفت على مدى خمسة عشر عامًا على علمائه وأساطينه من مشرق ومغرب؛ فأكسبك ذلك خبرة وممارسة، وحصيلة علمية واجتماعية؛ قل أن يجتمع مثلها لجيل اليوم من الباحثين وطلاب العلم!

عرفناك سنة ١٩٨٣م؛ حينما كنت تدرس لنا مادة (تحقيق النصوص) في قسم الدراسات العليا العربية؛ وكنت أحد أبرز أساتذتنا علمًا وخلقًا، وشبابًا وحيوية، وكم استمتعنا بمناقشاتك للرسائل العلمية، وما كنت تضفيه عليها من دعابة عابرة، وإحاطة بالعلم واسعة، وقد أفدنا من ذلك كله أيما فائدة.

وما زلت أذكر ذلك اليوم - ويالها من أيام خوال - الذي تقدمت فيه لرئيس قسم الدراسات العليا؛ طالبًا إسناد إشرافي إلى الأستاذ الدكتور تمام حسن؛ شيخ اللغويين المعاصرين (يحفظه الله) وذلك بمشورة وتوجيه من أستاذي وصاحب الفضل الأكبر علي بعد الله الدكتور عبد الله بن سليمان الجربوع (أجزل الله له

(٢) منقول بتصرف عن: مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص ١٠٤ وخطابه فيه لشيخ العربية محمود محمد شاكر - برّد الله مضجعه.

المثوبة، وثقل موازينه يوم الدين) إلا أن مجلس القسم لم يتمكن من تحقيق هذه الرغبة، بحجة أن نصاب الدكتور تمام من الإشراف كان كاملًا، وأسند إشرافي إلى الأستاذ الدكتور محمد سالم الجرح (يرحمه الله) وبعد أن انتهى المجلس من أعماله قابلتني بوجهك البشوش، مهنئًا إياي بهذا القرار. وقائلًا لي - بعد أن لاحظت بألمعيتك ما في النفس من شئ: «لقد أراد الله لك وبك خيرًا؛ إذ أسند إشرافك إلى عالم ضليع متمكن؛ لا يعرف قدره كثير من الناس، وسوف تجد في الجرح علمًا غزيرًا، وخيرًا وفيرًا».

وأثبتت الأيام صدق ما قلته، وصواب ما توقعته؛ فقد وجدت فيه ما أعجز عن ذكره؛ من خلق جم، وعلم واسع، وإخلاص منقطع النظير.

وشاءت الأقدار (بمشيئة الله) أن نفقد هذا العالم، ولما ننهل من معين تخصصه اللغوي الدقيق!

وانتقل الإشراف بعدئذ إلى الدكتور تمام، وكنت أول المهنئين لي، وقلت لي يومها عذبًا من الكلام، وطريفًا من النوادر عن الدكتور تمام؛ فزاد ذلك في سعادتي، وكنت كلما التقيت بشيخي أذكر له ما تم بيني وبينك من حديث ودعابة؛ فيثني عليك، ويذكرك بخير، ويقول عنك - لا فض فوه - الطناحي وعاء ملئ علمًا، وظرف حشي ظرفًا (غفر الله لمن مضى من مشايخنا، ومتع من بقي بالصحة والعافية وحسن الختام).

ثم توطدت صلتنا بك خلال إقامتك في مكة (زادها الله تشريفًا ومهابة) وتطول بنا الذكريات عنك يا أبا محمد، وكلها

تثبت نقاء سريرتك ، وتفانيك في عمل الخير ما استطعت إلى ذلك سبيلًا ؛ في زمن كثر فيه الشر وأعوانه ، وعمت فيه الأنانية وحب الذات ، وقل فيه أهل الصلاح والإِصلاح ، وساد فيه الجهلة والأدعياء ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !! ولما عدت إلى مصر باعدت بيننا الأيام والظروف ، وكنا كلما سألنا عنك أهل الذكر أتانا الخبر بأنك إما أستاذ زائر في إحدى الجامعات العربية ، أو مشارك في أحد المؤتمرات العلمية ، أو غير ذلك مما هو للعلم موصول برابطة ونسب ولكنك كنت دومًا وأبدًا .... (يعلم الله) في مهجة القلب ، وخزانة الذاكرة .

رحم الله أبا أروى ؛ فقد كان مبدعًا في فنه ؛ إنسانًا في تعامله ؛ طيبًا ودودًا في مجلسه ، يؤنس جلساءَه ، ويطرب للنادرة الحلوة ، ويستزيد منها ويرويها[٣] ؛ تلقاه فيهش للقائك ، ويحدثك فتأنس لحديثه .

كما كان (عفا الله عنه) حفيًا بأهل العلم ، عالمًا بأحوالهم ، جامعًا لأخبارهم ، عاقدًا لصداقاتهم ، حافظًا لودهم ، مدافعًا عنهم ، ووفيًا لهم ، ما وسعه الود ، والدفاع ، والوفاء .

وقد تجلى هذا في كتابه الشيق الممتع (مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي)[٤] الذي تجد فيه وفاء نادرًا قل نظيره في هذا الزمن الردىء.

---

(٣) بتصرف عن المرجع السابق ص ١١١،١١٢.

(٤) كنت قد كتبتُ رسالة إلى الدكتور الطناحي (غفر الله له) بعد فراغي من قراءة هذا الكتاب سنة ١٤٠٦هـ، أبين فيها إعجابى وانتفاعي به وبعض الملاحظات الهينات وأودعتها بين دفتيه مترددا في بعثها إليه ثم صرفتنا الصوارف وبقيت هذه الرسالة حبيسة أضابير هذا الكتاب حتى شاء الله أن أطلع عليها في أثناء معاودتي قراءته فوجدت =

وإن شئت أكثر فانظر ما كتبه عن مشيخته : محمد رشاد عبد المطلب ، وعامر السيد عثمان ، وعبد السلام هارون ، ومحمود شاكر (رحم الله الجميع) ثم انظر ما خطه يراعه عما لقيه خلال إقامته في مكة المكرمة من حفاوة ، وترحاب ، وحسن معاملة[٥] .

أما آثاره العلمية فسوف تنبئك عن مدى عشقه لهذا التراث الخالد ؛ حيث أسهم في تحقيق مجموعة من المخطوطات ذوات القيمة العلمية المتميزة ، كما أسهم في تأليف ما يتصل به تاريخًا ، وتقويمًا ، وفهرسة .

والذى أود الوقوف عنده في هذا المقام هو فهرسته لألفاظ كتاب (فعلت وأفعلت) للزجاج ، بتحقيق الدكتور جليل العطية ، وفيما أعلم ما زال هذا الفهرس مخطوطًا لم ير النور بعد[٦] ، وعسى أن تمتد إليه يد بارة حانية ؛ فتذيعه بين الناس !

ومن إسهاماته العلمية تقديمه لكتاب لم ينل - مع الأسف الشديد - ما يستحقه من عناية واهتمام ؛ وهو (من إعجاز القرآن في أعجمي القرآن) للأستاذ رءوف أبو سعدة[٧] . ولم يكن هذا التقديم على العرف السائد في تقديم الكتب وتصديرها للقراء ؛ بل كان واقعيًا مع مؤلفه ، وقارئه ونفسه - أيضًا - فعمد إلى إبداء ملاحظاته عليه ، فكرًا ، ومنهجًا ، وأسلوبًا ؛ وإيمانًا منه (يرحمه

= فيها ما أدعو الله أن يكون في موازين حسناته يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، ولعلى أفرغ قريبا إن شاء الله من إعدادها للنشر وفاءً وتقديرًا.

(٥) ينظر مقدمة الطبعة الثانية من تحقيقات لكتاب (منال الطالب) ص ٨.

(٦) عندى منه نسخة بخط يده وكان قد طلب مني هذا الكتاب لعمل هذا الفهرس فأعرته إياه وأعاده إلى مع الفهرس مشكورا مأجورا.

(٧) صدر هذا الكتاب فى جزءين عامي ١٩٩٣م - ١٩٩٤م. عن دار الهلال بالقاهرة.

الله) بـ « أن من تحية أي بحث والاحتفال به مناقشته ومفاتشته »[٨] .

وقد حدثني الدكتور عبده الراجحي (سلمه الله) ذات يوم بأن هذا التقديم كان من ضمن الأعمال العلمية المتميزة التي استحق عليها الدكتور محمود الطناحي الترقية إلى درجة الأستاذية بكفاءة واقتدار .

وأما أسلوبه في التأليف أو في الكتابة بصفة عامة فيستوقفك فيه جماله ، وعذوبته ، ووضاءته ، وعلوه ؛ كمشافهته لك وحديثه معك سواء بسواء .

وأشهد أنه قد أوتي فيه قدمًا راسخة ، قوة في البيان ، وجزالة في العبارة ، وإيحاءً في الإشارة ، ودقة في اختيار اللفظة ، والجمع بين الجدية والسخرية في آن معًا ؛ ولذلك اتسمت كتاباته بميزة الأسلوب السهل الممتنع ، أو قل : الأسلوب المعسول غير المغسول ؛ كما يقول : « الزمخشري »[٩] وهذا - لعمري - أصدق وصف يمكن أن نخلعه على أسلوب أستاذنا الدكتور الطناحي .

ولا غرو : فقد أتْهَمَ وأنجد في قراءة كتب الأولين ، وتشبع بعبارات مؤلفيها ، وخبر طرائقهم ومداخلهم في فن القول وعلم البيان ؛ ولذلك لا يأخذك العجب حينما تجده يتوقف كثيرًا عند أسلوب عالم أو باحث ، مادحًا له أو منتقدًا عليه ؛ فالأسلوب ملك عليه فكره وقلمه ، وأخذ منه جده وهزله .

إن القارئ لما كتبه لا يشعر - كما هو الحال مع كثير ممن أوقف نفسه على التحقيق والنشر - بالملل أو السآمة ؛ بل إنه

---

(٨) ص ١٥ من الكتاب المذكور.

(٩) أساس البلاغة ٢\١١٧ (عسل) ١٦٥ (غسل).

ليحس بمتعة قرائية تجعله يتوق للمواصلة والاستمرارية حتى الفراغ مما كتب؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

هكذا كان حال شيخنا الدكتور الطناحي؛ بقية باقية من أولئك الرجال القلائل؛ الذين خدموا تراث العربية مخطوطًا ومطبوعًا، واستحق بجدارة أن ينضم إلى الكوكبة النادرة من العلماء والأعلام، والخالدين في ذاكرة التاريخ.

وبعد؛ فلئن غيب الموت عنا هذا الرمز العلمي، ورحل به مع الراحلين؛ فإن ذكراه وذكرياته ستظل محفورة على مر الأيام والسنين، وسنظل نحتفي بأبي أروى في كل مناسبة سانحة؛ داعين له، ومترحمين عليه:

«وما العلماء إن قبضوا بموتى　　فذكرهم على الأيام باقِ»

وليس لنا من عزاء سوى أنه لبى نداء الحق، وتاق لمقابلة ربه، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يعفو عن أستاذنا، ويحسن لقاءه ويجزيه خير ما يجزى عالم عن علمه، ومجتهد عن اجتهاده. كما نسأله أن يهون على أسرته وحدتهم، ويؤنس وحشتهم بعد رحيله، ويكتب لهم الأجر والصبر، وأن يخلف على كل عائبة له منه بخير، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ونرفع أكف الضراعة إليه بأن يبارك في أعمار الأحياء من أساتذتنا، ويمن عليهم بواسع فضله، وجزيل كرمه، ويجعل أيامهم زيادة في كل خير، وسعادة في الدارين.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

السيرة الفذة والمثال النافع(*)

أ. عبد الرحمن شاكر

حينما أصدر الأخ الدكتور محمود الطناحي- رحمه الله- كتابه عن تاريخ الطباعة في مصر، وضمنه شيئًا عن سيرته الذاتية، كتبت في مجلة الهلال معلقًا على الكتاب، وقلت فيه: إننا نفهم مما كتبه عن نفسه، أنه يشبه «جنرال من تحت السلاح»!

ذلك أنه روى أنه كان في مطلع شبابه يشتغل- وهو ما يزال طالبًا.. بنسخ الكتب بالأجر لبعض من يطلبون علوم العربية، ولك أن تتصور مقدار ما يحصله طالب شاب، متوقد الذهن، من عمل كهذا!

وبعد أن تخرج محمود الطناحي من كلية دار العلوم، ساقته الظروف إلى العمل في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية، وزار بلادًا كثيرة منها اليمن وتركيا والمغرب والسعودية منقبًا فيها عن المخطوطات العربية، ويصور منها ما يحمله إلى المعهد الذي يعمل فيه، أو على الأقل يرصدها ويسجل عناوينها وأوصافها وتاريخ نسخها.. الخ، فأضاف بذلك إلى ذاته علمًا كثيرًا بالكتب العربية، قد يشاركه فيه بعض من عرفوا بعلم المكتبات أو «البيبلوغرافيا» كما يطلقون أحيانًا عليه، ولكن ميزة الطناحي أنه كان مشتغلًا بما تحتويه هذه الكتب من علوم، فهو عالم محقق مجتهد، وله تآليفه الخاصة.

(*) جريدة «المدينة المنورة» - السعودية - ١٢ أبريل ١٩٩٩ .

وبعد أن ترك محمود الطناحي معهد المخطوطات، وكان قد حصل على درجة الدكتوراه اشتغل بالتدريس في عدد من الجامعات العربية، منها جامعة أم القرى في مكة المكرمة، وحينما عاد إلى مصر عمل في جامعة القاهرة فرع الفيوم، ومنها انتقل إلى جامعة حلوان، وكان رئيسًا لقسم اللغة العربية بكلية الآداب بتلك الجامعة، ولكنه آثر في أواخر عمره- رحمه الله- أن يتحرر من القيود الإدارية لهذا العمل، واكتفى بكونه أستاذًا في الكلية، ليتفرغ لمسؤولياته العلمية الكثيرة، ومنها عمله كخبير في مجمع اللغة العربية، وتوفى رحمه الله، والعيون من حوله ترقبه وتتطلع إلى اليوم الذي يدخل فيه المجمع عضوًا فيه، ولكن إرادة الله سبقت ما كان ينتظر منه وله !

ولقد كان لي شرف تعريفه بالقائمين على تحرير مجلة الهلال المصرية ليكتب بها، وقد كتب فيها نيفًا وأربعين مقالًا ، ومن أول ما كتب استحوذ على الإعجاب الشديد من جانب المشرفين على التحرير، وقراء المجلة على حد سواء، لما تفيض به مقالاته من علم غزير متدفق، فضلًا عن أسلوبه الرصين، الذي يحكي تمكنه من العربية وامتلاكه زمامها، ولقد كنت أرجو له أن يكون واحدًا من القلائل العاملين عن طريق الكتابة على إعادة رونق العربية الأصيلة إلى الكتابات الأدبية والصحفية، بعد أن اكتظت سوقها بكثير من التهافت والغثاثة والضحالة!

ومن عجب أن هذا الكاتب الفصيح الرصين، لم تكن تفوته ما تنطوى عليه العامية المصرية، وبعض اللهجات العامية التي ألم بها من ترحله بين مختلف الأقطار العربية من تعبيرات بديعة، ولقد كان أحد شواغله العلمية أن يكمل كتاب العلامة أحمد تيمور عن

« الأمثال العامية » بكثير من الأمثال فاتت تيمور وسمعها الطناحي الذي كان يعتد كثيرًا بنشأته في أحد الأحياء الشعبية بمدينة القاهرة.

لقد روى بعض من كتبوا عن الطناحي بعد رحيله أنه كان بهجة المجالس بخفة ظله وبديهته الحاضرة، ومخزونه الوفير من النوادر، منها مواقف كان هو شريكا في صنعها! كان محمود يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، ويعرف قراءاته على وجوهها جميعًا، ويستمع إلى المقرئين ويعرف مزاياهم وعيوبهم ويعرف الكثير من تاريخهم وكان إلى ذلك مولعًا بالغناء، يسمعه ويطربه بديعه، بل يستطيع أن يردد ما يحفظه منه وهو شيء كثير.

رحم الله أخي وصديقي العلامة المحقق الكبير والأديب البارع محمود الطناحي وقيض لما تبقى من آثاره العلمية من يخرجها إلى الناس، وعسى أن تكون سيرته الفذة، مثالا ينتفع به تلامذته وهم كثير، أما أنت يا محمود:

« إذا ترحلت عن قوم وقد حسبوا   ألا تفارقهم فالراحلون هم »

* * *

رسائل الطناحي وصلت(*)

د. عبد الرزاق فراج الصاعدي

لم ألتق الدكتور محمود محمد الطناحي في حياته المديدة، ولم تجمع بيننا الأيام؛ مع أنه عاش بين ظهرانينا حينًا من الدهر؛ لقد شحت به على المناسبات، وضنت به الظروف؛ فلم أره قط، ولم أسمع صوته.

ومع ذلك كله كنت أحس دائمًا بأنه قريب مني؛ وهو كذلك على وجه الحق؛ لأن الصلة بيننا قائمة، والرابطة لا تنحل عراها.

لقد كان القاسم المشترك الأعظم بيننا التراث العربي؛ كان حب اللغة العربية وعلومها هو الرسالة التي تصلني باطراد من محمود الطناحي، كنت أقرأ رسائله الموجهة في كل كتاب من كتبه، وقرأتها على وجه الخصوص في مقدمة كتابه النفيس «الموجز في مراجع التراجم والبلدان» وقرأت فيها بين السطور رسائل لمصطفى صادق الرافعي، ومحمود شاكر، والسيد أحمد صقر، وعبد السلام هارون، وأحمد راتب النفاخ، وغيرهم ممن قاموا على حراسة العربية، وجاهدوا في سبيلها، وكشفوا عن جوانب فذة من تراثها المخبوء.

لقد صنف الدكتور محمود الطناحي- رحمه الله- في اللغة والنحو والتراجم ومناهج تحقيق التراث، وجاهد بقلمه في

(*) جريدة «البلاد» - السعودية - ١٥ أبريل ١٩٩٩ .

سبيل العربية الفصحى، وأعلى من شأنها؛ فرفعت هي من قدره، وخلدت اسمه.

ومن الصعب- اليوم- أن يقال: مات محمود الطناحي! كيف يموت، وعلمه في المكتبات، واسمه على الألسن؟

.... كتبت هذه الكلمة؛ وليس تحت يدي ما يكفي من المعلومات الشخصية الدقيقة عن الدكتور محمود الطناحي- رحمه الله- فعمدت إلى بعض كتبه؛ أقلب الصفحات في عجل من الأمر. وقنعت في النهاية بهذه الكلمة الوجيزة، وأنا أرجو أن أجمع من أخبار هذا العالم اللغوي في القريب العاجل ما يكفي لكتابة كلمة ضافية عنه تليق به وبعلمه وبالأيام التي قضاها بيننا.

وما حاجتي إلى كل ذلك لولا النقص المخيف في المعلومات؛ الذي يلف حياتنا العلمية؟

نحن قوم لا نعبأ بكتابة السير الذاتية للأحياء من علمائنا؛ ننتظرهم حتى يموتوا؛ فنضرب في تأريخهم ذات اليمين وذات الشمال. وإن كنا - في الحق- لا نعدم عذرًا لأنفسنا حين يكون التقصير؛ ففي علمائنا إحجام، وزهد، وتواضع، ونكران للذات، وليس لدينا من الوقت والجهد والإلحاح ما يكفي، فشاركناهم في التقصير.

والله المستعان.

* * *

رَحِيلُ رَائِدٍ مِنْ رُوَّادِ تَحْقِيقِ التُّرَاثِ(*)

أ. د. عبد الستار حسين زموط

رحل عن دنيانا عالِم جليل، ورائد من رواد تحقيق التراث العربى والإسلامى ، ألا وهو الدكتور محمود الطناحى (رحمه الله).

ولا شكَ أنّ الموت أمر محتوم كتبه الله (عزَ وجلَ) على جميع خلقه ، وتفرّد سبحانه بالبقاء والخلود ؛ فليس ذلك لأحد سواه ؛ أخذًا من قوله تعالى : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون** ﴾ . ومع ظهور هذه الحقيقة فإن العلماء الصالحين تأسى لموتهم القلوب المؤمنة ، وتحزن لفقدهم النفوس الحريصة على بقاء الخير فى دنيا النّاس ؛ فبفقدهم ينقطع مورد من موارد الخير ، ويغلق أمام الناس باب من أبواب العلم والمعرفة ؛ لأنّ العلم لا يقبض انتزاعًا ؛ ولكن يقبض بموت العلماء ، وفقيدنا الدكتور الطناحي واحد من هؤلاء العلماء؛ الذين عملوا على إحياء التراث العربي والإسلامي ؛ بتحقيق مخطوطاته ودراستها ، والدفاع عن لغة القرآن الكريم ، وعلومه .

هذا ، وقد عرفت الدكتور محمود الطناحي من أوائل السبعينيات ، حين كان يعمل فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية فى القاهرة ؛ فعرفت فيه دماثة الخلق ، وتواضع العلماء ، وحب الخير للناس بعامة ، ولأهل العلم وطلابه بخاصة ؛ حيث كان يفد على المعهد حين ذاك كثير من الدارسين من جميع الدول

(*) جريدة « البلاد » - السعودية - ١٥ أبريل ١٩٩٩ .

العربية والإِسلامية ؛ فيجدون عنده التيسير ؛ الذي يحقق لهم الاطلاع على المخطوطات ، والحصول على ما يريدون منها ؛ عن طريق التصوير أو النسخ .

وكان (رحمه الله) يقوم متطوعًا بتزويد رواد المعهد ، من هؤلاء الدارسين بمعلومات عن تحقيق المخطوطات ودراستها ؛ باذلا لهم كل نصح وتوجيه ؛ إنطلاقًا من تجاربه وخبراته الطويلة فى التحقيق ؛ حيث قدم خدمات جليلة للتراث العربي والإِسلامي ؛ متمثلة فى تحقيق كثير من كتب التراث ودراستها ونشرها ؛ وهو بهذا كله كان من خير الناس ؛ انطلاقًا من الأثر القائل : (خير الناس أنفعهم للناس) ، ولم يقف نفعه عند هذا الحد ؛ فقد حصل بعد ذلك على (الدكتوراه) وعمل في جامعة أم القرى سنوات طويلة ، ثم عاد إلى مصر أستاذًا بكلية الدراسات العربية والإسلامية ، وفي أثناء ذلك كله قدم دراسات في مجال اللغة نفعت ومازالت تنفع طلاب العربية ودارسيها .

وكان (رحمه الله) أزهريًا فخورًا بأزهريته ؛ حيث درس في الأزهر ؛ حتى حصل على الثانوية الأزهرية حسب النظام القديم ، ثم التحق بكلية دار العلوم ؛ فكان لدراسته في الأزهر أثر واضح في تكوينه العلمي ؛ شأنه في ذلك شأن الأزهريين ؛ الذين التحقوا بكلية دار العلوم ، بعد حصولهم على الثانوية الأزهرية ؛ فصاروا بدراستهم في الأزهر أعلامًا في كلية دار العلوم ، وعلماء معروفين على مستوى العالم العربي والإِسلامي .

إن فضيلة الدكتور محمود الطناحي إن فارق الدنيا بجسده ، فهو يعيش بين الناس بمآثره ، وبما قدم من خدمات للتراث العربي والإِسلامي ، وهذا كله يعد عمرًا ثانيًا له ؛ فكثير من

الناس يموتون ومع ذلك هم فى عداد الأحياء بمآثرهم ، وهناك من يعيشون بين الناس وهم في عداد الموتى ؛ ولله در القائل :

« كم مات قوم وما ماتت مآثرهم
وعاش قوم وهم في الناس أموات »

فرحم الله الدكتور محمود الطناحي رحمة واسعة .

وسلام عليه في الخالدين ..

* * *

محمود الطناحي.. العالم الذي رحل..(*)

ا.د. عبد العظيم محمود الديب

هناك من المعاني ما نظل نقرؤه، ونردده، ونتصوره ونتخيله، ونظن أننا بذلك قد فهمناه. إلى أن تأتي « اللحظة » اللحظة التي نعيش فيها هذا المعنى، ونعانيه، ونمارسه، ونصنعه، وعند هذه اللحظة فقط نعرف أننا الآن فقط أدركنا هذا المعنى، وفهمناه، وعشناه.

لقد غبرنا زمانا، بل قضينا عمرنا، ونحن نردد بيتي المتنبي:

« طوى الجزيرة - حتى جاءني - خبر
فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي »

على حين غفلة دق الهاتف، فإذا بمحدثي يسألني: أسمعت الخبر؟! ثم أردف: الدكتور الطناحي!!! ولم أسمع بعدها شيئًا مما قال ولا أدري بماذا أجبته!!! ووضعت سماعة الهاتف، وانتبهت من لحظة دوار وانهيار، وكأني لم أسمع شيئًا، وبرئت تمامًا من أثر النصل الحاد الذي شعرت به ينغرس في قلبي عند سماع « الخبر ».

لم أردد النبأ بيني وبين نفسي، ولم تتوارد خواطر أو تتداعى معانٍ حوله، أبدًا، أبدًا، أبدًا، كأن لم يكن شيء.

« فزعت فيه بأمالي إلى الكذب » لم يكن شيء لم يصلني شيء!!

(*) جريدة « الشرق » - قطر - ١١ مايو ١٩٩٩ .

ومضت أيام وأنا في حال لا أدري لها وصفًا، ألقى إخوة أحبة ممن كانوا يسألونني عن «أخباره»، ونشاركهم الحديث عن ذكرياتٍ كانت لنا معه بما فيها من طرائف، وفوائد، وفرائد، وأوابد.. ألقى هؤلاء الإخوة، فأقتضب الحديث معهم اقتضابًا، وأفر منهم سريعًا، وكأني أخشى أن يحدثوني بتصديق ما «فزعت فيه إلى الكذب» إلى أن كان حفل افتتاح الندوة العالمية للذكرى الألفية لإمام الحرمين الجويني، ووقف جمع العلماء الحاشد زرافات يتبادلون تحية اللقاء والترحيب، وإذا بصوت أخي الحبيب الدكتور يوسف القرضاوي يناديني، فأدركت من صوته أنه «الخبر» فدنوت منه قليلًا، ثم قلت قبل أن أسمع منه شيئًا، عارف عارف. ولم أزد حرفًا وانسحبت بعيدًا!!

فقد «شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي».

انسحبت بعيدًا... أبكي....

أبكي الأخ الصديق، الحبيب، والودود، الهيّن، الليّن، الرقيق، الرفيق، أبكي الذكريات الجميلة عندما التقينا في رحاب دار الكتب الصرية في مبناها العريق في باب الخلق، منذ أكثر من ثلاثين عامًا، كانت الدار تبدأ يومها في الثامنة صباحًا، وتظل حتى السادسة مساءًا، وكنا دائمًا أول الداخلين، وآخر الخارجين، نقضي اليوم بطوله في صبر ودأب، نعالج النصوص التراثية المخطوطة ونماذجها، نسخًا، وقراءةً، وحلًا لمشكلاتها، واستجلاء لغوامضها، وبين هذا وذاك نتبادل أطراف الحديث حول أوابد العلم وفرائده، وملح العلماء ونوادرهم، يكون ذلك مع رواد الدار من العلماء الكبار أحيانًا، ومع رجال الدار وأمنائها غالبًا، إذ كانوا بحق علماء وخبراء.

كان الطناحي حفيًا بهذه الذكريات، يحب أن نتبادلها دائمًا، كلما التقينا يطوف الحديث حيث يطوف، لكنه كان يسعده أن يسوقه إلى هذه الفترة الباكرة، ويطيل الوقوف عندها.

بل سجلها وأشار إليها في بعض أعماله، مباهيًا بها مفاخرًا، كما في كتابه الفذ مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي.

أبكي العالم الجليل، البحاثة، النجيب، صاحب الآثار الخالدة، والأعمال العلمية الباقية، التي ستظل شاهدة بعلمه ناطقة بفضله، من هذه الآثار.

- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير.

- الفصول الخمسون « في النحو » لابن معطي.

- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى.

- منال الطالب في شرح طوال الغرائب لابن الأثير « وقد حصل هذا العمل على الجائزة الأولى في تحقيق التراث بمجمع اللغة العربية ».

- شرح الأبيات المشكلة الإعراب لأبي علي الفارسي.

- أمالي ابن الشجري.

- مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي « تأليف ».

- الموجز في مراجع التراجم والبلدان، والمصنفات، وتعريف العلوم « تأليف ».

- الكتاب العربي المطبوع في مصر في القرن التاسع عشر « تأليف ».

هذا عدا عشرات البحوث، ومئات المقالات التي تعتبر ثروة علمية، وزادًا ثقافيًا نادرًا.

أبكي مدرسة كاملة ذات أصول ، وضوابط، وقواعد، ومناهج، مدرسة الأصالة، والصيانة، والديانة والتحقيق، المدرسة الشاكرية، مدرسة شيخنا العلامة محمود محمد شاكر.

إن مدرسة محمود شاكر.. على عظم فجيعتنا فيه لم تقبر يوم وفاته، ولكنها قبرت يوم وفاة محمود الطناحي.

كان الطناحي- بحق - وارث المدرسة الشاكرية وحامل لوائها، كان أحب تلاميذ الشيخ ومريديه إليه، وأكثرهم ملازمة له ومعرفة بعلمه، وإحاطة بمناهجه، وإحساسًا بدخائل الشيخ، ومشاعره، وإدراكًا لعواطفه وميوله، زد على ذلك ما كان من امتزاج، وتآخ ومحبة، حتى صار البيتان بيتًا واحدًا، والأسرتان أسرة واحدة. كان آخر حديثي معه- قبل الفجيعة بنحو شهر- عن الإعداد والترتيب لإعادة ندوة الجمعة- ببيت الشيخ شاكر لسابق عهدها، وبهائها، وروائها!!

كان الطناحي الأمل والعوض في شيخنا الجليل أبي فهر، كان قد استحصدت خبرته، ونضجت آراؤه، وتفتحت مواهبه، واستقامت مناهجه، وبدأ تلاميذه، وعارفوا فضله يأوون إليه، ويستقون من معينه، وكان يحدثنا بحماسة، واهتمام، وأمل، عن الشباب الواعد الذين يعرفهم، من أبناء مصر وغير مصر، وكيف يعدّهم ليحملوا اللواء، لواء الدفاع عن تراث أمةٍ كاملٍ متكامل، هو فخر ماضيها، وسرّ حاضرها، وضوء مستقبلها!!

أبكي الأب: أبكي لأروى، ومحمد، فلم يكن أبًا كالآباء، كان طوفانًا من العواطف يفيض رقة، ويذوب شفقة، ويتدفق محبة لأولاده، تعرف اللهفة في عينيه إذا تحدث عن أروى، وتدرك الشفقة في صوته إذا تكلم عن محمد. ثم هو أيضًا من أولئك القلائل الذين يقذف الله حبَّهم في قلوب عباده، فهو « حبُّوب » بمعنى الكلمة « العامي » كنت أمازحه قائلًا: الذي يراك ولا يحبك يدخل جهنم.

ضمَّنا في الصيف الماضي- في بيتنا- مجلس جمع صفوة من أهل العلم، والفكر، والقلم، وما أن استأنس بهم، وأطلق نفسه على سجيتها، حتى أقبل عليه الحاضرون- وبعضهم لم يره من قبل- معجبين بأدبه، وظرفه، وحلو حديثه، الذي جمع بين طرائف الأدباء، وفكاهات الأئمة، ونوادر العلماء، وفي ثنايا ذلك دروس، ومواقف، وكلما مال الحديث هذا الجانب أو ذاك، كان هناك من يستزيده، وبلغ من تألقه في هذه الليلة الرائعة، أن علق الدكتور يوسف القرضاوي- وقد كان حاضرًا -: سبحان الله، أتذكر يا عبد العظيم!! لا إله إلا الله! هل كان التجلي في هذه الليلة وداعًا!!

وداعًا أبا أروى!! نقول عنك ما قلت عن شيخنا محمود شاكر : « قد صار الطناحي ميراثًا نتوارثه، وأدبًا نتدارسه، وحنانًا نأوى إليه، « سيظل الطناحي أثرًا ضخمًا باقيًا، حراسة للعربية، وذودًا عنها، وبصرًا بها ». عذرًا لأهلك، عذرًا لأروى، عذرًا لمحمد، فلم استطع أن أعزيهم حتى الآن، وهل سأستطيع؟؟ وعزاء مجددًا يا أم فهر في شيخنا الجليل، فقد تضاعفت الفجيعة وتجددت بموت الطناحي، نسأل الله أن يربط على قلوبنا، وأن

يأجرنا في مصابنا، وأن يجعله وشيخنا مع النبيين والصديقين والشهداء. إنه نعم المولى ونعم النصير.

* * *

محمود الطناحى إنسانًا(*)

« أبو همّام »

أ. د. عبد اللطيف عبد الحليم

وهل يستطيع مثل محمود الطناحى إلا أن يكون إنسانًا لقد استغرقته الإنسانية ، فلم يفلت من نياطها على المستوى الشخصى والعلمى ، وكأين من علماء أو أساتذة يدابر علمهم إنسانيتهم ، فيكونون نكالًا على أنفسهم وعلى العلم .

وإذا حددنا العلم هنا بالدراسات الإِنسانية ، ومنها علوم العربية والإِسلام ، فإن الطناحى فى قنة باذخة من الإِنسانية ومن هذا العلم أيضًا ، ومع أن المفروض أو المتوقع أن تكسو هذه الدراسة صاحبها شية خاصة من الإِنسانية ، فإن القاعدة تتخلف أحيانًا كثيرة على ما رأيناه من مشاهد الحياة ووقائع العشرة ، بيد أن محمود هنا تدسست إليه هذه المعارف فشاطرت فطرته التى ذرأه الله عليها .

ولد الطناحى فى قرية « كفر طبلوها » مركز تلا من أعمال المنوفية ، وثمة مثل يتداوله أهل هذه المنطقة عامة يقول : « إذا ضاع فى الدنيا حفظ القرآن فلا يضيع فى كفر طبلوها وزُرقان » ، وبينهما وبين قريتنا « طوخ دلكة » قِدَى رمح ، وليس لقريتنا مثل هذه الشهرة فى هذه الخصلة الكريمة ، ويذكر المرء طائفة من علماء الأزهر خاصة من هاتين القريتين .

(*) حفل تأبين جامعة الدول العربية - القاهرة - ٢٥ مايو ١٩٩٩.

ولمن حفظ القرآن كالطناحى ، ودرس علوم العربية والإِسلام سمت خاص ، إذ أثرت فيهم هذه الدراسة وقد أثرت بالفعل فى فقيدنا العزيز ، ليس على المستوى العلمى ، وهو فى ذؤابته ، بل فى تصرفاته ، وخصاله الشريفة من النبل والأريحية وسعة الأفق ، وبعض أهل الأزهر أو التربية الدينية لهم سمة خاصة ، كالطائفة الاجتماعية بين طوائف المجتمع ، وفى كثير منهم عزلة وربما غربة عمن يعاشرهم من أهل التعليم المدنى ، ربما تدفعهم إلى شىء من الانغلاق ، حاشا من كان على شاكلة محمود ، إذ أتيح له أن يتفتح منذ الصبا الباكر على القاهرة ، وأن يندمج فى مجتمع دار العلوم ، وهو وسط بين تعليم الأزهر ، والتعليم المدنى ، وكذلك كانت ثقافة الطناحى ، والحقيقة أن التراث الحقيقى كما فقهه صاحبنا لا يدع للانغلاق سبيلًا ، لأنه يقرأ هذا التراث ، وفيه إحاطة واسعة بالشمائل الإِنسانية السوية التى لا تغفل ولا تغلق نوافذ الحياة ، ويمكن أن يكون ما أطلق عليه الفقهاء قديمًا « الإِحماض » وسيلة إلى هذه البابة الرحبة ، إذ لم يتحنث تحنث الفقهاء من رواية الشعر وتصويره لكل الجوانب الإِنسانية حتى الجانب الماجن منها ، وقد راض الفقهاء هذه البابة وأبدعوا فيها شعرًا نفيسًا .

أما القشور التى تدرس من هذا التراث فهى مدعاة إلى هذا التحرج الذى نلمسه فى المسطحين من المنتسبين إلى هذا التراث ، وما كان فيه من عيب ، إلا فى أنفسهم .

كانت إحاطة محمود بالتراث الحقيقى ، حيث العربية كتاب واحد ، إحاطة مذهلة ، لا توازيها غير إنسانيته الرحبة والمذهلة فى الوقت ذاته ، لم تصبه آفات المهنة بما تصيب نظراءه ،

وإن كان قليل النظير، من أدواء الحسد والتنافر، وتدبير الدسائس، إذ كان الرجل بعيدًا عن هذا كله، غير أنه ليس بعد الغفلة، بل بعد الفطنة واللقانة التى تثير فى نفسه الأسى والإشفاق، وربما بسمة السخرية ممن يتذاكون عليه وعلى نظرائه، تجرد الرجل من آفات المهنة، حيث تجاوزها برحابة أفقه، حين تحتجن رصفاءه قيودها وآصارها الثقيلة كان يشعر بالزهو – وهو المتواضع – أو الباخع نفسه أحيانًا – أن تجرد للعلم والنظر والمذاكرة كما كان ينعتها.

عرفته منذ سنوات طويلة خلت، فما جربت عليه كذبًا قط، وإن كان الكذب الأبيض، رجل شديد الصدق مع نفسه ومع الناس، بل ومع الأشياء، شديد الإِلف، ولعل ألفته مع المخطوط منذ بداياته الأولى، شرده دائمًا إلى ما تعارف عليه الناس « بالأصول » فالأصل عنده بالمعنى الاجتماعى والعلمى له مكانة ملحوظة وخطيرة فى تعامله مع الناس والأشياء، وصدقه – فطرة – صاحبت صدقه مع المخطوط وتحقيقه، فالتقى صدقان موهوب ومكسوب، وهو باحث دائمًا عن اللباب فى مسلكه الحياتى والعلمى، فلا تخدعه البهرجة فى المشاعر ولا فى الكتب ولا فى مؤلفيها، يحتشد للقائك احتشاده للكلمة المقروءة والمسموعة، وله بصر يعرف الخبء وإن كان يخيل إليك أنه لا ينظر، لأن البداهة عنده قويت، فتعمل عملها كأنها لا تعمل.

ومن يوم أن التقينا لم نفترق مشاعر وفكرًا، وإن كانت أسفاره وأسفارى حجبت لقاءنا أشباحًا وظلت أفكارنا ومشاعرنا فى عناق أبدى، وكأنها الآصرة السماوية التى توشج بيننا، حتى وإن اختلفنا قليلًا.

والطناحى من ذلك النفر النادر الذى يعض عليه صديقه بالنواجذ ، إذ كان هو مع أصدقائه كذلك ، وهو منى بمنزلة الأخ الأكبر ، لكننا نشعر أن مودتنا محت أقياد السن ، وزاد من هذه الآصرة السماوية ولاؤنا لعقاب العربية أبو فهر محمود محمد شاكر - برد الله مضجعه - وما يمثله من غيرة على اللسان العربى ، وعلى كل تراث هذه الأمة ، وكنا نحس أن كلانا يكتب للآخر ، أو يفكر فيه حين الكتابة ، ونختار لذلك بعض الغريب ، أو هو يختارنا لأننا نحس أننا نكتب كتابة مخالفة ، ولذلك حين ينشر أحدنا شيئًا ، نتهافت معلقين ، ويطرب كل منا حين تقع القذة على القذة ، وندرك فى التو أن الرسالة وصلت ، وأن العربية تختال حين تجد من ينفث فى هوامدها حرارة الحياة ، وكان محمود يزيد عنى فى انهمال العبرة حين يستمع إلى شعرى وإن كان الموضوع غير حزين ، لأنه يتطرب إلى صورة دقيقة ، أو جملة محكمة ، وما استطاع أن ينوب عنى فى إنشاد قصيدتى عن شيخنا أبو فهر فى تأبين جامعة الأزهر له ، حين حالت حوائل أن أشارك بشخصى ، وليس فيما أرويه شبهة بأو ، إذ كانت عبرته قبل كل شيء على ضياع « البيان » فى جيلنا ، وكيف نطمس روعة العربية بدعاوى النزوات الطائشة ، ولمحمود قدرة فذة على تمييز الكلام والبصر به ومن ثم كان حزنه وأساه .

ومحمود من ذلك النفر القليل الذى نحب العربية فى مقاله وكتابه ، لأنه ينطق نطقًا مكتملًا ، ويكتب كتابته هو ، وإن كان فيها أثارة من كلام قديم ، لأن هذه الأثارة ملكنا نحن ، وننفق من رصيدها ، ولا تطمس هويتنا ، ومن ذلك النفر شاكر والعقاد والمازنى فى كتاباتهما الباكرة . ولم يكن منه أبدًا مصطفى صادق الرافعى ، وهنا كنا نختلف اختلاف الرأى لنتفق فى شعور ،

وكنت أرى الرافعى فى غير موضعه الذى يحله فيه شاكر، والطناحى.

وكان فى محمود عيب ظاهر وإن حاول سَتره، وهو فرط ثقته بالناس، وحمله لهم على محمل الخير دائمًا، وربما أشاركه فى هذا العيب، وإن كنت أخادع نفسى فأنفيه عنى «ولا يخدع المرء سوى نفسه»، وحين كان يجد أن ثقته فى غير موضعها، يأسى قليلًا، لئلا يفقد هذه الثقة، وأن الأمر عنده على بابه، وأن إنعدام الثقة لديه أنكى من عواقب الثقة المخدوعة، وصبر محمود وصابر على كثير من هذه المواقف، وترك حقه الشخصى يتحيفه جور رصفائه، وليس لهم نقاء سريرته، بل فيهم لؤم النحائز، وارتكاسة الخيم الذميم، وركن إلى «بيانه» المشرق، يضىء له وللناس، وأبى بأوه أن يسوقه سوقًا إلى ما لا يود، وكان فى ذرعه أن يرد الصاع صاعين كما يقولون، لكن كان حسبه أن يقول «لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها»، وهم ليسوا فيها ولن يكونوا أبدًا، ومثل محمود منها فى الصميم وإن كان بعيدا، إنهم يرونه بعيدًا، ونراه قريبًا، وإن موقفه وموقف قرنائه معه لتصحيح لمقاييس أخلت بها تقاليد النذالة، وهى غير عسية بالمناجزة، يشيع فيها الصغار، ومن هنا كان بأو محمود وصرامته.

ولقد اجتمعت للطناحى خليقتان تبدوان فى الظاهر متباينتين: خليقة الجد الصراح، وخليقة المرح الصراح كذلك، واحتفظ صاحبهما بمواطنهما إلا حين تغلبه القافية والقافية تحكم، وقد مكنت الخليقتان له قبولًا لدى الناس، فلا يكرهه إلا لئيم الخيم نزر المحامد: الفئة الباغية، التى لا ترى الضوء ولا يروق لها أن تراه، وكان هو الرابح على المدى البعيد، وكانوا هم

الأخسرين أعمالًا على المدى القريب والبعيد، حين ألصقوا به تهمًا لا هو منها، ولا هى منه، وكان مبلغ قولهم أنه سلفى يعضون بها ولاءه للجماعات الإِسلامية، التهمة الشائعة هذه الأيام، والحق أن الرجل ومن والاه، ليس لهم ولاء لهذه الجماعات، ولا حتى الشيخ العظيم أبو فهر، بل إنهم أقرب إلى مناجزة هذه الجماعات، أكثر من المتاجرين بمناجزتها، لأننا نناجزها آيبين إلى المنطق والفكرة السوية، على حين تكون النفعية رائد الفريق المتاجر.

ومرح الطناحى هو المرح الموقع، الذى يفطن إلى منافذ الفكاهة، حين تفضح خلل القياس، دون أن يشوبها ما يشوب الفكهين من خفة ونزق، لا يعرفان مواطن الجد والقداسة، ولعل فطرة ابن البلد هى التى تنضح فى أفاكيه الطناحى، فترقرق أنداء العزاء فى براثن الهجير الذى يشوى الوجوه والكبود، وكانت تسعده قريحته فى إطلاق النكتة النافذة، وكانت بديهته معوانًا لهذه القريحة، بعيدًا عن الاشتقاقات اللغوية، والشقاشق اللفظية لأنها قريبة وسطحية، وإن كانت تجىء أحيانًا نافذة نفاذ الأفكوهة العميقة، ولا نريد أن نفزع إلى سرد طائفة من نوادره، التى تتأبى على الحصر بغير عسر، يقلد أحيانًا صوتًا وحركة وهيئة بعض المتنطعين من المشايخ أصحاب اللازمة فى الحديث والهيئة، ويزيد محمود المسألة « حبتين » لزوم القافية، فيخيل إليك أنك تسمع وترى هذه الشخصية، ولولا أنك فى محضر محمود لفركت عينيك وأذنيك، حسبانًا أنك فى غير حضرته، لتمام المطابقة، ونحن نعتقد أن هذا التقليد - بجانب الفكاهة النافذة فيه - فهم دقيق لهذه الشخصية أوتيك، وأن المسألة خرجت من الفكاهة

السريعة إلى الفطنة والتحليل العميق وأن النقد يستوفى حظه حين تستوفى الأفكوهة حظها أيضًا .

وتغلبه مصطلحات المهنة ، فيورد طائفة من نوادرها المحفوظة ، يذكر أن طلاب معهد القراءات خرجوا يهتفون للنحاس باشا ، فتغلبهم طبيعة « الإِمالة » فإذا بهم يطبقونها فى مثل هذه المناسبة ، وهل هناك مناسبة أعظم لإِبلاغ إمالتهم المميزة مثل هذه ؟ يقولون : قراء ورش يؤيدون « أبا درش » وهى كنية لمن يسمى « مصطفى » ، وتحكم القافية فتزيد النبرة حين يهتفون : « يحيى النحيس بيشا » يريدون يحيى النحاس باشا ، وتنال قافيته صحابه الأدنين ، يقف أبو همام ينشد قصيدته فى ذكرى التوحيدى ، فيقدمها قائلًا : « من أبو همام إلى أبو حيان » فما يكون من الطناحى إلا أن يقول : من أبو همام إلى أبو حيان يا قلبى لا تحزن » .

وطبيعة محمود المتسامحة الودود فى غير الحق والعلم هى التى تملى هذه المواقف الآن ونظائرها كثير ، وهى التى تقطر طلا على الأكباد الوارية ، فتأبى أن تكون المناسبة حزنًا محضًا ، أو لعلها طريقة طناحية فى الشعور بالحزن حين يتسرب إليه وشل من المرح ، ولعلنا نردد ما ارتجله العقاد يوم نعى حافظ بك إبراهيم :

« أبكاء وحافظ فى مكان تلك إحدى طوارق الحدثان
كنت أنسا فكيف أصبحت يا حا فظ تدمى لذكرك العينان »

ووضع « محمود » موضع « حافظ » لا يأباه مهيع العروض ولا مهيع محمود ، مع قليل من الزحاف المحمود .

وصفحة محمود الطناحى صفحة باقية كلما قلب المرء صفحة من صفحات الطروس أو صفحات النفوس ، وإننا لرابحون لأنفسنا على سنة الوفاء ، حين نفى لك .

وإنا إلى الله راجعون لقد غال الردى سيرة من السير ، وإنها لسيرة إنسانية ، تملى نفسها بميزانها المحقق ، لا بميزان « اذكروا محاسن موتاكم » لا يقول فيها الصديق ما يأباه المحقق ، أما أبو همام فيردد ما كنت تردد :

« ما فى الصحاب أخو وجد نطارحه
حديث نجد ولا صب نجاريه »

* * *

محمود الطناحى ... أىّ عِلْمٍ رُفع!![*]

« أبو همام »

أ.د. عبد اللطيف عبد الحليم

خلاصة السلف الكريم ، من أعيان المحققين وشيوخ اللغة والأدب، وسلالة النبع الروى من جبابرة التراث العربى الأصيل، ووارث علم السلف العظيم الذى حفظ للسان العربى عبق القدامى، فى قوارير عصرية، وبقية مما ترك الأصمعى والمبرد وابن الأثير والجرجانى، موصولًا بالأخوين محمود وأحمد شاكر، وعبد السلام هارون، ومحيى الدين عبد الحميد، إنه: أبو محمد محمود الطناحى رحمة الله عليه!!

لغير نبأ رحيله أعدت الأسماع، وتلهفت القلوب!!

كان- وما أشق « كان»- حيوية زخارة، وعلمًا مشتعلًا، كأنه يسابق الزمن. فيملأ ساعاته- ولا نقول أيامه- بالتنقيب والبحث، والمطالعة والتصنيف، ولا يكف عن فائدة، تحثه غيرة على العربية وعلومها، وعلى تراث السلف، بعد رحيل محمود شاكر- عقاب العربية-إذ حمل رسالته- وما أشقها فى فهم كنوز التراث، وكان الملاذ حين تشتجر مذاهب الرأى فى قضية لغوية، أو مخطوطة مجهولة، فنجد لديه فصل الخطاب، وكأن هذه الغيرة المشتعلة لم يكن ليتحملها بنيانه- وهو وثيق- فما اشتكى وصبا، بل كان أسرعنا خطى، وأعلانا صوتًا ، وأملحنا نكتة أو نادرة..

(*) جريدة « الأهرام » - مصر - ٣٠ مارس ١٩٩٩.

كان الطناحى ملاذا لنا فى قضايا القراءات القرآنية، وغرائب الحديث النبوى، وشواهد اللغة والشعر، وما كان يخذلنا حين نعوذ به، إذ تسعده ذاكرة لا تكاد تخرم شيئا، وشيوخه وشيوخنا كانوا يلجأون إليه فى علوم ينفرد بها.

وكثير من أهل التراث ذوو طبائع جهمة، لا تكاد تبض وجوههم بضحكة، إلا الطناحى الذى كان يملأ المجالس بنوادره المرتجلة والمحفوظة، فيشيع بهجة موزونة لم نعهدها فى غيره من أصحاب المهنة دون خفة وطيش.

وكثير أيضًا من أهل التراث ليسوا أدباء بالطبع، غير محمود الطناحى، وشاكر من قبله، إذ تجد لديهما أسلوب المشرق،والبيان الشريف، لأنهما ولجا التراث وتحقيقه من باب الأدب بالسليقة لا بالصنعة.

درس الطناحى فى الأزهر، وتخرج فى دار العلوم ١٩٦٢، وزاول التدريس بالجامعة الأمريكية، وعين خبيرًا فى معهد المخطوطات، ثم حصل على الدكتوراه من دار العلوم ودرس فى جامعة أم القرى، وعين حين عودته أستاذًا بكلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة القاهرة فرع الفيوم، واستقر أخيرًا فى آداب حلوان، وخبيرًا بالمجمع اللغوى، وأخرج تحقيقات ضخمة لعيون التراث العربى مثل أمالى ابن الشجرى وكتاب الشعر لأبى على الفارسى إلى جانب مؤلفاته المتعددة وبحوثه فى الدوريات العلمية.

لكننا لم نفد الإفادة المرجوة من محمود الطناحى، إنه مدرسة قائمة بذاتها فى تحقيق التراث، ولم نفد منه عضوًا بمجمع اللغة العربية وكثيرون من أعضائه ليسوا فى قامته.

عرفته منذ سنوات خلت، فحمدت معرفته وصحبته وأحببته، وهو من القلة الأصفياء، أبيض القلب من غير سوء، لا يتكالب على الوظيفة أو المنصب، وهو نموذج للجامعى الراقى المهذب السلوك، تعرفه جيدًا الأوساط العلمية المحترفة، وتقدره، وقد رحل وفى قلبه علم كثير نفتقر إليه وإن الله عز وجل ليقبض العلم بقبض العلماء، ومحمود فى ذروتهم، ولعله يطول انتظارنا لنعوض مثله، يا أبا محمد: لقد رحلت فجأة فالتاعت لرحيلك أفئدة، وبردت أفئدة أخرى كان وجودك يذكرها بنقصها وقد تركت محبيك- وهم كثير- أكبادًا وارية، وعيونًا باكية، واضلاعًا صادية، فأى علم رفع برحيلك، عوض الله العربية خيرًا ، أن تعرف لك الفضل، وإنا لفراقك يا محمود لمحزونون...

* * *

الطناحى ورحلته مع التراث العربى

أ.د.عبدالله حمد محارب

لم يدر بخلدى وأنا أستمع إلى حديث الدكتور محمود الطناحى الحلو مع زملاء وأصدقاء اجتمعوا فى منزلى أننى سوف أعود من رحلة الحج التى كنت أجهز نفسى لها، فأجد العلم والفضل وكل الصفات النبيلة تتقبل العزاء بوفاته.

عرفته فى أواخر السبعينات أستاذاً كريماً وحافظاً متقناً ثبتاً، وقبل هذا هو واحد من حواريي شيخنا محمود محمد شاكر، كان ملازماً له قارئاً عليه كثيرا من كتب التراث، ذكيا سريع اللمحة، مطلعاً على كتب التراث، ومتمكناً من تحقيقها، فقد كان منذ صغره معنياً بها، مشغوفا بدراستها، وقد التقى فى مسيرة حياته عدداً كبيراً من العلماء والأساتذة المبرزين فى هذا الميدان سواء من خلال عمله فى دار الكتب ناسخاً للمخطوطات فيها، أوجهوده فى معهد المخطوطات العربية، أو أسفاره إلى أقطار الأرض لتصوير تلك المخطوطات وفهرستها (المغرب، اليمن، تركيا، المملكة العربية السعودية)، كما صار حجة أيضا فى البصر بتاريخ الطباعة فى مصر، وله فيها كتاب مطبوع، وهو حجة كذلك فى فنون العربية وآدابها، حافظاً للقرآن الكريم عارفاً وجوه قراءاته كلها، ومع كل هذا فقد كان لطيف المعشر، حلو الحديث، راوياً لطرائف عجيبة، صاحب نوادر، لا يمل منه جليسه، وفوق هذا فقد كانت الكويت من البلاد التى أحبها، وهو لم يتسن له أن يقضى فيها أكثر من شهور معدودة أستاذا زائراً

(*) مجلة العربي - الكويت - أكتوبر ١٩٩٩ .

فى جامعتها ، وقد لفت انتباهه النظام الدقيق الذى يضبط الحياة فى الكويت ، والنظافة فى الشوارع والأسواق.

ولقد سطر أحباء الفقيد وأصدقاؤه جملة من المقالات الممتازة حول حياته ومؤلفاته وعلمه الغزير ، على أن هناك جوانب أخرى عظيمة يعرفها جميع من التقاه سواء أكان لقاء مباشرًا أم من خلال كتبه وإنتاجه العلمى الرصين ، هذه الصفات وتلك الجوانب تحتاج إلى أن تلتقط من سطور تلك الكتب والمقالات ، فهى تتناثر فى متون كتبه وتتلألأ فى هوامشه ، ومن هنا رأيت أن أحاول التقاط بعض تلكم الفضائل التى كنا نعرفها فى الفقيد ، ومن أبرزها :

تواضعه وعلو خلقه ووفاؤه ، وقد صرفنا عن الحرص على ذكرها والاشادة بها أنه كان يمتعنا بها فى حياته ، أما وأننا قد افترقنا إلى حين فإن الحديث عن تلك اللمحات المحببة فى شخصيته يخفف شيئا ما من مرارة الأسى بوفاته.

فضل الرواد

وفى مقدمة تلك الفضائل ذلك الدعاء الذى يتناثر بين عباراته عندما يذكر أساتذته ومشايخه وجهودهم وخدمتهم للعلم والتراث كقوله عن شيخنا الأستاذ محمود شاكر : « حرس الله مهجته ، أمتع الله المسلمين ببقائه ، أحسن الله إليه وجزاه خير الجزاء » ويدعو لمشايخه الآخرين كلما ذكرهم إذا كانوا من الأحياء « أطال الله فى الخير بقاءهم » (مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى ص٩٧) و« عبد السلام هارون حفظه الله » (المرجع نفسه ص٩٩) و« شيخنا الأستاذ أحمد راتب النفاخ أطال الله فى النعمة بقاءه » (كتاب الشعر لأبى على الفارسى ج١ ص٩٦).

وعندما يتحدث عن شيخنا الأستاذ محمود شاكر وجهوده في خدمة التراث يقول «وعذرا من الإطالة فهو كلام نفيس عال لا يحذف منه شيء» :

«كيف أكتب عنك أيها الشيخ الجليل؟ ومن أين أبدأ، وكيف أمضي ؟ والحديث عنك إنما هو عن تاريخ هذه الأمة العربية الشريفة : عقيدة ولغة وفكراً ورجالا ، وآمادا رحبة متطاولة ، لا يقدرها إلا أنت ، ولا يعرف كنهها إلا أنت ، وتاريخ أمتنا حاضر بين يديك ، ماثل أمام عينيك ، لم يغب عنك لحظة ، فماذا أنا قائل فيك ؟ وماذا أنا بالغ من الكتابة عنك ؟ ومعذرة ثم معذرة شيخي أبا فهر إذ أكتب عنك بهذه الوجازة التي تراها – أراك الله الخير كله ، ودلك عليه ، ورغبك فيه.

ثم معذرة من بابة أخرى : وهو أن كثيرا مما ستقرأه ، إن شاء الله منتزع من كلامك ، مدلول عليه بفكرك ، فأنا إنما أكتب عنك بك ، وأتقدم إليك بسابق فضلك وموصول علمك ، وإن كنت أعتقد أن هذا لا يعتذر منه إليك، وأيضا فإنك كنت قد شجعتني على الكتابة عنك ، حين أنبأتك ما أصابني من دوار أرضاني وأسخطني يوم خرجت إلى الناس بطبعتك الجديدة من كتابك الفذ «المتنبي» وحدثتنا في الجزء الأول منه ، حديثا غريبا عجيبا ، عن فساد حياتنا الأدبية ، وعن تفريغ عقولنا من كل ما يردنا إلى تاريخنا وأيامنا ، وقلت لك يومها :

إني أريد أن أدل على ما ذكرت بما شاع في كتاباتك الأخرى ، ما دق منها وما جل ، وقد أذنت لي في الكتابة عنك ، ويومها رأيت نفسي – وأنا من أصغر تلاميذك – قد ظفرت بما فوق المنى» (مدخل إلى تاريخ نشر التراث ص ١٠٣).

ومن العلماء الذين كان يحرص على الدعاء لهم الأستاذ عبد السلام هارون - وهو أستاذنا أيضاً تتلمذنا على يديه - يرحمه الله - فى كلية دار العلوم فى الفترة من ١٩٦٥ - ١٩٦٩ فيتحدث فى معرض انتقاده لشيوع ظاهرة المختصرات لأمهات الكتب فى أيامنا هذه والتى قام بها البعض فأساءوا - بسبب ضعفهم العلمى - إلى الأصول.

ويقول عنه وبعد أن قدم بحديث عن جهود الأستاذ عبد السلام هارون فى خدمة التراث: «وخلاصة ما يقال فى الأستاذ عبد السلام محمد هارون: أنه لم يخط أحد فى التراث سطراً إلا ولهذا الرجل عليه منة، وذلك أنك لا تكاد تجد قائمة مراجع تراثية إلا وفيها كتاب من تحقيقات شيخنا، حفظه الله».

خدمة التراث:

وكل حديثه عن شيوخه والعلماء الذين عاصرهم كان يجرى على هذا النمط، كالشيخ السيد صقر والشيخ محمد عبد الخالق عضيمة وغيرهما، وهو فى معرض حديثه عن أساتذته كان يذكر فضل بعض العلماء الذين اجتمع معهم على مائدة التراث كالأستاذ محمد رشاد عبد المطلب فيقول عنه (المدخل ص ٥٢ هـ١): «كان يرحمه الله من العلماء بالمخطوطات وأماكن وجودها وكان لا يجارى فى معرفة المطبوعات وأماكن طبعها شرقاً وغرباً، والفرق بين الطبعات وعدد طبعات الكتاب المختلفة، ومن وراء ذلك كانت له صلات وثيقة بعلماء الدنيا، من عرب وعجم، كنت لصيقا به ملازماً له عشر سنوات فى معهد المخطوطات وسافرت معه فى بعثة المعهد إلى تركيا والمغرب وتعلمت منه الكثير، توفى إلى رحمة الله فى غرة المحرم ١٣٩٥ هـ الموافق

١٩٧٥م، وقد كتبت عنه كلمة غداة وفاته بمجلة الثقافة المصرية» .

وهو لا ينسى كل من يسدى خدمة إلى تراث أمته فيقول عن «حسن عباس زكى»: «وقد سقت هذه الحكاية لأدل على فضل هذا الرجل (حسن عباس زكى)، ذلك الوزير الصالح، الذى أحب التراث العربى الأسلامى، حباً ملك عليه نفسه، وكان هو على رأس وزارة خطيرة - وزارة الاقتصاد المصرى - معنيا كل العناية بشئون التراث، والمشتغلين به، من علماء وناشرين، يفسح لهم فى مجلسه، ويذلل لهم العقبات، ومن أياديه البيضاء نشر كتاب «الجامع الكبير» للحافظ السيوطى، الذى صدر مصوراً عن مخطوطته، وإعادة نشر كتاب «الأم» للإمام محمد بن ادريس الشافعى، إلى كتب أخرى ساهم فى طبعها، أو أغرى الناشرين بطبعها، ومكتبته الخاصة تضم قدراً عظيماً من نوادر المصحف الشريف، والمخطوطات والمصورات والمطبوعات القديمة. تقبل الله منه صالح عمله، وجعله فى موازينه يوم يقوم الناس لرب العالمين» (المدخل ص ١٠٣).

ومن الملتقطات التى تتلألأ فى نظرته إلى الأوائل - رحمه الله تعالى وبرد مضجعه - أنه كان يحبهم ويعظمهم ويراهم سبباً فى شهرة أبناء عصرنا، يقول فى خاتمة مقدمته لكتاب منال الطالب فى شرح طوال الغرائب لابن الأثير «ج١ ص٤٩»:

(وغفر الله لنا فقد جئنا إلى هذا التراث: لننال به الشهادات ونرتقى عليه إلى المناصب، ونطلب به المثالة عند الناس، ثم لم نعطه حقا من الدرس والتأمل والاقتداء.

ورحم الله النضر بن شميل، فكأنه كان يعنينا حين قال قولته العظيمة فى الخليل بن أحمد، شيخ العربية، يقول النضر: «لقد عاش الخليل بن أحمد فى مربد من مرابد البصرة لا يجد قوت يومه، وأصحابه يأكلون بعلمه الأموال».

ويعيب على محققى التراث المرتزقين هذه الأيام حرصهم على أن يملأوا هوامشهم بما لا يتصل بالنص لتضخيم الكتاب.

وفى خضم الحديث عن العلماء والشيوخ لا ينسى وراقى العصر الذين كنا نختلف إليهم نبحث فى مكتباتهم عن نوادر المطبوع كالطيب وخربوش وغيرهما، ولم أكن أظن أننى سوف أجد ذكرا لهم فى كتاب أو مقالة كان لهم فضل فى إرشاد كاتبها إلى بعض مادتها، وما أكثر ما وجدنا عندهم مما حفيت أقدامنا فى البحث عنه فى دور النشر وعند سماسرة الكتب، وفى مقدمة هؤلاء الوراقين الشيخ على خربوش وزكى مجاهد، ومحمد العبادى، ومحمد الطيب، وحجازى صاحب المكتبة الحجازية بالأسكندرية وغيرهم (المدخل ص ١٤٢).

وفاؤه وتواضعه

أما وفاؤه فأنت تراه فى مواضع كثيرة مما كتب، وهى طبيعة صاحب النفس الصافية التى لا تحمل حقداً ولا تنسى فضلاً، ويذكر من هؤلاء الذين أحسنوا إليه «الشيخ الأصولى الفقيه عبد الغنى عبد الخالق الأستاذ فى كلية الشريعة، محقق كتاب آداب الشافعى ومناقبه، لابن أبى حاتم الرازى، وكان صاحب غرائب وعجائب.. وكان كثير البر بتلاميذه وأبنائه، وقد تخرج على يديه عدة من أبناء الجزيرة العربية، وبخاصة طلبة العراق، والمملكة العربية السعودية، وقد أحسن إلى كثيراً وقربنى من مجلسه فى أول

اشتغالى بالعلم، توفى عام ١٤٠٣هـ رحمه الله رحمة واسعة» (المدخل ص١٤٢-١٤٣).

وقال عن المرحوم محمد رشاد عبد المطلب : إنه «قد تعلم منه كثيراً»، وعند حديثه عن الشاعر المحقق حسن كامل الصيرفى يقول: «ولهذا الرجل فضل علىّ سابغ» (مستقبل الثقافة العربية كتاب الهلال مايو ٩٩ ص٥٦).

ويقول عن فترة عمله فى جامعة أم القرى «إنهم أنزلوه آنذاك منزلاً كريماً» ـــ(منال الطالب فى شرح طوال الغرائب ج١ المقدمة ص٧،٨،٩) وشرح هذا فى الهامش فقال: «حيث عوملت وظيفيا تحت بند هناك يسمى «كفاءة نادرة» يعامل به الإنسان الذى أكرمه الله بشىء من العلم معاملة «العالم» لا معاملة «حامل الشهادة العليا» - لاحظ تواضعه رحمه الله - وفى ظل هذا البند كان يعامل الأساتذة: محمد متولى الشعراوى ومحمد الغزالى والسيد أحمد صقر والسيد سابق ومحمد قطب». وهذه الأسماء لعلماء عصرنا الكبار تنبئك عن مكانة فقيدنا- يرحمه الله- العلمية الكبيرة.

ثم يفيض وفاء وشهامة فيقول:

«ومن أمانة التاريخ، ومعرفة أقدار الناس أذكر هنا أصحاب الفضل فى إرساء المبادئ العلمية الرفيعة: الشريف راشد الراجح، ومحمد بن سعد الرشيد...» ثم يذكر مجموعة من القياديين الذين أرسوا هذه المبادئ...

وهو لا ينسى أن يذكر مذاكرته العلم مع زملاء له وطلاب كانوا يدرسون على يديه، ويرى فى هذه المدارسة والمذاكرة فائدة للعالم قبل المتعلم.

يقول: « وكانت أياماً زاكية مباركة قرأت فيها مع إخوانى الشباب هناك شيئا من علوم العربية وقد أعطيتهم وأعطونى، أعطيتهم خبرة الأيام، وثمار مجالسة أهل العلم ومشافهتهم والرواية عنهم، وأعطونى حماسة الشباب وتوقده، بل إنهم فتحوا لى أبواباً من النظر، ودلونى على فوائد من الكتب لم أكن أقف عليها لولا نظرهم ومناقشتهم، ولا زلت أقول: إننا حين نعلم ونخرج أبناءنا الطلبة إنما نقرأ معهم العلم مرة أخرى، بل ربما استفدنا منهم مثل الذى استفادوه منا، ولأمر ما كان التلميذ قديما يسمى « صاحبا » لشيخه: فأبو يوسف ومحمد صاحبا أبى حنيفة، والربيع بن سليمان المرادى صاحب الشافعى، وابن جنى صاحب أبى على الفارسى ... وهلم جرا ».

ثم لا يترك هذا الموضع حتى يذكر فى هامش الصفحة أسماء هؤلاء الشباب الذين أفادهم واستفاد منهم، ومنهم: عياد ابن عيد الثبيتى، سليمان بن إبراهيم العايد، عثمان بن حسين الصينى، عبد الرحمن بن سليمان العثيمين وغيرهم.

ولعل هذه الإشارة من عالمنا الجليل إلى توقير واحتفال الجامعات السعودية بأهل العلم والحفظة والرواد، الذين ضاقت بعلمهم الواسع الشهادات الجامعية، فالتقطتهم درراً واستقطبتهم نجوما، أثرت بهم هيئاتها التدريسية وانتفع طلابها بعلمهم العظيم، هى التفاتة مهمة وتنبيه واجب للقائمين على إدارة المؤسسات الجامعية فى بلادنا العربية، فهذه السنة الحميدة ، وهى التعيين دون الالتزام بمسميات الشهادات، أسلوب عرفته الجامعات الأجنبية قبل العربية، فاستفادت منه، وبسبب هذا النهج رأينا العقاد وعبد السلام هارون وعمر الدسوقى، وغيرهم كثيرين، رأيناهم فى أروقة الجامعات يحاضرون ويناقشون ويفيدون وهم لا يحملون لقب

العصر وصرعته « الدكتوراه » ولا يعبأون بها، وكان الأمر كذلك في مؤسساتنا العلمية إلى أن ابتليت بالنظام الأمريكى الفج، الذى جعل الطلاب يمتحنون أساتذتهم فى بعض المقابلات الخارجية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

علمه وفضله

أما علمه وفضله فإن الحديث فى هذا الجانب « سوف يغرق فى بحور إحسانه »، (وهى كلمة الحسن بن رجاء فى مدح أبى تمام)، وما سطره الإخوة الأفاضل والأساتذة الكبار من محبى الفقيد فى مجلات وجرائد مصر والمملكة العربية السعودية والكويت ينبئك عن مكانته العلمية ورسوخ قدمه فى علوم العربية، بما لا يتأتى لأحد فى هذا العصر إلا القليل، وربما لا تجد عند غيره تلك الثقافة الموسوعية التى حظى بها يرحمه الله، وتلك القراءات الثرية تتلألأ بها مؤلفاته بصورة مدهشة، فأنت عندما تقرأ ما يكتب الدكتور الطناحى تجده تجاهك يحدثك وتحدثه، ويلقى إليك بفوائد جمة تجيئك تترى، والمحب للتراث إزاء تلك الفوائد والغرائب لا يكاد يلتقط أنفاسه من نفاستها وتتابعها، ويكفيك أن الإخوة فى المملكة العربية السعودية عرفوا قدره فوضعوه بإزاء الشيخ محمد متولى الشعراوى والشيخ محمد الغزالى والسيد صقر يرحمهم الله وغيرهم. كما أن فكه لطلاسم أسلوب أبى على الفارسى فى كتابه « الشعر » لدليل على رسوخ قدمه فى تحرير النص وتحقيقه (انظر ج١ ص٦٣ وما بعدها).

وعالمنا الجليل يحرص على تذكيرنا دائما بأنه: « لا يغنى كتاب عن كتاب » (الموجز فى مراجع التراجم ص ٢٤)، و « أن

مجاز كتب التراث مجاز الكتاب الواحد، (المرجع السابق ص٣٥).

ولقد اخترمته المنية وقرار اختياره عضواً فى مجمع اللغة العربية فى سبيله للصدور فخسر المجمع بذلك ابناً باراً من أبنائه الأوفياء، رحمه الله رحمة واسعة.

وبقى فقيدنا عمره كله وفيا لتراث أمته يذود عنه بغي الباغين، وتشكيك المستغربين، ويسوؤه ما انتشر فى هذا الزمان من استهانة به وبأصول تحقيقه ودراسته، واندفاع بعضهم فى إخراج الطبعات السريعة لبعض كتب التراث لا يعبأ بصحة القراءة، ولا يضبط النص ، ويستجلب التعليقات مغيراً على كتب الأئمة الاعلام « ولا بأس من التهويش ببعض الشروح اللغوية التى تعب من المعاجم عبا، وكثيرا ما يقع فى نقل هذه الشروح أخطاء فادحة، لعدم التنبه للمشترك اللفظى » كما يقول رحمه الله فى (كتاب الشعر لأبى الفارسى المقدمة ص ج).

زينة المجالس

وتبقى بعد كل ذلك روحه المرحة وخفة ظله، وتعليقاته الطريفة، فهو زينة المجالس، وريحانتها مع عزة نفس وإباء، وحرص على صيانة كرامته من كل ما يسئ إليها ولهذا فهو يصف هؤلاء الذين يتزلفون لتلاميذهم فى أسلوبه الساخر الممتع قائلا: « وإن منهم لفريقا يتهافت على ذوى المناصب من تلاميذه، حتى إذا رأى أحدهم فى مجلس طمح ببصره إليه، وأخذ يمد عنقا ويميل رأساً، ويسدد نظراً ليريه مكانه فتلتقى العينان، فيذهب بها غنيمة باردة يحدث بها أهله وولده، فإذا أبصره فى طريقه ركض خلفه حتى يكاد يتعثر فى أذياله، وشق الصفوف إليه وقد علاه البهر وغلبه

النهيج حتى يوشك أن يكتم أنفاسه، فإذا انتهى إليه ابتسم فى صغار وانكسار وأخذ يذكره بتلمذته له فى ثقل وغثاثة:

«ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه فى النفوس لعظما»
(مقدمة كتاب الشعر ص٦).

وانظر مقالته فى الهلال عدد سبتمبر ٩٥ حول التصحيف والتحريف «هذه النقطة وقضية التصحيف والتحريف» وهو يناقش فيها الخطأ الذى جاء فى امتحان اللغة العربية للثانوية العامة فى بيت أحمد شوقى:

«ولم أخل من وجد عليك ورقة
إذا حل غيد أو ترحل غيد»

إذ ورد مصحفاً فى السؤال بالعين المهملة، والصواب «غيد» بالعين المعجمة (الشوقيات ٢، ١١٩).

فيستهل هذه المناقشة بأن يسوق رواية طريفة حول أشهر تصحيف فى التراث، وهو التصحيف الذى جعل والى المدينة فى زمن سليمان بن عبد الملك يخصى مجموعة من المخنثين، بسبب تصحيف وقع فى كلمة «أحص» بالحاء المهملة فصارت «اخص» بالخاء المعجمة، هؤلاء الذين خصوا معرفون بأسمائهم، ويقال فى ترجمة كل منهم «وهو ممن خصى بالنقطة».

وهكذا كان رحمه الله فى كل ما يكتب أو يقول خفيف الظل والروح، لا يمل مجلسه، وتود لو بقى معك اليوم كله لا يفارقك.

واليوم ونحن نكتب هذه السطور نشعر بالأسى لفقد « جبل من جبال العلم » - كما وصفه أخى العزيز عبد الحميد البسيونى - حفظه اللّه ومتعه بالعافية .

وإذا كان الفساد قد ألقى بعاعه في هذه الأيام على حياتنا الأدبية، فإن الدهر قد لا يجود بأمثاله، وإن عزاءنا أنه لم يمت بيننا، وستبقى الذاكرة تسترجع صورته وعلمه ومواقفه النبيلة العظيمة، وسوف تخلده مآثره وكتبه وسيرته فى خدمة التراث العظيم لهذه الأمة التى كرمها الله عز وجل بلغتها ودينها، ولهذا فإن الباحثين مدعوون إلى العكوف على دراسة منهجه وقراءة كتبه واستخلاص المعلومات والإشارات حول قضايا التراث المختلفة ونسخ المخطوطات الثمينة والنادرة التى نسخها أو رآها، وقبل هذا تمثل مراحل حياته التى أوصلته إلى هذه القمة العلياء من العلم والفضل والتى تصورها سيرة حياته الثرية بالتجارب، ثم الاستفادة من تلك التجارب التى صقلته، والتى سطر كثيرا منها فى كتبه وهوامشه، فعليك رحمة الله يا أبا محمد، وجزاك عما قدمت خير الجزاء الذى يجزى.

* * *



الأستاذ الدكتور محمود الطناحي

عاشق التراث وشيخ التحقيق(*)

أ . د . عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان

رحم الله الأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي ؛ فهو علم من أعلام التحقيق والعلم في مصر ؛ نذر نفسه للعلم تحصيلًا لا ينقطع ، وعطاءً ثرًّا متواصلًا في محيط التدريس وطلبة العلم ، وفي مجال التأليف وتحقيق المخطوطات ؛ وهو من الصفوة القلائل ؛ الذين أثبتوا وجودهم في مجال تحقيق المخطوطات والخبرة الفائقة بالتراث الإِسلامي .

وحينما ترامى إلى سمعي نبأ وفاته انتابني شعور غامر بالأسى والحسرة على فراق عالم جليل ، وصديق عزيز توثقت بيني وبينه عرى الصداقة والأخوة في دروب الخير والعلم على مدى سبعة وعشرين عامًا ؛ فقد عرفته عام ١٣٩٢هـ ، يوم أن قدم مع بعثة معهد المخطوطات إلى المملكة العربية السعودية ؛ لتصوير ما يوجد من مخطوطات قيمة في مكتباتها .

وجاءت البعثة إلى المدينة المنورة ؛ حيث كنت أقيم ، وحيث يوجد أنفس وأهم مكتبات المخطوطات في المملكة ؛ مثل : مكتبة شيخ الإِسلام عارف حكمت ، والمكتبة المحمودية ، والمكتبة العامة ، ومكتبة الحرم ، وغيرها من المكتبات الخاصة ، ويومها كنت مدرسًا في المعهد العلمي بالمدينة المنورة ، ولي شغف وعناية

(*) جريدة « البلاد » - السعودية - ١٥ أبريل ١٩٩٩ .

واهتمام بالمخطوطات ؛ فطلب مني أن أرافق البعثة ؛ لإرشادهم إلى أماكن المخطوطات في المكتبات الخاصة والعامة .

ومن هنا توثقت الصلة بالدكتور محمود الطناحي - رحمه الله - الذي كان أحد أفراد البعثة ، وخبيرها الأول في اختيار المخطوطات ، واقتناص نفائسها . وأصبحنا نلتقي يوميًا صباح مساء في لقاءات عمل ، ولقاءات خاصة بمنزلي ؛ الحديث فيها ذو شجون يدور بين العلم ، وبين الأحاديث العامة التي يتخللها شيء من الطرائف التي يمتعنا بها الأستاذ الطناحي ، ثم أتيح لي أن ألتقي به مرة ثانية في القاهرة ؛ حينما ابتعثت للدراسة في مرحلة (الدكتوراه) عام ١٣٩٣هـ وتكررت اللقاءات به في مقر عمله بمعهد المخطوطات ؛ وفي منزله العامربالعباسية ، ولدى أستاذنا العلامة محمود شاكر - رحمه الله - في داره العامرة بمصر الجديدة ؛ حيث كنا نلتقي يوم الجمعة من كل أسبوع في رحاب بيت العلم والكلام .

وهكذا توثقت بيننا الصلة ، وقويت عرى المحبة والصداقة ، وسعدت بقدومه إلى المملكة ؛ للعمل أستاذًا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، وتكررت بيننا اللقاءات الأخوية في مناسبات عديدة ، كان أخرها في « عمان »خلال الشهر الخامس من عام ١٤١٧هـ حين جاء للمشاركة في بعض موضوعات اجتماع وزراء الشئون الاسلامية والأوقاف ، ثم كان كل منا يتلمس أخبار الآخر بين فترة وأخرى عن طريق الهاتف .

ومن خلال هذه المسيرة ، والصحبة الطويلة ، عرفت الطناحي عن كثب ، وتبين لي أنه يتمتع بسجايا خلقية ، وعلمية ؛ قل أن تتوفر أو تجتمع في إنسان .

فمن سجاياه الخلقية ؛ حسن الخلق ، وطيبة القلب ، وصفاء النفس ، ونقاء السريرة ، وحب الناس ؛ وإخلاص المودة ، والتوقير لأهل العلم ، وذلك مع جميع أساتذته ، وبخاصة أستاذه العلامة محمود شاكر - رحمه الله - وعرف عنه : عزة النفس ، والتواضع ولين الجانب ، وطلاقة الوجه ، وكان ذا روح مرحة هاشة باشة ؛ يجمع بين الجد وروح الدعابة ، وجلسته لا تمل في الجانبين ؛ فإذا فاتحته في مسألة علمية تتصل بدائرة اختصاصه أفاض فيها بما يشبع نهمك ، وإذا أردت الطرفة والنكتة سمعت منه ما يدخل في نفسك السرور والبهجة .

أما السجايا العلمية فمن أبرزها ما يأتي :

(١) تعامل مع المخطوطات وعايشها بما يقرب من أربعين عامًا بين متأمل فيها ، ومفهرس لها ، ومحقق لعدد منها ، وجاب أقطارًا عديدة ، شرقًا وغربًا - ليس للنزهة أو الاستجمام ؛ وإنما لكي يكحل عينيه برؤية مخطوطة نفيسة أو نادرة فيما يزور من مكتبات العالم؛ وما ذاك إلا لأنه عشق التراث ، وهام في حبه ، وملك عليه أقطار نفسه ؛ لا يجد أحلى ولا أمتع من أن يعيش بين أكداس المخطوطات ؛ يقلب صفحاتها بعين بصيرة ، وبقلب حان حنو الأم الرؤوم على فلذة كبدها ، وقد عبر عن حبه هذا في مقدمة تحقيقه لكتاب (الشعر) للفارسي ؛ حين قال : (وكان ما كان من أمري مع هذا الكتاب أني نسخته بقلمي ، وجعلته همي وسدمي ، وأطعمته لحمي ، وأسقيته دمي) . (كتاب الشعر ج١ ص١) .

(٢) كان يعطي الكتاب الذي يعمل في تحقيقه ما يحتاجه من العناية والجد والاجتهاد ، والتأني والتريث ، وطول البحث ،

والتثبت والتوثيق، بحيث يخرج مبرّأً من التصحيف والتحريف، وعلى الأسس المعتمدة في تحقيق التراث، وهو يرفض ما يعمد إليه البعض من التعجل في إخراج وتحقيق الكتب التراثية؛ التي ضني بها الأوائل؛ ولا يحبذ التواثب والركض حولها؛ بقصد إحراز السبق أو الكسب المادي، مما يؤدي إلى القصور الكبير في التحقيق، أو خروج العمل مشوهًا بكثرة التصحيف والتحريف، ولابد من إعطاء المخطوطات حظها من النظر والتأمل، وأن يبذل في تحقيقها من الجهد ما يقارب ما يبذل في تصنيفها. (انظر مقدمة كتاب الشعر ج١ ص ب).

(٣) كان منذ اشتغاله بعلم المخطوطات على نهج لاحب مستتب؛ لا يطوي صدره على ما يعرفه من نوادر المخطوطات التي يقف عليها في بعض البلدان؛ التي يزورها. وكثيرًا ما كان يشير على بعض طلبة العلم بما وعاه من ذلك؛ بخلاف ما يصنعه البعض؛ ممن لهم صلة بالمخطوطات؛ حيث يتكتمون على ما يعرفونه منها؛ رغبة منهم في احتكارها، مع أن ذلك قد لا يصح لهم؛ إذ ربما وقف عليها غيرهم؛ممن لا يكتم أمرها، ويحرص على إشاعة العلم «وينطلق في ذلك من رأيه في أن كثيرًا من الذين يكنزون الكتب، ويغمون أمرها على الناس لم يبارك لهم فيها، ولم يتمكنوا من نشرها». (انظر مقدمة تحقيق كتاب الشعر ص: أ).

(٤) الغيرة على التراث الإِسلامي، وعلى لغة القرآن الكريم. والمنافحة عن ذلك كله، ومواجهة من يحاولون تشويه صفائه ونقائه بأفكارهم واتجاهاتهم الهدامة.

(٥) سعة آفاقه ، ودرايته في علوم اللغة العربية وآدابها شعرًا ونثرًا ، وإلى جانب ذلك خبرة فائقة ، واطلاع واسع على تراث الحضارة الإسلامية ، في شتى ميادين العلم والمعرفة .

وقد بدأت عنده رحلة العشق للحرف والكتاب والعلم منذ عهد الصبا ، وكان للبيئة التي نشأ فيها أثر واضح في ذلك ؛ إذ نشأ وفتح عينيه في حي عريق من أحياء القاهرة القديمة (الدرب الأحمر) ذلك الحي الذي يقع على مقربة من الأزهر الشريف ، ودار الكتب المصرية ، وتحف به عدد من المطابع ، ولقد كان من مظاهر اللهو عنده ؛ وهو صبي أن يدور مع أترابه من الصبيان حول تلك المطابع ؛ يقوم بجمع تلك الحروف الطباعية القديمة المستهلكة ؛ التي يلقى بها خارج المطبعة ، ثم يعمد إلى ضم بعضها إلى بعض ؛ ليكون منها اسمه واسم أبيه .

وتوثقت صلته بالمطبعة وبالكتاب حينما عمل - زمن الشباب - مصححًا بمطبعة عيسى البابي الحلبي ؛ وهي من أعرق المطابع بمصر ، وفي هذه المطبعة تعرف على كبار المصححين ؛ ممن كان يعمل في المطابع المشهورة؛ مثل : مطبعة بولاق ، ومطبعة المنار ، والمطبعة المنيرية ، والسلفية ، ولا شك أن هذه الفترة التي عاشها بين جنبات هذه المطبعة العريقة قد اكسبته صلة وثيقة بالكتاب ؛ فهو على نبع ثر من منابعه ؛ وقوى ذلك كثرة تردده في هذه الفترة على الوراقين وباعة الكتب القديمة في منطقة الحسين والأزهر؛ حيث يلتقي طلاب العلم والعلماء وعشاق الكتب ، وأتيح له أن يلتقي بعدد منهم .

وعلى الرغم من حداثة سنه إلا أنه كان يحب أن يجالسهم ، ويتعرف عليهم ، ومن العلماء الذين عرفهم هناك :

الدكتور محمد الفحام؛ شيخ الأزهر، والمشايخ السيد أحمد صقر، وعبد الغني عبد الخالق، وعبد الوهاب عبد اللطيف.

ولعل بداية صلته الواضحة بالمخطوطات كانت في أوائل الستينيات؛ حيث بدأ يشتغل بنسخ المخطوطات بدار الكتب المصرية. ومن هنا بدأ العشق يتنامى، وأتيح للشاب أن يديم النظر في المخطوطات تحت رعاية أهل الخبرة في قاعة المخطوطات بدار الكتب، وفي مقدمتهم عالم المخطوطات ذو الخبرة الفائقة الأستاذ فؤاد السيد. (انظر مقدمة كتابه الكتاب المطبوع بمصر ص٦، ٧).

وازدادت صلته بالمخطوطات؛ حين التحق بالعمل في معهد المخطوطات؛ التابع لجامعة الدول العربية في منتصف الستينيات، وتعرف هناك على واحد من الشخصيات اللامعة التي تتمتع بالخبرة الواسعة في مجال التراث والكتاب مخطوطًا ومطبوعًا؛ وهو الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب - رحمه الله - وقد عمل معه في معهد المخطوطات جنبًا إلى جنب، وأفاد من خبرته ودرايته وعشقه للكتاب.

وبقي في معهد المخطوطات مدة طويلة؛ وبعد أن حصل على درجة (الدكتوراه) بمدة وجيزة تعاقدت معه جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام ١٣٩٩هـ؛ للعمل بها أستاذًا لمادة النحو، وبقي في عمله هذا ما يربو على عشر سنوات، ونال حب وتقدير الجميع، وشارك في هذه الفترة مشاركة فعالة في العمل بمركز إحياء التراث بالجامعة، وأشرف على عدد من الطلاب في مرحلة (الماجستير) و (الدكتوراه).

ثم واصل مسيرته في مجال التدريس الجامعي بعد أن قرر العودة إلى مصر؛ حيث عمل أستاذًا بكلية الآداب في جامعة حلوان، وعمل خبيرًا في مجمع اللغة العربية بمصر.

وكان قد حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية من المعهد الديني بالقاهرة عام ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م، ثم حصل على درجة (الماجستير) و(الدكتوراه) في النحو والصرف من كلية دار العلوم بالقاهرة، وقد لازم أستاذه العلامة محمود محمد شاكر ملازمة تامة، وأفاد كثيرًا من علمه الجم، ونهجه المتميز في خدمة التراث وتحقيقه، والغيرة عليه، والذب عنه.

وقد ترك لنا آثارًا علمية عديدة جلها في مجال التحقيق؛ وهي تشهد بتمكنه ودقته وسعة علمه فيما ألفه أو حققه من كتب مفيدة ونافعة، ويحضرني منها ما يأتي:

(١) تحقيق كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر - لابن الأثير في خمسة أجزاء، وصدر عن مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر عام ١٣٨٣هـ- ١٩٦٣م.

(٢) تحقيق أجزاء من كتاب طبقات الشافعية الكبرى - لابن السبكي بالاشتراك مع الدكتور عبد الفتاح الحلو - رحمه الله - مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة عام ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

(٣) ابن الشجري وآراؤه النحوية، مع تحقيق الجزء الأول من كتاب الأمالي؛ وهو رسالة الدكتوراه بدار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م، وقد صدرت مطبوعة كاملة عن مكتبة الخانجي فيما بعد.

(٤) تحقيق كتاب الشعر، أو شرح الأبيات المشكلة الإِعراب في مجلدين - لأبى علي الفارسي - الناشر مكتبة الخانجي - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

(٥) كتاب الغريبين - غريبي القرآن والحديث - لأبي عبيد الهروي - الجزء الأول صدر عن المجلس الأعلى للشئون الإِسلامية بالقاهرة عام ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م.

(٦) تحقيق كتاب الفصول الخمسون - لابن معطى - مطبعة عيسى الحلبي - القاهرة ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.

(٧) فهارس كتاب الأصول لابن السراج - طبع في القاهرة عام ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

(٨) مدخل إلى تاريخ التراث العربي - مكتبة الخانجي بمصر عام ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٩) منال الطالب في شرح طوال الغرائب - لمجد الدين بن الأثير - نشر في مركز البحث العلمي وإحياء التراث بجامعة أم القرى عام ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

(١٠) الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريف العلوم - مكتبة الخانجي بمصر عام ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م.

(١١) الكتاب المطبوع بمصر في القرن التاسع عشر (تاريخ وتحليل) صدر عن دار الهلال بمصر ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

(١٢) بحث عن التصحيف والتحريف - نشر في مجلة جامعة أم القرى - مركز إحياء التراث.

(١٣) بحث أرجوزة قديمة في النحو لليشكري - منشور ضمن كتاب دراسات عربية ص٥٦٥- طبع عام ١٤٠٣هـ-١٩٨٢م.

(١٤) تحقيق جزء من كتاب طبقات الصوفية للسلمي يتعلق بالنساء العابدات.

وله بحوث ومقالات عديدة نشرت في أشهر المجلات العلمية والأكاديمية، والأدبية، كما أن له مشاركات عديدة في إذاعة المملكة العربية السعودية، ومنها برنامجه حول لغة القرآن الكريم، وأشرف على رسائل عديدة في (الماجستير) و(الدكتوراه) وفهرس مجموعات كبيرة من المخطوطات في أثناء عمله بمعهد المخطوطات.

ولا أملك في نهاية المطاف إلا أن أقول: رحمك الله يا أبا محمد، وأجزل لك الأجر والمثوبة، وقد فقدت ساحة العلم والمعرفة، وتحقيق التراث واحدًا من أبرز رجالاتها خبرة ومعرفة ودراية.

على أن أهل العلم وإن غادروا الحياة الفانية بأجسادهم إلا أنهم يعيشون في قلوب الناس بأخلاقهم وعلمهم وفضلهم، والله ولي التوفيق.

* * *

من أوتاد التراث

الأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي(*)

أ.د. عبد الله يوسف الغنيم

لقد كان بالأمس - كالعهد به- غاية في النشاط والحيوية، والعمل الدؤوب في أروقة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مشاركًا في بحوث اللغة، وسندًا قويًا لدعائمها الراسخة في كيان الأمة وضمير أبنائها، بل حارسًا على ارتقائها ونشرها مع صحب كرام أخلصوا العمل، وبذلوا العطاء في تواصل مثمر، وجهد خلاق خلال مسيرة علمية امتدت منذ أن التحق بكلية دار العلوم- جامعة القاهرة عام ١٩٦٢م، إلى أن أصبح خبيرًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وبمركز بحوث التراث بدار الكتب المصرية، وأستاذًا بجامعة حلوان.

وبين هذا وذاك امتدت رحلة حياة حافلة بالعطاء العلمي والعملي ناسخًا للتراث ومفهرسًا ومحققًا له، وناشرًا لكثير من المخطوطات المشرقية والمغربية، وعونًا وسندًا لكثير من الباحثين الذين نزلوا بمصر في مهمات علمية تتصل بتراثنا العلمي والأدبي بخاصة وباللغة العربية بعامة: لغة القرآن الكريم والحديث الشريف، المنبعين الأصيلين لأحكام شريعتنا الغراء وقيم الإسلام الفضلى، ومثله الكريمة، وقد كان مع المرحومين الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب والدكتور عبد الفتاح الحلو واجهة مشرفة لمعهد المخطوطات العربية في سنوات الستينات والسبعينات من هذا القرن.

تنقل الأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي بين مصر، وتركيا والمغرب الأقصى، والمملكة العربية السعودية، واليمن وكان

(*) جريدة «المدينة المنورة» - السعودية - ١٢ أبريل ١٩٩٩ .

في كل مكان ينزل به فارسًا من فرسان التراث العربي المجيد، ورجلًا من رجالات اللغة المبرزين. يشارك في الندوات، ويسهم بقسط وافر في تحرير الموسوعات اللغوية والعلمية ودوائر المعارف الإسلامية، وكبريات المجلات المتخصصة ولا سيما في الأدب والثقافة والشعر.

وتوافر عطاؤه العلمي فتجاوزت مؤلفاته وإسهاماته المنشورة أكثر من ثلاثين مؤلفًا وإصدارًا علميًا من بينها ما كان تحقيقًا ونشرًا لمؤلفات تعد فى طلائع الكنوز اللغوية التي لم يسبق نشرها أو تعرفها، ومنها ما أصبح لظهوره مكان بارز في المكتبة العربية مثل: طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي المتوفي سنة ٧٧١هـ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير، وكتاب الغريبين غريبى القرآن والحديث لأبى عبيد الهروى المتوفى سنة ٤٠١هـ، وغير ذلك كثير.

ويعد كتابه « مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي » الذي نشره عام ١٩٨٥م شاهدًا على أعمال جيل من الرواد في التراث العربي، فقد ترجم لعدد من رجاله المعاصرين. وسجل الكثير من الملحوظات التي لا يحفل بها مصدر آخر من مصادر تراثنا العربي.

وها هو ذا في « السادس من ذي الحجة ١٤١٩هـ الموافق ٢٣ من شهر مارس ١٩٩٩م » يلبي نداء ربه بالقاهرة راضيًا مرضيًا، فهنيئًا له بما قدم من أعمال نافعة، وبما نال من رضى إخوانه وزملائه العارفين له بعلم وافر وعطاء متصل، وخلق رفيع. فقد كان أستاذًا كريمًا ، وأخًا عزيزًا فقدنا بوفاته وتدًا من أوتاد التراث في وطننا العربي. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

* * *

التـراث هـو الأصـل

أ. د. عبده الراجحي

« هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » تلك قولة قالها المتنبي عن شيخ اللغة الأكبر أبي الفتح عثمان بن جني.. ولا تكاد تنطبق هذه المقولة على أحد منا في زماننا هذا.. كما تنطبق على الطناحي والناس يأخذون مراتبهم بمقاييس زمانهم الذي يعيشون فيه وقد عاش الطناحي معنا.. في زماننا هذا. فكان خارجًا على مقاييسه السائدة، وكل من قرأ له ولم يلتق به ظنه شيخًا طاعنًا في السن، معاصرًا لشيوخنا الكبار شاكر، والسقا، وهارون ومن في الرتبة والميزان.. وزماننا تطبعه خصائص معروفة:

١- التعجل في كل شيء في الطلب، وفي التناول، والركض وراء « الألقاب » العلمية دون أن تنهض على ما ينبغي لها من أسس.

٢- أفضى ذلك إلى انتشار « السطحية » في الدرس والأخذ عن « الصحف » وترديد أسماء الكتب شأن أحمد بن عبد الوهاب الذي وصفه الجاحظ في التربيع والتدوير.

٣- أفرز « الوقت » دعاة للتغريب، ووكلاء « للوافد » وسدنة للغموض، وانتشر معجم «تفجير» اللغة و« جمود » الثابت و« حيوية » المتحول وشهد الوقت صراعًا غير صحي فارتفعت صيحات « الخطابة » من جانب وبرزت نغمة « التعالي من جانب آخر.

وفي هذا المعترك « المكروب » وجهت سهام مسمومة إلى العاملين في التراث، وبخاصة في حقل « التحقيق » وأسهمت

(*) جريدة « المدينة المنورة » - السعودية - ١٢ أبريل ١٩٩٩ .

عناصر «التعجل» و«السطحية» في هذا الحقل في تزايد حملة الهجوم بوقود سريع الفعل قوي التأثير.

في هذا المناخ وقف الطناحي رجلًا «وحده» وظن كثيرون- كما قلنا- أنه ينتمي إلى زمان آخر غير زماننا وبخاصة إلى النصف الأول من القرن الميلادي. وهو زمن يصلح فيه أن نسميه «زمن من أزمان الإتقان».

أدرك الطناحي منذ البدء أن العلم لا يدرك إلا بصحبة شيخ فقيه في اللغة له «مرجع بشري» جوهري لمن يريد أن يظل في هذا الحقل.

وقد بقي الطناحي على لزوم شيخنا محمود شاكر حتى صارت «صحبته» له مثلًا فريدًا يبعث في زماننا منهج علمائنا القدماء انغمس الطناحي في نصوص التراث وامتزج بها امتزاجًا عجيبًا حتى إنه لا يكاد يتنفس غير هوائها.. وقد استقر عنده- ابتداءً أن الأمر لا «يعطى فيه باليد» وإنما تشحذ له الهمة، وتستنفر له العزيمة.. قال يومًا عن العروض في تقديمه لفهرسه ودرسه لكتاب أبي هلال «ديوان المعاني»: «العروض علم شأنه شأن سائر العلوم لابد أن يؤخذ له أخذه ويتلقى بالجد والصرامة وليس العروض بأشق من علم مثل الصرف أو القراءات- رواية ودراية- أو أصول الفقه.. فما كانت صعوبة مثل هذه العلوم صارفة بعض خلق الله عن اتقانها وبلوغ الغاية فيها، ورحم الله المشايخ الكبار الذين أدركناهم وقبسنا منهم شيئًا: محمد علي النجار وسيدنا الشيخ عامر السيد عثمان، وعلي حسب الله ومحمد أبو زهرة وعبد السلام هارون... ولكنها عزائم الرجال وصلاح الأزمان والناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم».

حين تقدم الطناحي إلى الترقية إلى مرتبة الأستاذ، كان من حسن طالعي أن كنت أحد الفاحصين لإنتاجه وكان يشيع بين

« متشدقي » زماننا أن « تحقيق النصوص » ليس عملًا علميًا بما يفتقده من إثارة « المشكلات » ومنهج « التصنيف » و« التحليل » و« الإضافة».. وبما راج في « السوق » من الكتب المحققة يغلب عليها التكرار والتسطيح والآلية.

على أني حين بدأت قراءة أعماله التي تقدم بها، وكنت قرأت له الكثير من قبل، أيقنت أن إطار الدرجات العلمية الرسمية هو الذي قلب الحقائق، وأدركت أنني « التلميذ » وأنه هو « الأستاذ»... ولم يكن ذلك عن تواضع.. وإنما لأني أشعر شعورًا قويًا أني أدين لهذا الرجل بفضل كثير، ذلك أنه واحد من الذين يذكروننا- بعد غفلة- أن الخير معقود في هذه الأمة، وأنه مهما يكثر الغثاء فإن « النافع » موجود باق على أن « الأهم » لواحد مثلي يدعو من زمن إلى أن نضرب بجذورنا في تراثنا وإلى أن نعيش في الوقت نفسه- عصرنا ونتحاور معه ونفيد منه، إن الأمر ليس من اليسير على ما ينبغي ، وإنه يطلب هممًا عالية وعزائم قوية وأعمال الطناحي أصبحت تؤكد لي يومًا بعد يوم أنه عند احتدام الأمر فإن التراث يظل دائمًا هو « الأصل » وتلك مسألة: يصلح فيها مقال، وقد ينهض بها كتاب... فإذا وضعنا الطناحي في هذا الإطار وفي سياق « الوقت » أدركنا قولة المتنبي في ابن جني : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس »..

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن علوم العربية وعنا جميعًا خير الجزاء.

* * *

مهـرجان الحـب(*)

د. عثمان الصيني

حين تمثل الدكتور عبده الراجحي بكلام المتنبي عن ابن جني في قوله: «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس» لم يكن بعيدًا عن الحقيقة وهو يستحضر السنوات الأخيرة التي عاشها الدكتور الطناحي بعد أن غادر جامعة أم القرى محفوفًا بقلوب محبيه ودعوات تلاميذه، ثم عرض له ما عرض من أمور ليست خافية، ولكن من يقرأ في هذا الملحق كل هذه الكتابات يدرك أيضًا أن كثيرًا من الناس عرفوا قدره، وهذه الكتابات يجمعها حب العلم وأهله ويؤلف بينها أمران: أولهما تقدير لنتاج علمي حافل لعالم محقق مدقق نذر حياته للتراث وجعله «همه وسدمه، وأطعمه لحمه وأسقاه دمه» على ما وصف به نفسه، والآخر خلق الرجل وطيب نفسه وحبه لطلاب العلم والسعي في حاجاتهم، وهما أمران ما اجتمعا في امرئ إلا بلغ بهما الغاية عند الناس في الدنيا، ونرجو أن يبلغ مثلها في الدار الآخرة.

وعندما فكرت صحيفة «المدينة» عبر ملحق التراث في إفراد هذا العدد عن الدكتور الطناحي من اليوم الأول لوفاته كان الهدف تحقيق أمور منها: التأكيد على استمرار نهج الأفذاذ من الرجال في التحقيق وحب التراث ذلك النهج الذي رسم معالمه أحمد ومحمد شاكر وعبد السلام هارون والسيد صقر وغيرهم في التعامل مع التراث ونصوصه بصورة حية وفاعلة، بعيدًا عن التعليقات الباردة والتحقيقات الآلية المتعجلة، والتأكيد على خلق

(*) جريدة «المدينة المنورة» – السعودية – ١٢ أبريل ١٩٩٩ .

العالم وطالب العلم في التفاني والتضحية وخدمة العلم وأهله دون سابق عهد ومعرفة أو رغبة في كسب مادي أو معنوي، وأخيرًا إبراز صورة من وفاء العلماء وطلاب العلم لإخوانهم وشيوخهم، وهو ما عبر عنه أحد العلماء الأفاضل في مصر أمس الأول عندما قال لأحد زملاء الطناحي بعد أن بلغه نبأ هذا العدد : كنت أغبط الطناحي في حياته على معرفته بالمخطوطات، وأغبطه اليوم على هذا الحب والتقدير، ولوددت لو كنت مكانه.

رحم الله علماءنا وأساتذتنا وأثابهم لقاء ما قدموا، ونسأله تعالى أن يجعل كتاباتهم من العلم الذي ينتفع به، وأن يجعل تلاميذهم من الولد الصالح الذي يدعو لهم.

* * *

مَحْمُودُ سَافَرتَ فَطَالَ السَّفَر(*)

أ. د. علي بن سلطان الحكمي

كانت الساعة قد تخطت الحادية عشرة من يوم الجمعة ؛ السادس عشر من شهر ذي الحجة الحالي ؛ حين اتصل بي الأستاذ الفاضل الدكتور عبد الله عبد الرحيم عُسَيْلانِ ، مهنئًا بالعيد ، ومذكرًا بما كتب عن فقيد الإسلام والمسلمين العالم العلامة الشيخ عمر محمد فلاتة ؛ شيخ الحديث بالمسجد النبوي ؛ منذ أكثر من ثلاثين عامًا ؛ الذين وافاه الأجل المحتوم في يوم الأربعاء ؛ التاسع والعشرين من شهر ذي القعدة المنقضي ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته جنات النعيم .

وقد كان للدكتور عبد الله عسيلان كلمة طيبة في رثاء الفقيد؛ أبان فيها جلال الرزء ومبلغ الحزن على فقده ، وعما خلفه من الفراغ في الساحة العلمية قد لا يتهيأ من يسد مسده أو يكون قريبًا منه .

ناهيك بعد عن السيرة الكريمة التي كان يتحلى بها ، وعن سداد الرأي ، وصدق التوجيه ؛ فيما يبديه من رأى سديد، وما يسديه من توجيه رشيد ، وعن الجوانب الإِنسانية في حياته التي قل أن يعرفها إلا خاصته ؛ فقد كان - يرحمه الله - أبا المساكين ، وكهف المعوزين المحتاجين ؛ لكأنه مقصود « الخنساء » في قولها :

« مأوى الأرامل والأيتام إن سغبوا »

(*) جريدة « البلاد » - السعودية - ١٥ أبريل ١٩٩٩ .

وما كاد الحديث ينتهي عن الشيخ عمر محمد فلاتة - رحمه الله - حتى أخذ بي الدكتور العسيلان في حديث مماثل وخبر غير سار، مازال إلى الآن حديث المجالس، وما برحت الهواتف تسار أو تجاهر به هنا وهناك.

هذا حال الدنيا؛ فقد نعى إلي في خاتمة الحديث الدكتور محمود محمد الطّناحِيّ - رحمه الله - أحد أساتذة البحث والتحقيق. وأعلام التراث المعدودين؛ الذين وقفوا على رصيد طيب من نفائسه، بعد فترة الدرس الطويل، والخبرة الطويلة، والرحلة الشاقة في المراجعة والتحقيق؛ امتدت بامتداد حياته، وانتهت بانتهائها.

رحمك الله أبا محمد وأروى؛ فقد عرفته أول ما عرفته سنة ١٣٩٢هـ يوم قدم إلينا بمعية بعثة معهد المخطوطات، التابع لجامعة الدول العربية؛ وكنت يومها مدرسًا في المعهد العلمي بالمدينة النبوية، وكان لهذه البعثة استقبال كريم، وإحتفاء بها يفوق التصور والوصف من لدن مدير المعهد العلمي يومئذ الأستاذ حميد الحازمي - أمد الله في عمره وأكثر من أمثاله- ؛ فقد هيأ لهم مقرًا مناسبًا في المعهد العلمي مدة إقامة البعثة في المدينة النبوية.

وكانت لقاءاتنا متكررة؛ في المعهد العلمي تارة، وفي منزل الدكتور عبد الله عسيلان تارة، وفي منزل مدير المعهد الأستاذ حميد الحازمي تارة أخرى، وقد شد انتباهي كثيرًا الدكتور الطّناحِيّ ببيانه الجزل إذا تكلم في شأن التراث ومصادره ومشاق العمل فيه ومتعة الحياة العلمية على موائده، كما كان لطيف العبارة، جيد الإشارة، حاضر النكتة والفكاهة، وكنت أجد متعة في الاستماع إلى حديثه والاستفادة منه. كان - رحمه الله -

نقي الصوت، واثقًا من نفسه، متئدًا في كلامه، لا تختلط الجمل في كلامه، ولا تضيع الفائدة من بيانه، وربما نثر في هذا البيان الجزل شيئًا من العامية المصرية المعروفة؛ فتكسب حديثه فكاهة وحسنًا؛ لا يملهما سامعه؛ فكيف بمن رآه وسمعه ؟!

ثم انقطع الاتصال به فترة تقترب من خمس سنوات؛ بل ست سنوات؛ فقد قدر له أن يأتي إلى مكة المكرمة؛ للعمل في مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي؛ في الفترة التي كان مدير المركز فيها الدكتور ناصر الرشيد، ثم صار بعد أستاذًا في كلية اللغة العربية والدراسات العليا بجامعة أم القرى.

وقد قدر لي الاتصال به فترات منقطعة عام ١٣٩٨هـ؛ فأفدت منه توجيهًا سديدًا في بحثي يومئذ؛ فقد كانت بين يدي مصورات عن كتاب «الجمل في النحو» لأبي بكر أحمد بن شقير النحوي البغدادي تحمل بين طياتها إيهامًا وشكا في نسبتها إليه؛ بسبب التنازع بينه وبين «الخليل بن أحمد» فقد ورد ذكر «الخليل بن أحمد» على طرة ثلاث نسخ من الكتاب منفردًا، وتصريح بالقول في مستهل الكتاب، في النسخ الثلاث، وورد اسم «الخليل بن أحمد» على طرَّة النسخة الرابعة ومعه «ابن شقير» ذكر بصيغة الشك لا اليقين، وقد شاء الله أن تكون صيغة الشك هذه هي اليقين في نسبة الكتاب إلى «ابن شقير».

وكنت توجهت في نسبة الكتاب إلى «ابن شقير» معتمدًا على ما ورد في بعض المصادر، وعلى عبارات وأقوال في الكتاب نفسه، وكان المصدر الذي وثق لي بنسبة الكتاب إلى «ابن شقير» توثيقًا لا تسنح فيه شبه في حكم المجهول لدي؛ حتى التقيت بالدكتور محمود الطناحي؛ فذكرت المصدر، ومن عزا

إليه من العلماء ، وأبنت عن حاجتي الملحة إلى الوقوف على هذا الكتاب ؛ الموسوم عند « السيوطي » بطبقات ابن مسعد ، وكأنما كشفت له الغطاء يوم ذكرت له طرفًا من اسم الكتاب ، واسم المؤلف ؛ فقد أفادني وقتها عن وجود الكتاب في مكتبة الأحقاف بتريم ؛ إحدى مدن حضرموت ، وأنه توجد له صورة (فلمية) بمعهد المخطوطات في القاهرة .

وقال لي : إن الدكتور عبد الفتاح الحلو يوشك أن ينتهي من تحقيقه . يومها سارعت إلى الكتابة إلى الأستاذ الدكتور أحمد بن حافظ الحكمي الذي كان يومئذ مقيمًا في القاهرة ؛ لتحضير رسالة (الدكتوراه) في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، وقد أبنت له عن حاجتي الملحة لهذا الكتاب ، وسرعان ما أرسل إلي مصورة ورقية عن النسخة (الفلمية) الموجودة في معهد المخطوطات ، وشفعها بملزمة من تحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو- رحمه الله- لهذا الكتاب تشتمل على المقدمة ، وجزء من الكتاب .

ويومئذ انحلّت العقدة ، وتوجه لي العمل في توثيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه أبي بكر أحمد بن شقير . فجزى الله الدكتور الطناحي خير الجزاء في دار الآخرة ، وغفر له وأفسح له في قبره ، وأسكنه فسيح جنته ، وجزى الله أخي الأستاذ الدكتور أحمد بن حافظ الحكمي خير الجزاء ؛ فقد كان لي مددًا مُسعفًا طيلة إقامته في القاهرة .

ولما انتقلت إلى المدينة النبوية بقي حبلُ الوصال بيني وبين الدكتور الطناحي موصولًا ، إما بالمهاتفة ، وإما بالمراسلة البريدية ،

وآخر ما وصلني منه تعليقه على رسالة لأحد تلاميذه يشفع له في طلب يتعلق بكتاب الجمل السابق.

رحم الله أبا محمد الدكتور محمود محمد الطناحي، وأحسن الله عزاء أهله وذويه وألهمهم الصبر والسلوان، و﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾.

* * *

فاجأنا موتك أبا محمد فكان رزءًا(*)

أ.د. عوض بن حمد القوزي

وقع مني الخبر موقع الصاعقة، إذ لم أعلم به إلا بعد أيام من وقوعه، ولئن لم يكن للمسلم إلا التسليم بقضاء الله وقدره، إلا أن النفس البشرية تضعف عند بعض الأمور، يصيبها نوع من عدم التوازن عندما تفاجأ على غرة، أو توضع في موقع لم تحسب له حسابًا. نعم! لقد التائت علي الكلمات وأنا أتلقى نبأ وفاة أخينا الخلوق الأديب محمود محمد الطناحي، وما كنت أعلم كيف كان تعاملي مع صديقي الذي نقل إلي الخبر، معزيًا في صديق «يقسم جسمًا في جسوم كثيرة» فالفقيد صديقنا جميعًا، وكل يقدم عزاءه للآخر فيه، وكلانا يقدر وقع الفاجعة فلا تثريب إذن إن تحجرت الكلمات، بل ولا تثريب إن قصر بعضنا في حق الآخر من واجب التحية، ومجاملة السؤال على الحال.

ثم بعد مهاتفة بعض أفراد أسرة الفقيد، وتقديم العزاء لمست ثبات الجأش، والصبر على ألم الفجيعة، واحتساب الثواب على الله، رجعت عندئذ واسترجعت، ودعوت الله للفقيد بالرحمة جزاء ما قدم من خدمة للعربية وتراثها، وما ترك من معروف طوق به أعناق زملائه وطلابه، وأخذت ألقي نظرة على مكتبتي الصغيرة الحافظة لذكرى أمثاله من العاملين الباحثين، المذكرة بمن غادرنا إلى دار القرار، ممن قضى نحبه، وممن ينتظر. فقلت مالي وللكتب، فالرجل مكثر في التأليف والتحقيق والفهرسة، وقد يند عني ذكر شيء من جهوده، فأُرمي بالجحود أو التقصير، ونزعت ورقة

(*) جريدة «المدينة المنورة» - السعودية - ١٢ أبريل ١٩٩٩ .

لأسطر من الذاكرة مواقف تختزنها يرجع أقدمها إلى عام ١٣٩٨هـ عندما قابلت «الطناحي» رحمه الله في معهد المخطوطات بالقاهرة، وقد تعلقت بأحد أعمال أبي البقاء العكبري مؤملًا أن يكون رفيق رحلتي العلمية في الحصول على الماجستير.

وبالرغم من أن اللقاء كان لأول وهلة، إلا أن الرجل بدا وكأنه إنما كان موصى بتيسير مهمتي، والعمل على تذليل كل صعوبة تعترضني، أو أنه موكل بخدمتي وتوجيهي إلى أقرب الطرق لإنجاز طلبي، حيث أخذ بيدي إلى مكاتب كثيرة، وصحبني لمقابلة كثير من مسؤولي المعهد ولفت نظري إلى اقتناء أعداد مجلة المعهد التي كانت قد صدرت حتى ذلك العام، وما تركني حتى أبرمنا موعدًا لزيارة أستاذنا عبد السلام هارون، يرحمه الله ليمدنا بما لديه من رسائل تتصل بأبي البقاء العكبري.

كان الطناحي رحمه الله وهو يقدمني إلى المرحوم - بإذن الله- عبد السلام هارون كأنما يقدم باحثًا متمكنًا له شهرته وتجربته، وما كنت ذلك اليوم غير طالب يضع رجله على أولى عتبات البحث العلمي، ولم يخض غماره بعد، وكانا- رحمهما الله- جميعًا يشدان على يدي، ويشجعاني، بل ولعلهما دفعاني إلى التراث، فعفوًا إن قصرت، ولكثرة تردد «الطناحي» على مكتبة أستاذه «عبد السلام هارون» بدا لي وكأنه يعلم كل ما فيها من رسائل، وما حوت من كتب ومخطوطات، ومجلات.

أخذت بعد ذلك علاقتنا تتوثق، واتصالاتنا تتابع ونلقى بعضنا كلما سنحت الفرصة بذلك، لاسيما حينما عمل المرحوم بجامعة أم القرى، وعندما تكررت زوراته لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

ثم لما كنت أعمل على كتاب أبي علي الفارسي «التعليقة على كتاب سيبويه» اعلمني بأنه يعمل على كتابه الآخر «الإيضاح الشعري» وقد وجد في نفسه من أحد الزملاء لما سبقه إلى نشره.

الذكريات كثيرة مع المرحوم، ولعل لقائي له مرة في القاهرة وكنت صنعت فهرسًا للأمالي الشجرية في طبعتها المصورة القديمة غير المفهرسة، ومثله فهرسًا لكتاب شرح المفصل لابن يعيش، فأرشدني إلى أن الأمالي ستخرج إلى الأسواق مفهرسة من صنيعه هو، وأن فهارس شرح المفصل تباع في مكتبة المتنبي بشارع الجمهورية بالقاهرة وهي من إصدارات مكتبة المتنبي، فأنقذني من تورط في النشر وإضاعة الجهد والوقت والمال.

لقد جمعتنا مناسبات علمية كثيرة لا يكون حديثنا فيها إلا عن العلم والعلماء، وكان آخر لقاء رأيته فيه- رحمه الله- في مبنى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة في رجب الحرام من عام ١٤١٩هـ حين كانت ندوة التراث المخطوط تعقد في مصاحبة انعقاد المؤتمر الخامس لجمعية لسان العرب.

لقد كان من عادته أن يضمني إلى صدره وكأني أخوه الأصغر، وما أنا إلا كذلك، لأني أشعر بحدبه علي ورعايته لأعمالي، وتقويمه لجهودي، وتشجيعه لكل خطوة أبلغه بعزمي على القيام بها.

أما إن أردت تعداد مزاياه، وذكر جميل صفاته فكثير، ولعل أهم ما يميزها حبه للعلم وأهله من عرف منهم ومن لم يعرف وتواضعه الجم للكبير والصغير ووفاؤه لشيوخه وأصدقائه، وغيرته

على التراث، واصطباره على التعامل معه، ودقته في تناول قضاياه ومسائله.

عفا الله عنك أبا محمد، وأسبغ عليك رحمته، وأسكنك فسيح جنته، إنه خير مسؤول، وأنت- إن شاء الله- برحمته جدير. ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾

* * *

« الطناحي » ... عاشق التراث »(*)

أ.د عياد بن عيد الثُّبيتي

فجع المشتغلون بالتراث بنبأ وفاة عاشق التراث الأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي ؛ الذي وافاه الأجل؛ قبل بضعة أيام ؛ تاركًا ذكرًا عطرًا لدى جميع من عرفه عن قرب ، أو قرأ تحقيقاته الجياد ، ومن أهمها : « الفصول الخمسون » لابن معطي ، و« النهاية في غريب الحديث » لابن الأثير ، وطبقات الشافعية للسبكي ، وشاركه في تحقيقه صديقه الدكتور عبد الفتاح الحلو - رحمه الله -، و« أمالي ابن الشجري » و« كتاب الشعر » لأبي علي الفارسي ، أو قرأ شيئًا من مؤلفاته ؛ ومن أهمها : « مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي » ، أو اطلع على شيء من فهارسه ؛ ومن أهمها : « فهارس ديوان المعاني » ، أو وقف على شيء من مقالاته الماتعة في عدد من الصحف والمجلات ؛ كمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، والمجمع العلمي بدمشق ، ومجلة معهد المخطوطات ، ومجلة الهلال .. وغيرها .

عرفت الدكتور الطناحي منذ نيِّف وعشرين سنة ، في معهد المخطوطات ، ولقيت من عنايته وطيب معشره ما ملأ قلبي تقديرًا له ، وإعجابًا به ، ثم يسر الله لي حضور مناقشة رسالته للدكتوراه في كلية دار العلوم ؛ فزادت صلتي به وثوقًا وإعجابي به رسوخًا .

ثم سعدنا بوجوده في مكة المكرمة ؛ فشرفت بتعيينه مشرفًا على رسالتي للدكتوراه إذ حالت أعباء أستاذي الدكتور راشد

(*) جريدة « البلاد » - السعودية - ١٥ أبريل ١٩٩٩ .

الإِدارية دون إتمام الإِشراف ؛ فكان الدكتور الطناحي نموذجًا مشرفًا ؛ كان أستاذًا جادًا في شؤون العلم ؛ لا يترخص في رسومه ، ولا يتوانى في حمل أبنائه على الجدّ ، مشجعًا على المثابرة على التحصيل ، مقومًا ما يلزم تقويمه في أناةٍ متبصرة وأبوة حانية ؛ يزين ذلك خلق فاضل يجمع إلى جلال العلم خفة الروح ، وطيب المعشر .

لقد كان - رحمه الله - طيلة بقائه بمكة المكرمة واسطة عقد نفر من أساتذتنا وزملائنا في أمسيات ماتعات نتجاذب فيها أطراف الحديث في منزل أحدنا في ألفة عامرة بالصدق ، غامرة بالبهجة ، مرفوعة فيها الكلفة ؛ تجمع علمًا وأخبارًا وطرائف ؛ حتى إذا عزم على العودة إلى القاهرة ، ثم أمضى ما عزم عليه . وقد حاولنا فرادى ومجتمعين ثنيه عنه ؛فلم نستطع - شعرنا بفقده ، وظل الود عامرًا ، والحنين إلى تلك الليالي البهيجة موصولًا .

يشدك في شخصيته الدكتور الطناحي - رحمه الله - خلال عدة ؛ فمن طيب معشر ، إلى حسن تأتٍ للأمور ، إلى معرفة عميقة بكتب التراث ، إلى بيان آسر ، غير أن الوفاء يظلُّ أعلى خلاله ؛ وهو وفاء رحب المناحي ؛ فهو وفاء لتراث الأمة الخالد ؛ لم يشغله عنه شاغل طيلة حياته ؛ كان يملأ قلوب طلابه حبًا له ورغبة في التعمق في مفاتشة خزائنه في قراءات جادة واعية تتسع آفاقها لتشمل التراث في عمومه ، من غير تقوقع على فن واحد لا يتعداه نظر الباحث ، ووفاءٌ - لا نظير له - لشيوخه سدنة التراث الكبار : العلامة الشيخ محمود محمد شاكر ، والمحقق الجليل عبد السلام هارون - رحمهما الله ، وغيرهما من الشيوخ الذين لقَّن عنهم حب التراث ، والتلذذ بمعايشته ؛ وهو وفاءٌ ملك

عليه أقطار نفسه: تلمسه في كتاباته، وفي محاضراته، وفي أحاديثه. ونعم الخلة الوفاء في زمن النكران الذي نعيشه.

رحم الله شيخنا الدكتور الطناحي، وأسكنه فسيح جناته، وألهم أسرته وذويه ومحبيه الصبر و ﴿**إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾.

* * *

الأمة التي خلت(*)

د. فتحي علي الدين

« فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالإياب المسافر »

ويشاء ربك. يا أبا محمد أن يأتيني نبأ الفاجعة على صعيد عرفات الطهور وأنا في ملابس الإحرام، فكأن الله قد شاء أن أنبأ برحيلك المفاجئ مرتديًا أنا ما يشبه كفن الميت، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

لك الأمر يا من إليك يرجع الأمر كله، منذ أقل من سنتين ينعي الناعي شيخ العربية أبا فهر. كما كنت تحب أن تلقبه، فاسترجعنا وقلنا: لله ما أعطى ولله ما أخذ، والعمر وديعة بين يدي الخالق، يسترده متى شاء، وإن لنا في الطناحي خير خلف لخير سلف، ولن تعدم العربية من يعيش حياته كلها دريئة لها، حاميًا حماها، لا تلين له قناة، تسلم له اللغة قيادها ويذل له صعبها، ويملك ناصيتها، فيوظف ذلك كله في الذب عنها، وقد جمع أبو محمد- بتوفيق الله له، وبشغفه بتراث الأمة- تلك الأدوات جميعها، وجمع فأوعى، وعي الحاذق الماهر.

ولازلت أذكر نص كلام الراحل الكريم في اعتراضه على ما لا يتحقق مع البيان العربي، ولغته الشريفة، وها هي ذي بعض العبارات التي كان - رحمه الله- يمقت سماعها مثل: هذان وجهان لعملة واحدة - لعب فلان دورًا في قضية كذا - وضع العربة أمام الحصان - لا تضع البيض كله في سلة واحدة. وكان

(*) جريدة « المدينة المنورة » - السعودية - ١٢ أبريل ١٩٩٩ .

يقول: إن لنا في كلام القدماء غناء عن هذه العبارات المرذولة التي دخلت العربية عن طريق الترجمة عن اللغات الأخرى، وإن كتب التراث خالية من هذا الكلام الممقوت.

عليك رحمة الله، وجزيت غفرانه. جزاء صولاتك وجولاتك دفاعًا عن لغة القرآن التي كنت - وما أقسى « كنت » - عن جدارة جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب ماذا أقول والذكريات لا تنسى، والأيام تطوى، والعمر يفنى، لكني أقول:

إنى لم أرزأ بعد أبي- رحمه الله- بمثلك قط فقد كنت بعضي، وكنت بعضك فإذا أنا بكيتك فإنما يبكي بعضي على بعضي معي فأعجب لمن جمع بين الموت والحياة هذا يدب على ظهرها وذاك مدرج في بطنها.

يا أبا محمد، لقد تركت برحيلك المفاجئ نفوسًا ملتاعة. وقلوبًا محزونة لو كانت تستطيع فداءك ما ترددت ساعة من نهار فطب نفسًا أخي فمحبوك كثر وعارفو فضلك تلهج ألسنتهم بالدعاء لك:

« يودون لو خاطوا عليك جلودهم
وما تمنع الموت النفوس الشحائح »

وبعد: ففي النفس كلمة أقولها لمن قلبوا لك ظهر المجنّ، وقابلوا صنيعك معهم وحبك إياهم بالجحد والشنآن، ونالك منهم الصد والخذلان، وها هي ذي رسالتك الأخيرة إليّ تقول فيها: يا أخي العزيز لا تقلق عليّ ولا تنزعج فأنا بخير والحمد لله، والمرء حيث يرضى ويقنع، وأنا لم أفاجأ كثيرًا بصورة الإعراض والتنكر للجميل التي لقيتها من الناس هنا في مصر. وأظنك لازلت تذكر

حين قلت لي إن مكانك رحب واسع في كل الجامعات المصرية . وكنت أرد عليك: «لا يا أبا الفتوح، لا تسرف في حسن الظن، فإنهم يقولون هنا ما لا يفعلون هناك، وإن الجيل الذي كان يعرفني قد مضى إما بالموت!!! وإما في زوايا النسيان وعدم القدرة على اتخاذ القرار.. ومع كل فإنا في خير حال والحمد لله، وقراءة الكتاب، والتضلع بعلوم الأوائل هو شغلي الشاغل الآن، وقد اكتشفت أني كنت في جهل عظيم جدًا، وقد فاتنا أشياء كثيرة يا شيخ فتحي، وأضعنا أوقاتًا كثيرة والله المستعان».

والرسالة طويلة يحكى فيها - رحمه الله- ما لقيه. حين أراد أن يعيّن في كليته التي تخرج منها- من حرب ضروس شرسة للحيلولة بينه وبين ما أراد. وكان أحد محبيه من حسني الظن بالناس هو الذي أغراه بذلك، وكان معنا في جامعة أم القرى معارًا من كليتهما التي تخرجا منها.. وهو زميل عزيز فاضل من أهل العلم الواسع والخلق الحسن، وقد بذل جل زملاء الفقيد حينئذ جهدهم المشكور، وسعيهم الدؤوب حتى صدر القرار من الكلية، ولكن يشاء ربك شيئًا، فقد تصدى للقرار عند مدير الجامعة نفر قليل وأشعلوها حربًا هوجاء وهم بحمد الله- لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة، وللطناحي على بعضهم أيادٍ، فلله الأمر من قبل ومن بعد، فكان لهم ما أرادوا، غفر الله لهم، وربك يفعل ما يشاء ويختار. تغمدك الله – أخي - بواسع رحمته وإنا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

قلم انكسر، وشمس آذنت بمغيب !![*]

د. فتحى علي الدين

أجل؛ ما أقسى الموت !!! يصيب الأحبة فيرحلون سراعًا؛ واحدًا بعد آخر، ولقد رزئت في سنوات أربع برحيل أعلام كانت لي بهم صلة وثيقة؛ أذكر منهم: الشيخ محمد الغزالي، والأستاذ خالد محمد خالد، وشيخ العربية محمود محمد شاكر، وها أنذا تأتيني قاصمة الظهر برحيل أبي محمد محمود الطناحي؛ وهو في قمة عطائه، وأوج حيويته؛ فلله الأمر من قبل ومن بعد! وإنا لله وإنا إليه راجعون، وقلت في نفسي: يجب أن أتوقع الموت في كل وقت؛ فكل من عليها فان؛ وتذكرت قول طفيل الغنوي:

«غنينا بخير حقبة ثم جلحت
علينا التي كل الأنام تصيب»

وقول الآخر:

«ولا خير فيمن لا يوطن نفسه
على نائبات الدهر حين تنوب»

والموت يصرع البشر في كل لحظة ولمحة؛ لا يكاد الإنسان يحصي عدد من رحل ممن يعرف وممن لا يعرف.

أما رحيل الطناحي فشيء آخر؛ فقد ظل - رحمه الله يضيء الدنيا بعلمه وفضله زهاء خمسين عامًا.

ولقد عرفته منذ أيام الطلب قبل نيف وأربعين سنة، وكنت حينئذ بالصف الثالث الابتدائي في معهد القاهرة؛ التابع للأزهر

(*) جريدة «البلاد» - السعودية - ١٥ أبريل ١٩٩٩.

الشريف ؛ وكان « أبو محمد » زميلًا لابن خال لي بالصف الثالث الثانوي ، وكانت الدراسة في المرحلة التي قبل المرحلة الجامعية في ذلك العهد أربع سنوات ابتدائية ، ثم خمس سنوات ثانوية .

ومنذ ذلك العهد كان « أبو محمد » شغوفًا بالعلم ، قريبًا من أعيان العربية وأشياخها ذوي العلم الغزير ، والأدب الرفيع ؛ فقد أخبرني – رحمه الله – أنه كان في بواكير شبابه يذهب إلى دار الكتب المصرية في مبناها العتيق قرب الأزهر ، وهناك التقى بالمبرزين من المحققين ، وسادة الأدب واللغة ، وحافظي تراث العربية الأصيل ، ونبعها الثر ، ذكر لي منهم : الشيخ محمد علي النجار ، ومحمد محي الدين عبد الحميد ، ومحمد عبد الخالق عضيمة ، وعبد السلام محمد هارون ، ومحمد علي البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

ويشاء ربك أن يلج الرجل العربية من أوسع أبوابها ، وأصفى ينابيعها ؛ فقد رأى فيه هؤلاء الأعلام ما لم يروه في زملائه من علامات النبوغ ، ودلائل النجابة ، وحسن الخط ؛ ومن ثم طلبوا منه أن ينسخ لهم ما أرادوا من أمهات الكتب ؛ إذ لم تكن آلات تصوير المخطوطات ميسورة كما هو الحال الآن .

وكان هذا الأمر فاتحة خير على « أبي محمد » فقد توثقت صلته بالنبع الروي ؛ وهو بعد لما يشغل بما كان يموج موجًا في ذلك العهد من أفكار وثقافات ؛ فاستقر حب العربية وعلومها في وجدانه .

« أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا »

ويشاء ربك أيضًا أن يعمل الطناحي في هذه الأثناء بالتصحيح في مطبعة محمد عيسى الحلبي ؛ وكان الرجل معنيًا أيما عناية بنشر أمهات كتب التراث ، وبدأت الشجرة تؤتي أكلها في ذلك العهد المبكر .

ويقوم - جزاه الله حسن الثواب - بتحقيق « النهاية في غريب الحديث والأثر » لأبي السعادات المبارك ابن محمد ؛ المعروف بابن الأثير الجزري (المتوفي سنة ست وستمائة) و« النهاية » سفر عظيم في بابه ؛ وهو أحد الأصول الرئيسية الأربعة التي أدار عليها ابن منظور معجمه الواسع « لسان العرب » .

ثم يلج الطناحي دار محمود شاكر ، شيخ العربية ، وتلك مرحلة النضج التي أفضت بأبي محمد إلى تحقيق الموسوعات ؛ فقد قام هو وأخونا الراحل الكريم عبد الفتاح الحلو - رحمهما الله - بتحقيق « طبقات الشافعية الكبرى » للسبكي ؛ وقد أخرجاه على مثال لم يسبقا إليه ، ولم يطمع أحد بعدهما في الوصول إليه ، وتنفد الطبعة الأولى من « طبقات الشافعية » ، ويحتشد « أبو محمد » لإِخراج الطبعة الثانية من الكتاب بإضافات وفهارس أوسع مما كانت عليه الطبعة الأولى ، ويسعى الطناحي لهذا سعى الجواد ؛ ففي تلك الأثناء يلم المرض بشريكه في الكتاب ، وصديق عمره عبد الفتاح الحلو (رحمه الله) ويتم « أبو محمد » العمل كله ، وتأبى نفسه الأبية ، وأريحيته الروية إلا أن يكون اسم عبد الفتاح الحلو بجوار اسمه ، كما كان في الطبعة الأولى ، وقد أخبرني بذلك في أثناء عمله في جامعة أم القرى (رحمه الله) .

وتتوالى التحقيقات التي منها « الفصول الخمسون » لابن معط ، ثم دراسة « الأمالي لابن الشجري » مع تحقيق الجزء الأول

من الكتاب ؛ وكانت تلك رسالة (الدكتوراه) التي حصل عليها من دار العلوم.

ويستمر العطاء ويفيض الغيث، ويسابق الطناحي الزمن في البحث والتنقيب، ويتجه بعزم لا يعرف الوهن، ونفس لا تعرف الدعة إلى علوم العربية، وكان ابن بجدتها، وحادي عيسها؛ فيخرج علينا بتحقيق «الشعر» لأبي علي الفارسي، ويقدم له بدراسة؛ يعز نظيرها، ويندر مثالها؛ حتى لقد قال أبو فهر محمود شاكر حين قرأ العمل الرائع: لقد قرأت «كتاب الشعر» مخطوطًا، أما بعد تحقيق الطناحي له فكأني ما قرأته قبل!

ومن أجل أعمال «أبي محمد» أن الله قد أنعم عليه وعلينا بأن أتم تحقيق «الأمالي» لابن الشجري.

ويا أبا محمد: لقد سبقتنا إلى جوار ربك راضيًا مرضيًا؛ لم يعرف قلبك الحقد، ولا ألفت نفسك الشنآن، أما شانئوك بغير جريرة منك؛ فهم - بحمد الله - قلة؛ لم يبلغ أحد منهم معشار ما بلغت ولا نصيفه، ولن يبلغه، ولازلت أذكر مقولة بعضهم عنك: إنه لا يرى من نحاة العصر إلا محمد محيي الدين عبد الحميد، ومحمد عبد الخالق عضيمة !!! وأي بأس في هذا؛ فهل صنع أحد من شانئيك مثل ما صنعا؛ فـ «حسبنا الله ونعم الوكيل»، و«إنا لله وإنا إليه راجعون».

* * *

وداعاً محمود الطناحى ....
فارس المخطوطات

د / فراج عطا سالم

تلقينا بنفوس راضية بقضاء الله وقدره وقلوب صابرة محتسبة وعيون باكية ذلك النبأ المفجع الحزين نبأ موت الأخ والصديق العزيز الأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحى رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته .

عرفته أخاً وصديقاً وفياً مخلصاً طيب المعشر حلو اللسان لاتمل عشرته إن عاشرته ولا تخسر وقتك إن قضيته معه ولا تفارق البسمة شفتيك إن رافقته .

تؤنسك أحاديثه وتنفرج أساريرك لنكته وقفشاته ويزول عنك الهم إذا أسررت إليه بما فى نفسك من شجون ومتاعب .

كانت السنين معه شهوراً وكانت الشهور معه أياماً لاتدرى كيف يمر الوقت معه وكيف يطوى الليل سرابيله عنده .

تتركه بلا وداع تصحبك قفشاته ونكاته بعد السلام عليه إلى بيتك . قضينا معاً أحلى الأيام وأصفى الليالى فى ربوع مكة المكرمة فى جامعة أم القرى ، فى شوارع مكة وأسواقها . فى بيتينا كل أسبوع وفى أروقة المسجد الحرام وعلى سطحه خاصة صلاة التراويح فى رمضان .

إنه محمود الطناحى الضاحك الباكى . إذا ضحك ضحك كطفل برىء وإذا بكى بكى كما لم تبكى الخنساء . أحب الناس فأحبه كل الناس . نشأ الطناحى رحمه الله تعالى فى قاع المدينة ؛

مدينة المعز لدين الله الفاطمى فى حى شعبى هو حى المغربلين فى وسط القاهرة بجوار حى الأزهر وحى الحسين وقصر الشوق وسوق السلاح فأخذ منها صفاته وطباعه . صفات ابن البلد الطيب المتواضع . نشأ فقيراً عصامياً بنى نفسه بنفسه وجاهد وتعب وكد واجتهد حتى افاء الله عليه من كرمه وجوده ولكن لم ينس تلك الأيام بل يذكرها بالحمد والشكر الجزيلين لربه وخالقه فى تواضع جم وتفكه جميل .

عرفته رحمه الله منذ ر بع قرن تقريباً حينما انتدبت من دار الكتب المصرية لفهرسة المخطوطات بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية في الفترة المسائية حيث كان مشرفاً على العمل هو وصنوه الأخ الأستاذ الدكتور عبد الفتاح الحلو عليه رحمة الله ودامت الصلة بعد ذلك حتى التقيت به فى مركز البحث العلمى وإحياء التراث الاسلامى بجامعة أم القرى «الملك عبد العزيز سابقًا» وتوطدت صلتى به واتسعت الى الصلات العائلية الحميمة وظلت هذه الصلة طوال إقامته معنا فى مكة المكرمة لمدة عشر سنوات كاملة حتى عاد الى القاهرة واستقر بها وعمل استاذاً بجامعة القاهرة فرع الفيوم . وفى تلك الأثناء تركت أنا العمل بجامعة أم القرى بمكة المكرمة للعمل بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية وتجددت الصلة حينما جاء للعمل أستاذا لمدة نصف عام دراسى معاراً لجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض وعادت الذكريات ومضت تلك المدة بسرعة البرق وظل يزورنا فى بيتنا بالرياض بصفة مستمرة سعدنا فيها معه ثم عاد بعدها إلى القاهرة ليلتحق بجامعة حلوان .

وهكذا مضت أيامنا معه وأيامه معنا فى غدوها ورواحها تبعدنا وتقربنا ولكن الأرواح والقلوب لم تنقطع عن بعضها البعض حتى جاءنا الخبر الحزين بوفاته المفاجئة عليه رحمة الله .

كان عليه رحمة الله عالماً مثابراً صبوراً لايمل من البحث والتنقيب يعرف قيمة الوقت ويحرص عليه كأنه يسابق الزمن ففى العشر سنوات التى أمضاها فى مكة أشرف على رسائل عديدة تخرج أصحابها على يديه ويتولون الآن أعلى المناصب ويحملون مشاعل ورايات العلم والثقافة فى جامعة أم القرى منهم الأستاذ الدكتور عياد الثبيتى والدكتور سعد الغامدى والدكتور سليمان العايد وغيرهم كثيرين هذا علاوة على كثير من الكتب التى حققها فى تلك الفترة .

كان صاحب ذاكرة متقدة وذكاء حاد وعقل واع حصيف . كما كان مجاملاً يقدر الآخرين حق قدرهم لا بعلو منازلهم وأقدراهم ولكن لآدميتهم قبل كل شىء .

تعددت نشاطاته واهتماماته فقد سافر رحمه الله ضمن بعثات معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية إلى اليمن وتركيا والمغرب لتصوير المخطوطات الموجودة بها وبعد عودته الى القاهرة تعددت نشاطاته واشتراكه فى كثير من الندوات والمؤتمرات مثل مؤتمر مؤسسة الفرقان للتراث والثقافة الذى عقد فى القاهرة ومؤتمر جامعة المنيا ومؤتمر مركز جمعة الماجد للتراث والثقافة بدبى ومؤتمر معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية وألقى فيها محاضرات فى الفهرسة والتحقيق والتوثيق .

كما شارك بآرائه وخبرته فى تطوير دار الكتب المصرية ومركز إحياء التراث القومى ونشره بها كما شارك بكتاباته الشهرية فى مجلة الهلال القاهرية. وبالجملة فقد إستثمر الطناحى رحمه الله تعالى وقته فى الفن والعلم الذى عشقه وأحبه منذ

صغره وهو المخطوطات وفهرستها وتصنيفها وتحقيقها وسبر غورها .

رحم الله فقيدنا الغالى ، واسكنه فسيح جناته .

* * *

محمود الطناحى
عاشق تحقيق التراث(*)

أ. د. محمد إبراهيم الفيومي

نعى إلى الأمة العربية والإسلامية الناعى وفاة أخ صديق فقدته الساحة الثقافية، العربية والإسلامية هو الراحل العالم المحقق الأستاذ الدكتور محمود الطناحى، كان رحمه الله آية فى صفاء الطبع وكرم الخلق والوفاء النادر، بل كان صورة حية للسجية العربية، والنفس المصرية الكريمة تُعرب عنها طبيعته الممراحة الوادعة، يحدثك فتأنس بأحاديثه وتستطيب فكاهاته ونوادره، درس رحمه الله بالأزهر وحصل على الثانوية الأزهرية ثم التحق بدار العلوم وحصل على الماجستير والدكتوراه من كلية دار العلوم، ثم عمل بكلية الآداب جامعة حلوان، وله من المؤلفات ما يربو على الثلاثين كتابا منها: مدخل إلى تاريخ نشر التراث، والتصحيف والتحريف، وطبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى (عشرة مجلدات)، عبد السلام هارون «عالم وتاريخ»، و«الغريبين»: غريبى القرآن والحديث، كتاب الفرق، منال الطالب فى شرح طوال الغرائب، النهاية فى غريب الحديث والأثر.

عرفته رحمه الله وجعل الجنة مثواه فى أشرف رحلة، رحلة الحج، وصادقته فى أقدس بقعة فى مكة المكرمة، وزاملته فى غدونا حين نغدو لأداء مناسك الحج وشعائره، وفى رواحنا حين نروح إلى منزلنا، وكان إذا جر الحديث بيننا ذيله ملأ المجلس بحسن حديثه، وطلاقة بيانه وترى فيه عالمًا متمكنًا، ملك ناصية العربية، أدبا

(*) جريدة «الأهرام» - مصر - ٣١ مارس ١٩٩٩.

وشعرا ونقدًا، وكان لا يعوزه الاستشهاد، ولا تغيب عنه البديهة، إن طلب استشهادًا فى موطنه من شعر أو نثر، وكأنك مع راوية من رواة العرب القدامى، تتجاوب معه ملكته الحافظة فى كل مقام، إن أراد رواية طرفة أو نادرة أو مستملحًا من القول مستظرفًا، وأما عن تمكنه من غريب اللغة، وأوابدها وشواردها فحدث عنه- رحمه الله- ولا حرج، فقد أتقن فن القول، وبرز فيه فكان له باع واسع فى تصاريف اللغة- قياسًا وسماعًا- ظهرت قدرته اللغوية فى بحث ألقاه فى احتفالية الأستاذ الشاعر: على الجارم وهو يعقب على جهوده اللغوية.

ومن دقته فى اللغة وتحقيقه للسماعى والقياسى فى اللغة كان ولوجه باب تحقيق التراث العربى، فلقد برع فيه وأجاد فنه وأفاد اللسان العربى بما حققه من التراث، ولقد حصل هذه المهارة من أستاذه شيخ المحققين المرحوم: محمود شاكر، وكانت بصماته بادية عليه وعلى أعماله، ولعل كتابه «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى» مع «محاضرة التصحيف والتحريف» من أثر تلمذته للأستاذ الكبير المحقق محمود شاكر.

ولقد كان تحقيقه لكتاب «طبقات الشافعية الكبرى» لابن السبكى، وشاركه فيه المرحوم الدكتور عبد الفتاح الحلو، عملا علميًا دقيقًا، وفضلا عن تحقيقه الذى استغرق عشرة مجلدات أفرد له جزءًا خاصًا لفهرسته، فيسرا الرجوع إليه والاستفادة منه، ولقد حدثنى فى آخر لقاء بينى وبينه فى افتتاح مؤتمر مجمع اللغة العربية أن الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر طلب منه الإشراف على مركز تحقيق التراث الذى يتبع جامعة الأزهر لتنظيمه وإدارته.

وكان رحمه الله سعيدًا بهذا الطلب حفيًا برجوعه إلى جامعة الأزهر.. .

وبعد.. فلقد انطوت بموت الطناحى صفحة من ألمع صفحات الأدب وتحقيق التراث- رحمه الله- فلقد أدى رسالته وأدى واجبه نحو لغته، ونحو قومه أجمل أداء فهو اليوم ينام مطمئنًا إلى جوار من أحبه من أصفيائه البررة ممن أنجبتهم العربية.

* * *

وسَقَطَ فَـارس(*)

د. محمد أحمد فايد هيكل

الصراع الذي بيننا- نحن المحافظين المعتدلين - وبين أوشاب الحداثيّين والعلمانيين والماركسيين ليس مجرد صراع يدور فوق الأوراق، ويتخذ ساحاته في الصحف والمجلات أو الكتب، ويصنع سلاحه من المداد الذي يذهب جزافًا، كما تتبدد الألفاظ في الهواء، ولكنه صراع على التمثيل الحضاري لأمتنا العربية والإسلامية؛ فمعسكرنا ينطلق في دعوته للنهوض الحضاري على المحور الإسلامي، المتمثل في الكتاب العزيز وسنة النبي (صلوات الله وسلامه عليه) وعلى محور الثقافة العربية الأصيلة المتمثل في مؤلفات علمائنا القدماء في علوم القرآن والتفسير والفقه، ومناهجهم المنفردة في رواية الحديث ودرايته، إلى جانب علوم اللغة والبلاغة والأدب والنقد الأدبي.

ومعسكرهم ينطلق من التصورات المنقولة عن الفكر الغربي خاصة؛ تلك التصورات التي صدرت عن روح الشك واللبس والتشاؤم، ورفض الوضوح والاستقرار، وما اقترن بها من روح التمرد، ونزعة الهدم، والتغيير لمجرد التغيير؛ اعتقادًا منهم بأن لا شيء ثابت؛ حتى الدين والاعتقاد.

وفي هذا الصراع تظهر «قدرات الفرسان»، وتتنوع «مهارات الأبطال» ويحرص كل مجاهد صادق على ألا «يؤتي» الإسلام من قبله؛ فهو يقوم على ثغره بكل ما وهبه الله من قدرات

(*) جريدة «البلاد» - السعودية - ١٥ أبريل ١٩٩٩ .

التفكير والتحليل والبيان والإقناع والتأثير. وقد أبرز الاحتدام أسماء أبطال أبلوا في الله بلاء حسنًا، و﴿صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر﴾.

وقد سقط بالأمس فارس صادق من هؤلاء الفرسان؛ كان يحوط التراث بقلبه وعقله، ويدفع عنه الغوائل بقلمه وبيانه، حتى أسلم الراية؛ وهو متقدم في المواجهة غير مفرط أو ناكل عن الجهاد؛ ذلكم هو الدكتور محمود الطناحي.

اللهم فاقبله عندك في الجنة مع المجاهدين الصادقين.

* * *

وداعـًا

العالم المحقق الدكتور محمود الطناحى (*)

أ. د. محمد أبو الأنوار

محمود الطناحى ظاهرة علمية فى حياتنا، وهو كذلك ظاهرة إنسانية فى شتى أنماط سلوكه، وعلاقاته وأخلاقه ومبادئه.

كان يتمتع بقدر هائل من سعة المعرفة وبداهة الحضور، ودقة التأمل. وبراعة التحليل والاستنتاج، ولا يسع الباحث الدارس ، بل لا يسع كبار علماء عصره إلا أن يعترفوا بسعة فضله ورحابة تفوقه، وفى نتاجه العلمى وإسهاماته المتعددة فى المحافل العلمية ما يؤكد ذلك ويتجاوزه.

لقد كان محمود الطناحى متميز الخطوط فقطع جسر الحياة فى ثبات وتقدم، وغاب عنا وقت شموخ الرجاء فى الانتفاع به فى مواقع شتى تناسب نبوغه وتفوقه وغزارة عطائه.

لقد كان محمود الطناحى سراجًا كبير الشعلة، وكل سراج تكبر شعلته يفرغ زيته وشيكا. ولكن من آيات خلود العلماء أن شعلتهم لا تنطفئ بل تزداد توهجًا مع مرور الأزمان.

وقد كان عرس مأتمه آية من آيات توهج شعلته حيث ازدحم عدد هائل من صفوة العلماء والباحثين فى السرادق المقام له، وغمرتهم روح محمود الطناحى فى حياته بشدة الحب له، وبريق البهجة التى كان يملأ بها كل مكان يكون فيه، فكان مأتمه

(*) جريدة « الأهرام » - مصر - ١٦ أبريل ١٩٩٩.

تمثيلًا صادقًا لمجالسه التى كان يعطرها بفيض البهجة النفيسة ومسرة الروح الطهور المشعة بنفحات العطاء التى ينفرد بها.

إن جمهورًا واسع المدى- من العلماء والمثقفين- داخل مصر وخارجها على امتداد ساحة العالمين العربى والإسلامى يحس عمق الفاجعة برحيله والأسى بفقده، ولكن هؤلاء جميعًا سوف ينتصرون أكثر ويجدون أكثر فى دفع رسالته العلمية فى تأصيل التراث، والانتصار له بالأصالة والعمق والبصر الرشيد، لا سيما وأن كثرة من تلاميذه ومريديه يملأون مصر والعالم العربى وغيرهما.

رحم الله محمود الطناحى، وزاد النفع بعلمه، وعمق الانتصار لغاياته العليا النبيلة التى يمثلها، تحيا وتنهض وتنهض الأمم فى حاضرها ومستقبلها، ونفع الله بأولاده من بعده ويسر لهم سبيل النهوض بجوانب من رسالته الجليلة.

* * *

لمحات إنسانية(*)

أ.د. محمد جبر أبو سعده

رحم الله الأخ الصديق والجار اللصيق الدكتور محمود محمد الطناحي، وفسح له في قبره، وجعله روضة من رياض الجنة، وأجزل مثوبته، وأنزله منازل الأبرار وألحقنا به فى الصالحين بمنه وكرمه إن شاء الله.

لقد عرفت أخي محمود منذ نحو ربع قرن، حين لقيته بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة، مع قرينه وصديقه المغفور لهما بإذن الله- الدكتور محمد مرسى الخولي، والدكتور عبد الفتاح الحلو، وحدث عن علمهما وفضلهما ما شئت، لكن الطناحي كان شيئًا آخر، لقد أسرني يومئذ بروحه الطيبة، ووده الصادق وأسرني بفضله وعمله، وتشميره في تلبية رغبتي، وقضاء ما قصدته من أجله ثم شاء الله أن يجمع بيننا ويوثق عرى مودتنا، حين التقينا في أكرم دار، وأشرف رحاب، رحاب بيت الله العتيق، للعمل معًا في جامعة أم القرى بمكة المكرمة حيث امتدت صحبتنا فيها أربع سنوات، توجت باتفاق شريف بيننا أن تجمعنا دار واحدة في القاهرة العامرة، وبفضل من الله وعونه أنجزنا هذا المشروع المبارك، وأصبح مستقرًا لنا جميعًا.

فلما كانت عودته النهائية من أم القرى إلى القاهرة منذ عشر سنوات، أصبحنا جارين لصيقين، تضمنا داره الكائنة في

(*) جريدة «المدينة المنورة» - السعودية - ١٢ أبريل ١٩٩٩ .

شارع بشار بن برد بمدينة نصروهكذا صار لقاؤنا يتجدد كل يوم، ويتجدد معه الود الصافي، والحب النقي، والإخاء في الله.

إن الجانب العلمي والفكري في شخصية محمود الطناحي يعرفه أكثر الناس الذين التقوه من العلماء وطلاب العلم، وهم جمع كبير يكاد يصعب حصرهم، وكل الذين رثوه وبكوه نوهوا بفقده عالماً من الأفذاذ، وعلمًا من الأعلام، وبخاصة في مضمار التراث العربي الإسلامي، وتحقيقه، وإحيائه بنشره، وتيسيره لأهل العربية وقد صدقوا في ذلك كله وبروا ولا ريب.أما الذي أراه مجالًا خاصًا بي في هذه المناسبة، فهو الجانب الإنساني الذي عايشته، ولمسته لمسًا مباشرًا وأدركت منه ما كان أمرًا طبيعيًا وما كان منه على سبيل التكلف والاقتضاء من التصرفات اليومية وقد قيل قديمًا: «المرء بأصغريه قلبه ولسانه».

فأما الطناحي فقد كان - رحمه الله- ذا قلب كبير وسع بصفائه ونقائه جميع من عرفهم، سواء اتفقوا وإياه في الرأي والاتجاه أو اختلفوا. هذا القلب النابض بالمودة، المفعم بالحب للناس، هو الذي طبعه بطابع المرح والدعابة، في غير ابتذال أو تفريط في وقار العلماء وفضلهم، ومن هنا كان مجلسه عامرًا بالنوادر الطريفة، والشوارد اللطيفة، ولا يكاد يشبع من صحبته أحباؤه وجلساؤه، وهو في تلك الخصوصية قد خالف أكثر المشتغلين بتحقيق التراث الذين طبع الجد والصرامة محياهم!

لقد كان أكثر ما يدخل البهجة على نفسه- ولا يكاد أحدنا يراه إلا مبتهجًا- أن يقع في أثناء بحثه وتنقيبه في بطون الكتب على بيت من الشعر غريب، أو نص من القول فريد، لم يتفق له من قبل، أو شيء من التصحيف أو التحريف الذي كثيرًا ما يقع

فيه نساخ المخطوطات فيبادر بتلقائية عفوية- وهو يحمل ذلك الصيد الثمين- ليطلعني عليه، وأشاركه سعادته الغامرة بما عثر عليه وكان- طيب الله ثراه - أشد ميلًا إلى التخفيف عن الناس، وعلى الأخص طلاب العلم منهم، فكان نهجه الكريم معهم- سواء في الفيوم أو في حلوان- التيسير في أمر الكتب- فلا يحملهم من أعباء ثمنها شيئًا، بل يحمل هو الكتاب من مكتبته الخاصة، ويطلب إليهم تصوير القدر الذي يقرره عليهم أو يقتضيه المنهج الدراسي، وفوق ذلك يستقبل بعض طلاب الدراسات العليا في بيته، ويتيح لهم الاطلاع في مكتبه على ما يريدون، ويشرح لهم ما غمض عليهم من النصوص، وهذا هو نهج السلف الصالح من علماء الأمة مع طلاب العلم فيما نعلم، والله أعلم.

وقد أخبرني نجله «محمد»- جعله الله خير خلف لخير سلف- أن الأسرة الكريمة قد قررت السير على هذا النهج الخير، أي ستمكن الطلاب الذين تتلمذوا له من القراءة والاطلاع في المكتبة الطناحية، كما كان يفعل الدكتور محمود قبل رحيله.

وكان- برد الله مضجعه- عاشقًا لفن الأداء الراقي، وبخاصة من قراء القرآن الكريم، وبوجه أخص من الشيخ مصطفى اسماعيل- الذي كتب عنه في مجلة الهلال المصرية- وحين يصادف صوته في إذاعة القرآن الكريم يطلبني بالهاتف آمرًا إياي بفتح الراديو، والاستماع إلى الصوت الندى الجميل صوت مصطفى اسماعيل. وكذلك كان الشأن حين يستمع إلى محمد عبد الوهاب أو أم كلثوم في بعض القصائد من شعر شوقي أو حافظ أو عزيز أباظة أو علي محمود طه أو محمود حسن اسماعيل وغيرهم. كان الدكتور الطناحي كريم النفس، مبسوط

اليد، ينفق مما رزقه الله كيف يشاء، ولا يخاف من ذي العرش إقلالًا ولا ينبغي تفصيل القول في هذا الأمر، ولكني أسأل الله العلي القدير أن يتقبل عنه إحسانه وإنفاقه في سبيل الخير، ووجوه المنفعة المختلفة، وأن يجعل ذلك في ميزان حسناته، ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ وما أعلمه هو أن قلبه كان بإذن الله سليمًا.

أما لسانه، فحدث عن العفاف والصيانة، وعدم الخوض في أعراض الناس، والحديث الشيق، والمنطق الرائق، الذي يجذب الناس إلى مجلسه، حدث عن ذلك كله ولا حرج وأذكر جيدًا أننا كنا نختلف في الحكم على تصرفات بعض القوم من زملائنا إبان فترة العمل في أم القرى، فكان يتصدى للدفاع عنهم، ويقول: يكفي هذا البعض أنه لا يخوض في أعراض الناس، ولا يتناول الغائبين بسوء، وهي شهادة حق من رجل ألزم نفسه ولسانه ألا يقع في مثل ذلك.

رحم الله أخي « محمود الطناحي » فقد كان مصابي فيه فادحًا، وكانت خسارتي بفقده ثقيلة ضخمة، ولكنا نثوب إلى الله ونتوب، ولا نقول إلا ما يرضيه جل وعلا، فإنا لفراقك يا محمود لمحزونون، و﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾.

* * *



محمود الطناحى
مرابطًا في ثغور العربية

د . محمد سليم العوّا

ذكرت حين علمت بفقد العروبة والإسلام للأخ العزيز العلامة الدكتور محمود محمد الطناحى - رحمه الله تعالى - أننا فقدنا قبله بقليل، شيخه وشيخنا وشيخ العربية العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر - رحمه الله - وفقدنا بينهما أستاذة الأجيال، الصابرة المحتسبة، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) .

وقبل أولئك الثلاثة فقدنا في عام واحد الأستاذ محمد الغزالى ، والأستاذ خالد محمد خالد ، والشيخ القابض على دينه ، المنافح عن مكانة هذا الدين ، وعن رفعة المعهد العظيم الذي بقي يعلم الناس أصوله وفروعه لأكثر من ألف سنة ، الشيخ جاد الحق علي جاد الحق .

وذكرت حين شرعت في إملاء هذه السطور أننا فقدنا داعية العصر وواعظ العرب محمد متولي الشعراوي .. ثم لم نلبث إلا قليلا حتى فقدنا الأستاذ محمد المجذوب أحد نوابغ علماء الشام ، ثم الظاهرتين الفريدتين ؛ العلامة الشيخ على الطنطاوي ، اللغوي الفقيه القاضي المحدث الواعظ ، وآخر فقهاء الأحناف الأثبات في المشرق العربي ، شيخنا ، الجامع بين العلم الشرعي والقانوني واللغوي ، الشاعر الكاتب الخطيب العلامة الدكتور مصطفى أحمد الزرقا .. رحمهم الله أجمعين .

وحين وردت أسماء هؤلاء الأعلام على خاطري وأنا أملي هذه الكلمة، ذكرت قول تلميذ الشافعي رضي الله عنه -- هو إما المزني صاحب المختصر، أو الربيع المرادي، كاتب الرسالة بخطِّه بعد وفاة إمامه --: «كان الشافعى كالشمس للدنيا، والعافية للناس، فانظر هل لهذين من عِوَض؟ أو عنهما من غناء؟؟!»

وقلت حينئذٍ لنفسي: كم شمسًا فقدنا، وكم عافية حرمنا، في هذه السنين الثلاث؟ وهل يأبى هذا القرن الميلادي أن ينصرم قبل أن تخرم المنايا حيواتِ شموسه التي أنارته، وكواكبه التي أضاءت لياليه، وورثة العلم النبوي الذين بلغوه دون غلو أو تفريط لأجيال بعد أجيال من أبنائه وبناته؟

الطناحي حارس العربية:

وحين التقينا لتأبين فقيد العروبة والإِسلام محمود محمد الطناحي، في رحاب معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، الذي خدمه محمود الطناحي أكثر من ثلاث عشرة سنة، تحدث عدد من أحبَّائه وإخوانه، حديثًا يليق به، وبمكانه من العلم، وأثره فيه، وبوقع فراقه في قلوب العلماء. وشغلني وأنا أعدُّ نفسي لذلك اللقاء، الذي كان ليلة من أعظم ليالي الوفاء العربي، أن أتعرف على القضية التي وهب الطناحي، رحمه الله، نفسه لها، ووقف حياته عليها، ومنحها عرائس أفكاره وحليَّ كلماته، وجلاها بذلك، في أتم صورةٍ وأبهاها، للناظرين والباحثين.

رأيت محمود الطناحي رحمه الله، عاش أكثر قليلًا من ستين سنة، منغمسًا في بحر الحياة الثقافية العربية، وسابحًا في محيط الفكر العربي وقد ماج كلاهما - في عمره القصير الغزير العطاء - بآلاف الأفكار والأحداث التي أدلى الطناحي في كثير

منها بدلوه، فكان عادلًا لا يجور، ومنصفًا لا يحيف، وكان ميزان هذه العدالة، ومعيار ذلك الإنصاف، يتمثل في عوده الدائب إلى «قضية اللغة العربية وحراستها والذود عن مواقعها والرباط في ثغورها»، إذ هي عنده مرآة الحضارة وسبيل تجديدها.

وأكثر ما يقف الباحث على هذا الجانب من عطاء محمود الطناحي، برّد الله مضجعه، في مقالاته التي نشرها في الصحف السيارة والمجلات الثقافية والأدبية. وقد زادت هذه المقالات على مائة وعشرين مقالة، منها أكثر من أربعين نشرتها مجلة الهلال المصرية وحدها، كان آخرها مقالته عن علي الجارم لغويًا نحويًا، التي نشرت في عدد مايو ١٩٩٩م من مجلة الهلال[1]. ثم في مقدمات كتبه المحققة والمؤلفة على السواء.

وقد كنت رجوت في كلمتي التي نشرتها الأهرام[*] رثاء للطناحي- رحمه الله- أن تجمع هذه المقالات في كتاب الهلال، ولو في أعداد متوالية، وكنت أسعد الناس حين صدرت المجموعة الأولى من هذه المقالات، تضم ثلاث عشرة مقالة، في عدد مايو ١٩٩٩م مع مقدمة للأستاذ الجليل العلامة الدكتور محمود على مكي.

وسوف أحاول أن أقف القارئ النابه، من خلال النظر في هذه المجموعة من المقالات، وحدها، على حقيقة ما قلت من أنَّ حراسة اللغة العربية الشريفة، والرباط في ثغورها كان ميزان العدالة الذي أمسك به الطناحي، ومصدر الإنصاف الذي حلَّى

(١) نشرت الهلال بعد كتابة هذا الكلام مقالة وجدت بعد وفاة الطناحى، كأنها وصية إلى زملائه أساتذة الجامعات فى شأن تقويم الرسائل الجامعية ومناقشتها. انظر عدد يونيو ١٩٩٩ من مجلة الهلال.

(*) جريدة «الأهرام» - مصر - ٢٧ مارس ١٩٩٩.

كلامه كله، وجمله، وكَمّله. وأنت واجد - إن شاء الله - صدق ذلك إذا نظرت في هذا المجموع المنشور من مقالاته، وجود اليقين الذي لا يشوبه شك ولا يزعزعه ريب.

محمود الطناحي ومحمود شاكر

جعل صانع المجموع المذكور من مقالات الطناحي أوّل مقالةٍ فيه هي مقالته: «محمود محمد شاكر ومنهجه في تحقيق التراث». وحسنًا صنع. فإن الطناحي وشاكر كالأصل وفرعه، أو كالابن وأبيه، إذ عظم الشبه حتى أظهر النسب لمن لم يعرفه. وإذ يتحدث الطناحي عن شيخه - برَّد الله مضجعيهما ونوَّر ضريحيهما - مقارنًا بينه وبين أعلام التحقيق في عصره يقول: «وإن اتفق أعلام هذه المرحلة فيما ذكرت، فإن أبا فهر محمود محمد شاكر يقف وحده من بينهم، وينفصل عنهم بأمرين، الأوَّل: أنه صاحب قضية، صحبته وأرقته منذ النأنأة - أي منذ صباه ونشأته الأولى - وهي قضية أمته العربية، وما يراد لها من كيدٍ في لغتها وشعرها وتراثها كلّه، وقد أبان عن هذه القضية في كل ما كتب، وبخاصةٍ في كتابيه: أباطيل وأسمار، ورسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ثم نثرها فيما دقَّ وجلَّ من كتاباته، وما برح يعتادها في مجالسه ومحاوراته، يهمس بها حينًا، ويصرخ بها أخرى، لا تفرحه موافقة الموافق ولا تحزنه مخالفة المخالف.

ولقد حكمت هذه القضية أعمال أبي فهرٍ كلها، وهي التي وجهته إلى تحقيق التراث، فكان عمله في نشر النصوص جزءًا من جهاده في حراسة العربية، والذود عنها، سواءً فيما نشره هو أم فيما حثَّ الناس على نشره وأعانهم عليه... لقد ألقى هذا الرجل الدنيا كلها خلف ظهره ودَبْر أذنيه واستوى عنده سوادها

وبياضها، وخلا إلى الكتاب العربي في فنونه المختلفة - والمكتبة العربية عند أبي فهرٍ كتاب واحد - فهو يقرأ «صحيح البخاري» كما يقرأ «الأغاني»، ويقرأ «كتاب سيبويه» قراءته لمواقف عضد الدين الإِيجي». (ص١٦، ١٧ من المجموع المشار إليه).

ولعمري إن هذه كانت قضية الطناحي نفسه، وكان منهج شيخه هو منهجه حرفًا بحرف، وانظر إن شئت إلى قوله في المقالة نفسها: «واللغة هي الباب الأول في ثقافات الأمم، وإهمالها أو التفريط فيها، أو السخرية منها، هدم لتاريخ الأمم، ومحوٌ لها من الوجود» (ص٢١ من المصدر نفسه).

أليس هذا دليلًا على ما قلت لك من أن الطناحي كان يعيش هذه اللغة، وبها، ولها.

الشيخ الشعراوي صنعته الملكة اللغوية والثقافة اللغوية

ويكتب الطناحي عن الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمهما الله - فيقول: إنه «ظاهرة غريبة عجيبة في زماننا، وإن كان له أشباه ونظائر فيما سلف لنا من أيام، ولكن أكثر الناس لا يعلمون... [وقد] سلك في وعظه دربًا غير مطروق، وورد ماءً مهجورًا، وانتجع كلأً غير مرعيٍّ... فإن الشيخ يمثل عندي أنموذجًا ينبغي أن نجلوه للناس، بعد أن ندل على جذوره وأصوله، وإن في ذلك كله بعثًا لتاريخ عزيز غاب عنا، أو أريد له أن يغيب.

وإذا كان لكل عالم أو مفكر مفتاح، فإن مفتاح شخصية هذا الشيخ هو اللغة، واللّغة هي الباب الأول في ثقافات الأمم، وإهمالها أو التفريط فيها، أو السخرية منها هدم لتاريخ الأمم،

ومحو لها من الوجود». (ص٣٤، ٣٥ من المصدر السابق).
فانظر - رعاك الله - كيف كرر الطناحي - جزاه الله عن هذه اللغة الشريفة خيرًا - عبارته نفسها التي نقلتها لك آنفًا، لم يخرم منها حرفًا، وبين مقالته هذه ومقالته عن شيخه محمود شاكر زمن طويل، وما ذلك إلا لأن قضية اللغة تستولي على قلبه كله، وتملك لسانه وقلمه، حتى يتكرر الكلام بلفظه، لا يزيد ولا ينقص، في الإِشادة بها، والتنبيه على خطرها، والتحذير من التهاون في أمرها.

والشيخ الشعراوي يعني عناية بالغة - كما يقول الطناحي- رحمه الله - باللغة في مستوياتها الأربعة: أصواتًا وصرفًا ونحوًا ودلالةً، وفي طريق هذه المستويات الأربعة صال الشيخ وجال، ومما يحسب في موازينه، ويسجل له: هذه الجسارة والجرأة في معالجة تلك القضايا، وجمهوره الأعظم من عامة الناس، ولكن الشيخ يرى أن هذا ضروري لتفسير كلام الله، والكشف عن مراده. وقد استطاع أن يأخذ العامة وأوساط الناس إلى قضايا التذوق والبلاغة واللغة والأدب، وخاض بهم لجج هذه العلوم، واستكثر من شواهد الشعر والأمثال وكلام الفصحاء.. إن الشيخ الشعراوي قد نجح فيما عجز عنه غيره، فإننا على كثرة ما كتبنا عن الإِعجاز القرآني، وعبقرية اللغة العربية، لم نستطع أن ننزل بهذه القضايا إلى عامة الناس، وظلّت دائرة بيننا، يدخل اللاحق على السابق، وكأننا نحدث بعضنا بعضًا».

وبدأة ذي بدء، فإن الشيخ يصرح بضرورة استقبال القرآن بملكة اللغة ليخرج المستشرقين وأمثالهم من أعاجم العرب الذين كتبوا في الدراسات القرآنية وهم بمعزل عن فقه اللغة، ثم يقول إن

هؤلاء أخذوا اللغة صناعة ولم يأخذوها ملكة » . (ص٣٥، ٣٦ من المصدر نفسه) .

الطناحي وقضية غريب اللغة

وحين يذكر الطناحي عناية الشيخ الشعراوي رحمه الله بالكلام العالي الفصيح الذي يسميه العلماء غريب اللغة ، يقول : « إن هذا العلم - علم الغريب - مما أهمله الناس في زماننا هذا إهمالًا يوشك أن يكون تامًا ، فقد هجره الناس هجرًا طويلًا بل إن بعضهم إذا صادف شيئًا منه في نص قديم غيره إلى مرادف له مما يسهل على الناس ... وقد أنكر بعضهم استعمال كلمة « لغوب » لعدم جريانها على الألسنة هذه الأيام ، مع مجيئها في القرآن العزيز قال تعالى : ﴿ **وما مسنا من لغوب** ﴾ [ق : ٣٨] .

وهكذا ينكر كثير من الكتاب الآن ألفاظ وتراكيب ضاربة في الفصاحة بعروقها ، وإنك واجدها في علم الأنساب والتاريخ والجغرافيا وكتب الفلك والطب والفلاحة والزراعة وسائر ما كتب الأوائل .

وينادي بعضهم الآن بهجر هذه اللغة القديمة وتبني لغة واقعية كالتي تقرأ في الصحافة ووسائل الإِعلام ، حتى لا يشعر التلميذ بفجوة بين الذي يقرؤه في النصوص القديمة ، وبين ما يسمعه في واقع الحياة .. إن للغة جانبًا تاريخيًا يجب الحرص عليه ومعرفته ، ثم إن اللغة ممتدة مع أصحابها لا تموت ولا تفنى ، وليست اللغة للتفاهم وقضاء المصالح فقط ، وإلا لكان القدر اللازم لنا منها محدودًا جدًا ، ولكان الذي يعرف خمسمائة كلمة إنكليزية تلبي احتياجاته في متاجر لندن وشوارعها عالمًا باللغة الإِنكليزية .

ولقد كان غريب اللغة ، الذي هو الفصيح الرفيع ، مألوفًا للناس إلى عهد قريب ، في خطبة الجمعة ، وفي الكتاب المدرسي والكتاب الجامعي ، ثم على ألسنة المحاضرين وأقلام الكاتبين ، ثم هجره الناس هجرًا غير جميل ، ثم جاء الشيخ الشعراوي فردَّنا إليه ردًّا جميلًا » . (ص٣٨- ٤٠ وأنت راء - أيها القارئ الكريم - أن موقف محمود الطناحي من تاريخية اللغة وامتدادها مع أصحابها وأنها تبقى ولا تفنى ، هذا الموقف يخالف ما عليه جمهرة علماء اللغة المقلدين لنظريات الغربيين فيها تقليدًا غير بصير ولم يقد الطناحي إلى هذا التعبير شديد الإِيجاز عن هذا الموقف المغاير لموقف اللغويين العصريين ، إلا إيمانه بأن اللغة هي مظهر الحضارة ودليل الهوية ، وسر بقاء الثقافة ، ومفتاح باب الحفاظ على الموروث الضخم الذي لا يحاط به من مجدنا الأصيل الأول . فلا عجب أنه وقف حياته ، ووهب ثمرة قلمه وعطاء قريحته الفياضة ، لتثبيتها في النفوس ، والتنبيه عليها لأدنى مناسبة وأوهى ملابسة ، كما يقفك على ذلك النظر في منشوره كله . وسوف تراه حين تنظر في مجموع أعماله المنشورة يحتفي بقضية الغريب ويثيرها في كل مناسبة ، لحرصه على بقاء جمال هذه اللغة الشريفة في تعبيراتها الفصيحة الأصيلة .

ويدفع الطناحي وهمًا يشيع لدى بعض العامة عن علم الشيخ الشعراوي فيقول : « أما أسرار النظم القرآني وإيثار أسلوب على أسلوب ، فهو مما يفيض فيه الشيخ كثيرًا ، وهو يرجع فيه إلى محصول وافر ومحفوظ واسع من ثقافته الأزهرية الغنية ، لا إلى ما يقوله بعض مستمعي الشيخ ومريديه من أنه يلهم به إلهامًا ، ويحدث به تحديثًا ، وكأنه غير مسبوق أو مشارك . ونحن لا ننكر أن الله يفتح على بعض عباده فتحًا ، فذلك فضل الله يؤتيه من

يشاء، لكننا نقرر أن كثيرًا مما يذكره الشيخ معروف ومذكور ومسطور في الكتب، وفضل الشيخ أن يذكره إذ نسيه الناس، ويرعاه إذ أهمله الناس، فهو يحيي ما درس وينفخ في ما خمد».

الشعر باب العربية

ويذكر الطناحي الشعر فيقول في مطلع مقالته عن علي الجارم لغويًّا نحويًّا: «الشعر باب العربية، والشعراء الكبار هم أقدر الناس على معرفة أسرار العربية، والوقوف على دقائقها، ثم الحرص عليها والذود عنها، وما كان ذلك إلا لأنهم قرأوا فأكثروا القراءة، وحفظوا فجودوا الحفظ، ولن تجد شاعرًا كبيرًا إلا ووراءه رصيد ضخم من القراءة المحيطة الجامعة للغة في مجالاتها المختلفة. ويظهر هذا الرصيد فيما يسميه أهل زماننا «المعجم الشعري» للشاعر: حروفًا وأبنية وتراكيب ودلالة».

الشعراء وقوانين اللغة

وإذا قرأت ذكره الحرص على العربية والذود عنها، فاقرأ - مستمتعًا مثلي بهذا الكلام - قوله: «والشعراء الكبار أيضًا من أكثر الناس حرصًا على قوانين العربية والإِذعان لها، رضًا وبشاشة لا إكراهًا ولا غلبة، ودعك مما يقال عن سلطان النحاة على الشعراء، وتقييدهم للإِبداع الشعري فهذا كلام العجزة الخاملين، وهم لا يفتأون يستشهدون على ذلك بتلك النماذج القليلة جدًّا من خروج الفرزدق على بعض قواعد النحو، ويلوكون قوله لأبي إسحاق النحوي: «علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا»، وقوله وقد سئل عن رفع ما لا يستحق: علام رفعت؟ فقال: «على ما يسوؤك وينوؤك». فالفرزدق شاعر فحل، وهذا الذي خرج به عن جادة النحو لا يعد شيئًا بجانب شعره الضخم الذي امتلأت

به كتب النحو، شواهد على اللغة والنحو والصرف. وأنت لو أحصيت ما خرج به الشعراء جميعًا عن النظام النحوي لوجدته قطرة من بحر شعرهم الجاري على سنن العرب وقوانين اللغويين والنحاة.

وهذه المدابرة بين النحاة والشعراء غير صحيحة، فكثير من نحاة الصدر الأول لم يكونوا منظرين من بعد، بل كانوا في قلب الحركة الشعرية وفي الصميم منها». (ص٥١- ٥٤ من مجموع مقالاته). وبعد أن يذكر الطناحي أمثلة كثيرة تؤكد ما قال، يقول: «وأحمد شوقي، هذا الشاعر الضخم، متنبي العصر، كان واسع القراءة، ومن أصحاب الحفظ والرواية، وقد حدثني شيخي محمود محمد شاكر - برد الله مضجعه ورضى عنه - أنه قرأ لسان العرب كله. وهذا يفسر لنا معجم شوقي الشعري والنثري أيضًا في «أسواق الذهب» هذا المعجم يدهشنا بهذه الألفاظ والتراكيب الضاربة في الفصاحة بعروقها». (٥٥- ٥٦).

وفي المقالة نفسها يعالج الطناحي - مرة أخرى من مرات كثيرة - قضية اللغة العالية الفصيحة المسماة بقضية «غريب اللغة»، فيرجع هجر الناس بهذا الغريب إلى سببين، أولهما عدم معرفتهم بكثير من هذا الغريب: «والإنسان يستوحش مما لا يعرفه وينكره، على ما قال ربنا: ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه**﴾ [يونس: ٣٩]. والسبب الثاني هو خلطهم بين الغريب في اللغة والغريب في البلاغة، فهذا الأخير هو الكلام الحوشي المستكره، أصواتًا ودلالة، أما غريب اللغة فهو «كلام القوى» وعدم أنسنا به

أو استعمالنا له لا يخرجه من دائرة كلام العرب ، والاستعمال ليس بدليل على الحسن » .

يقول الطناحي : « ودعوة الجارم إلى استحياء الغريب من اللغة إنما هي دعوة في حق موضعها ، لأن هذا الغريب من صحيح اللغة ، والدعوة إلى هجره والتجافي عنه ليست من البر بهذه اللغة الشريفة ، بل هي عدوان عليها ، وتحيف لشطر كبير منها ... وقد نطق شعر الجارم بهذه الرغبة العارمة في استحياء تلك الألفاظ التي يتحاشاها الأدباء والشعراء في زماننا هذا ، زهادة فيها أو جهلًا بها ، أو استسهالًا للألفاظ القريبة السهلة المستهلكة ، فيقول في واحدة من كريم شعره :

« كم لفظةٍ جُهدت مما نكررها
حتى لقد لَهِثت من شدة التعب
ولفظةٍ سجنت في جوف مظلمة
لم تنظر الشمس منها عين مرتقب
كأنما قد تولى القارظان بها
فلم يؤوبا إلى الدنيا ولم تؤب »

وإذ يشير الطناحي إلى استعمال شوقي كلمة « مَخْشَلَبْ » في قوله :

« خلوا الأكاليل للتاريخ إن له
يدا تؤلفها درًّا ومخشلبا »

يقول الطناحي : « إن شوقي كان مكثرًا من استعمال ذلك اللون من اللغة وله منه أعاجيب » ، ويروى عن الشيخ سليم البشري جَدٌّ صديقنا العلم ، المستشار ، المؤرخ الثبت الثقة طارق البشري - أنه أحصى مئة ألف لفظة أحياها أحمد شوقي في شعره من غريب اللغة . ومن واسع علم الطناحي بالشعر يدل قارئه على

مصدر هذا «المخشلب»، فيقول: إن شوقي قد استخرجها من محفوظه من شعر أبي الطيب المتنبي في قوله:

«بياض وجهٍ يريك الشمس حالكة
ودرُّ لفظٍ يريك الدرَّ مخشلبا»

(والمخشلب: خرز يشبه الدر من حجارة البحر، وليس بدرٍّ، ويقال: إنه لفظ نبطي، والعرب تقول له: الخضض).
[المصدر نفسه ص٦٤- ٦٧].

الذود عن الحياض

والطناحي ليس ضعيفًا أمام التراكيب الجديدة التي تدلف إلى لغتنا الشريفة فتفسد أصلها وتضعف بنيانها، بل هو واقف لها بالمرصاد يدفعها دفعًا لخارج المعجم العصري للغتنا المتداولة. يستعمل بعضهم تركيب «موسيقى القرآن» فيكتب الطناحي وهو يمدح أسلوب الكاتب ويقول إنه: «عذب مصفى، لكن عكرته بعض الأوشاب التي تخالط الأساليب الشريفة تتسلل إليها لواذًا وكأنها العدوى المهلكة، تتخلل ذرات الهواء، لا تحس بها إلا وقد داهمتك في خلايا بدنك - عافاك الله - فلا تستطيع لها دفعًا ولا مردًا. ومن ذلك ما جاء في كلام المؤلف الفاضل من هذا التركيب «موسيقى القرآن» وهو تركيب رخو لين لا يليق بجلال القرآن وبهائه، ولا تقل: لا بأس علينا من تقارض مصطلحات العلوم، لأن فيه إثراء للغة، لا تقل هذا ولا تغتر به، لأنه مدخل لبلاء عظيم ولو فتحنا هذا الباب لفسد علينا كل شئ، فإن للكلام حدودًا ومعالم ينتهي إليها. أنسيت أن منا من قال: إن القرآن رسم لوحة صفتها كيت وكيت؟ فجعل المولى - عز وجل - فنانًا تشكيليًا يحمل فرشاة يغمسها في ألوان، تعالى الله عما يقولون

غُلوًّا كبيرًا . لقد غيروا النظم القرآني واتساقه ، فجعلوه « موسيقى القرآن » ، ثم غيروا العروض فجعلوه « موسيقى الشعر » ، ثم غيروا علم الصرف فسموه « علم الصوتيات » ثم وثم وثم وبالله نستدفع البلايا » !! (المجموع السابق ص ٩٤- ٩٥) .

الغيرة على البيان العربي وعلى بحور الخليل

والطناحي - أحسن الله إليه - لا يغار على اللغة بنحوها وصرفها وتركيبها فحسب ، وإنما يغار منها على الشعر والبيان غيرته على نظامها النحوي والصرفي والبنائي جميعًا . فهو يرد على بعض الذين يصفون بحر المنسرح - أحد البحور المعروفة التي استخرجها الخليل بن أحمد باعتبارها تتوزع الشعر العربي - بأنه بحر قليل الاستعمال لأن فيه عنتًا ومشقة ، وقد قل النظم عليه ، وكاد يهجر لاختلاف موسيقاه عن جنس الموسيقى الشائعة الأوزان ؛ ويرى بعضهم أن إيقاع هذا البحر خافت يكاد يكون منثورًا ، بل إن بعضهم تنبأ بأنه سينقرض من الشعر في مستقبل الأيام ! قال الطناحي ردًّا على ذلك : « وهذا كلام من لا يرتاح إلى هذا الوزن وينفر منه بطبعه ، فيجعل ذوقه الخاص حكمًا عامًّا ، ثم هو كلام يرسل إرسالًا دون مراجعة أو إحصاء ، فإن النظم على هذا النحو شائع في الشعر الجاهلي وفيما بعده إلى يوم الناس هذا ، وإن لِصديقنا الشاعر عبد اللطيف عبد الحليم « أبو همام » أنسًا بهذا البحر وولعًا وقد أنشأ ديوانًا أداره كله على هذا البحر ، وسماه : (من مقام المنسرح) ، ثم هو لا يزال يتعاهده في شعره بين الحين والحين » .

فأنت ترى الطناحي في هذا النص يحرس حتى بحور شعره العربي من أن ينال من أصالتها واستمرارها ، باستمرار هذا اللسان العربي ، نائل ، مهما كان صادق القصد في نقده . وهو لا يكتفي

في الرد عليه بذكر رأيه الشخصي ولكنه يحشد لذلك ما حفظه من ديوان الشعر العربي من قديم العصور وأوسطها وحديثها على نحو ما ترى في مقالته التي شرح فيها قصيدة العباس، رضي الله عنه، في مدح رسول الله ﷺ. (ص١٢٤- ١٣٨ من المصدر السابق). أما البيان فيقول الطناحي عنه: أنه «من أجل نعم الله على عباده، وقد امتن الله بها، فذكرها في أشرف سياق فقال تقدست أسماؤه: ﴿**الرحمن * علم القرآن * خلق الإِنسان * علمه البيان**﴾. والمراد بالبيان هنا إحسان تأدية المعنى.. وقد مدح العلماء البيان وعظموا شأنه، فقالوا: البيان بصر، والعي عمى، كما أن العلم بصر والجهل عمى، والبيان من نتاج العلم والعي من نتاج الجهل. قال يونس بن حبيب: «ليس لِعَيِّيٍّ مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حك بيافوخة عنان السماء»... ووجوه الإِحسان في تأدية المعاني كثيرة، ومنادحها واسعة، ولا يكاد يظفر بها إلا من وهب لطافة الحس، وخفة الروح، ورحابة النفس، والارتياح والطرب لمظاهر إبداع الله عز وجل في هذا الكون.. أما أهل الكثافة الذين امتحنهم الله بثقل الظل وركود الهواء فما أبعدهم عن البيان والإِحسان.

«وهلك الفتى ألا يراح إلى الندى
وألا يرى شيئًا عجيبًا فيعجبا»

ونحن أمة العرب أمة بيان وفصاحة، ولغتنا معينة على ذلك، بما أودع فيها من خصائص شعرية في الحروف والأبنية والتراكيب، ثم هذه الثروة الهائلة من الأسماء والأفعال، والمترادف والمشترك والأضداد، ولغتنا معينة أيضًا على البيان والفصاحة بهذه القوانين الرحبة الواسعة من الحقيقة والمجاز، والسماحة في تبادل وظائف الأبنية، وتبادل وظائف الإِفراد

والتثنية والجمع ، والتساهل في التعبير عن الأزمنة ، ووقوع بعض حروف الجر مكان بعض ، وتذكير ما حقه التأنيث وتأنيث ما حقه التذكير ، والحمل على المعنى والحمل على اللفظ .. حتى علم النحو الذي يظن به العسر والتشدد لو تأملته حق التأمل لوجدت فيه كثيرًا من الرخص والإِباحة ، على ما قاله الأصمعي : « من عرف كلام العرب لم يكد يلحن أحدًا » . (المصدر السابق ص١٤١- ١٤٢ باختصار) .

أزمة البيان العربي في أبناء لسانه

وبعد هذا الكلام النفيس عن البيان الجميل الحسن يستعرض الطناحي - رحمه الله - مجالي البيان العربي الشريف ، منذ عرفت هذه اللغة إلى أساتذة جيلنا من أمثال الرافعي والعقاد والمنفلوطي والزيات ومكرم عبيد وفتحي رضوان ومحمد كامل حسين ومحمد الصياد ، وغيرهم ، ثم يعود إلى وصف حال البيان العربي الآن فيتحسر قائلًا :

« وقد ذهبت تلك الأيام بحلاوتها ونضارتها وصرنا إلى هذا الزمان الذي زهد فيه الناس في حسن البيان ، وهجروا طريقه هجرًا يوشك أن يكون تامًّا ، وأصبحت أساليب كثير من الكتاب ، وممن ينتسبون إلى الأدب الآن ، تدور في فلك ألفاظ مستهلكة تشبه العملة المعدنية الممسوحة ، أو العملة الورقية التي تهرأت أطرافها من كثرة ما تداولتها الأيدي ، أو كالعملة الزائفة التي ليس لها رصيد في مصرف النفس ، وإنما هي ألفاظ وتراكيب تسود بها الصحف وتروح وتجيء ، تتجاوزها عينك على عجل ، لا تقف عندها ، لأنك لا تجد فيها إمتاعًا ، ولا تحس معها أنسًا ، فضلًا عما تحسه في بعضها من ثقل وغثاثة تكاد تطبق على القلب

وتسد مجرى النفس .. إن كثيرًا مما يكتب الآن لا صلة له بالعربية إلا صورة الحروف والأبنية ، من الأسماء والأفعال ، أما روح العربية وآمادها الرحبة الواسعة فلا تجدها في أسلوب مما تقرأ ، ولا في كلام مما تسمع .. » . ويحيل الطناحي ، رحمه الله ، هذه الأزمة إلى أسباب خمسة (ص١٥٣- ١٦١) ، ثم يعقب على الأمر كله بقوله : « ... والرثاء كل الرثاء لشباب هذه الأيام الذين يخدعون عن تاريخهم وعن لغتهم فيما يقرأون وفيما يسمعون » .

أما أنا وأنت ومن يجري معنا في حب العربية والبيان العربي ، فليس لنا إلا الصبر نعتصم به ونفزع إليه حتى يكشف الله الكربة ، ويزيل الغمة ، ويرد الغربة :

« ما في الصحاب أخو وجد نطارحه
حديث نجد ولا صب نجاريه!!»

التراث في خدمة اللغة

وليس أدل على أن قضية العربية كانت هي قضية الطناحي - أفسح الله له في جناته - وأنه اتخذ العناية بكنوز التراث طريقًا للعناية بها وسبيلًا إلى خدمتها ، من أنه حين دعي للمشاركة في مؤتمر « مستقبل التعليم في مصر » الذي أقامه نادي أعضاء هيئة التدريس في جامعة أسيوط ، قدم إلى هذا المؤتمر بحثًا عنوانه : « استثمار التراث في تدريس النحو العربي » ، وقد أثار هذا البحث في وجه الطناحي عاصفة من الانتقاد من أساتذة اللغة العربية المشاركين في ذلك المؤتمر ، ولكنه جمع حوله عشرات من شباب الباحثين والمدرسين الجامعيين يستنبئونه عن أمر هذا العلم الذي عرضه عليهم ، ومصدر هذا البيان العالي الفصيح الذي سمعوه منه ، ويطلبون منه المشورة فيما يقرأون من المصادر والكتب التي

يقعون فيها على مثل ما سمعوه منه. (المصدر السابق ص١٥٩-١٦٠).

احتفاء الطناحي بالإحياء اللغوي ولو في لفظة مفردة

ولم تكن حفاوة الطناحي بالبيان العربي وقفًا على النصوص المتكاملة، أو الكتب العامرة بمأثور النثر ومصون الشعر، ولكنك تجده يفرح بالكلمة المفردة أو التركيب الوجيز، يراه في كتاب لأحد المعاصرين، فرح الرجل بابن أثير غاب عنه سنين ثم رجع سالمًا غانمًا.

استمع إليه وهو يثني على الأستاذ الدكتور الطاهر مكي، ثناءًا حسنًا، لأنه استعمل تركيبًا من كلمتين فيقول:

«وقد هدي المؤلف الفاضل إلى تركيب قديم ضارب في التراث بعروقه، وهو ما ذكره في حديثه عن الخط العربي ص٢٦ من كتاب «دراسة في مصادر الأدب» - قال: «ونحن نواجه قضية علمية لا بأس من إسقاط الروايات التي عجز أصحابها عن مواجهة المشكلة، ولم يصبروا على محنة البحث، فلاذوا بالأسطورة يجدون في رحابها التفسير والتعليل والرضا والراحة». فقوله: ولم يصبروا على «محنة البحث» من التراكيب الدقيقة البديعة، وكنت قد علقت شيئًا شبيهًا به، وقع لي في كلام قديم، عمره أكثر من ألف عام، وذلك ما جاء في كلام للإمام أبي سليمان الخطابي، وهو أحد أعلام العربية في القرن الرابع الهجري، ثم هو صاحب غريب الحديث، ومعالم السنن، وإعجاز القرآن، وتوفي سنة ٣٨٨هـ، قال في مقدمة كتاب «غريب الحديث» ٥٧/١ «فحق على طالب الحديث أن يرفق في تأمل مواضع الكلام، ويحسن التأتي لمحنة اللفظ». وهكذا تحيا

الألفاظ والتراكيب العربية الفصيحة ، وتنتقل من جيل إلى جيل ، كما تجول النطف في الأصلاب الكريمة ، وكما تنتقل الخصائص في السلالات الزاكية . ودعك من الذين يقولون بالأساليب التراثية والأساليب المعاصرة ، واستحداث المنافرة والمدابرة بينهما ، فإنما هو العجز ولا شيء غير العجز » . (المصدر السابق ص٢٤٧-٢٤٨) .

أرأيت فرحًا كهذا الفرح ، وحفاوة تبلغ مثل هذه الحفاوة باستعمال تعبير « محنة البحث » ، لأنه حمل شبهًا من تعبير « محنة اللفظ » ، الذي استعمله أبو سليمان الخطابي قبل أكثر من ألف عام؟ إن الباعث على ذلك هو أن الطناحي ، رحمه الله ، كان يعيش « قضية اللغة » وكأنها قضيته الوحيدة التي تعنيه شخصيًا بقدر لا تعني به سواه . وكان يتمثل تراثها كله ، وإنتاج النابغين والنابهين على امتداد حياتها كلها ، كتابًا واحدًا متكاملًا تزداد سطوره بكل جديد صالح ، فيفرح هو لأن ثروته الخاصة قد نمت ، وكثر ثمرها ، وطاب جناها . لقد كانت هذه اللغة الشريفة عند الطناحي أهله وعشيرته وبيته ، وتاريخه الماضي وعمله الحاضر وأمله المستقبل ، بقدر ما كانت - عنده - مرآة ثقافة الأمة ، وعنوان حضارتها ، وسبيل الرقي بتلك الثقافة وتجديد تلك الحضارة . ولذلك تصدى لكل من عرض لقضية من قضاياها بطريقة تنال منها أو تتهكم عليها أو على أعلامها ، ورد خطأ المخطئين وجهل الجاهلين وغرور المغرورين ، ردًا أوقف كلًا منهم عند حده ، وألزمه مكانه وأظهر للناس مبلغه من العلم ، حتى لا يفتتن به ناشئ ولا يحسن الظن به شادٍ . (في مجموع مقالاته المنشورة في كتاب الهلال قدر صالح من ذلك أهمه رده على الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي ، ومناقشته للأستاذ الدكتور

شكري عياد - رحمه الله - في مسألة المعاجم العربية وإصلاحها) .

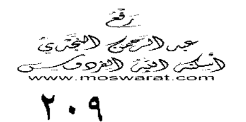
سبق الطناحي إلى ما هو خير وأبقى

لقد لقي الطناحي ربه وهو مرابط في ثغر اللغة العربية يدفع عنها البلايا ، ويصحح لأهلها الخطأ ، ويذود عن حياضها المدعين ، ويكشف زيف العصريين ، الذين يرمونها بما ليس فيها عجزًا منهم عن ارتياد دروبها ، أو جهلًا بحقائق نظمها النحوية والصرفية ، وأسرارها الدلالية والبلاغية . وكنا - وكان المتابعون جميعًا - يتنظرون أن يختار محمود الطناحي ليشغل في مجمع اللغة العربية المكان الذي خلا بوفاة شيخه ، شيخ العربية ، محمود محمد شاكر - برد الله مضجعيهما - ولكن المنية سبقت ، وكل طول سلامة أجل ، وكل منية بكتاب ، كما يقول شوقي وهو يرثي حافظ إبراهيم ، رحمهما الله تعالى .

وقد ذكرت في مناسبة سابقة أن شيختنا الأستاذة عائشة عبد الرحمن لقيت ربها ومقعداها في مجمع اللغة العربية ، ومجمع البحوث الإسلامية خاليان ، وأشهد لقد كانت أحق من كثيرين بمقعد في كل واحد من المجمعين . لكن الأجل سبق ، وهو لا يرد ولا يؤخر . ونحن نوقن أن الذي في الجنة لهؤلاء الأعلام وأمثالهم خير وأبقى مما عند الناس . إن شاء الله .

فرحم الله أخانا الحبيب ، حارس العربية المرابط في ثغرها ، محمود الطناحي وعوض هذه اللغة الشريفة ، وعوّضنا ، من مصابنا فيه خيرًا .

* * *



محمود الطناحى.. فى ذمة الله(*)

د. محمد سليم العوا

العلماء العاملون قليلون وأقل منهم الزهاد الصادقون، الذين يتحلون بالتواضع الخالص وسامًا، ويتخذون الوفاء لأصدقائهم وأساتذتهم شعارًا ويقدمون نفائس الأعمال العلمية وهم يرون أنفسهم مقصرين فى حق العلم عليهم، وفى حقوق طلابه لديهم ومن هؤلاء القلائل الندرة كان أخونا الحبيب الأستاذ الدكتور محمود الطناحى، رحمه الله وغفر له.

فاجأ موته (صباح الثلاثاء ٦ ذى الحجة ١٤١٩هـ- ٢٣/٣/١٩٩٩م) الجميع، وفى سرادق العزاء كان بعض أحبائه يقول: هاتفته فى الأسبوع الماضى فيجيبه آخر: أنا حدثته يوم الأحد، ويحكى كل منهم آخر ذكرياته معه: والموت يرتقبنا جميعًا، لا يغادر أحدًا، وإن أخر بعضنا وقدم آخرين.

كان محمود الطناحى - رحمه الله- أحد أعلام اللغة العربية وأعمدتها الثابتة فى دنيا الناس وكان واحدًا من الطبقة العليا من المحققين الموثوق بعلمهم وعملهم وكان أستاذًا فى مدرسة الإحياء العربية الإسلامية التى فقدت أخيرًا علميها الرئيسَيْن وشيخيها اللذين كانا باقيين: محمود شاكر وعائشة عبد الرحمن رحمهما الله.

قدم محمود الطناحى للمكتبة العربية جواهر من مكنون تراثها بعد أن حقق نصوصها، وخدم أصولها تحقيقًا وخدمة عرفت الناس فضله، وقدمت إلى سجل الأعلام الخالدين اسمه وجهده.

(*) جريدة « الأهرام » - مصر - ٢٧ مارس ١٩٩٩.

ولو لم يحقق الطناحى سوى كتاب النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير (بالاشتراك مع الأستاذ طاهر الزاوى) لكفاه ولكنه قدم معه الغريبين غريب القرآن وغريب الحديث لأبى عبيد الهروى وطبقات الشافعية لابن السبكى وكتاب الشعر لأبى على الفارسى، وعددًا آخر من مهمات الكتب العربية وكان تحقيقه لكل من هذه الكتب إضافة جديدة مهمة إلى المكتبة العربية، وإخراجًا لكنز من كنوز العربية يقربه إلى الناس وييسر لهم الانتفاع به وساهم الطناحى بمؤلفات نفيسة فى الحركة العلمية العربية المعاصرة فألف فى تاريخ نشر التراث العربى، وفى مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم، وأرخ للكتاب المطبوع فى مصر فى القرن الماضى، وقدم للسجلات والدوريات العربية أكثر من مائة مقال نشرت مجلة الهلال المصرية وحدها منها خمسة وأربعين مقالًا ليتها تجمع فى كتاب تصدره دار الهلال عرفانًا لفضل هذا العلم الذى فقدناه.

وكان الطناحى مع هذا العلم الجم، والانتاج الوفير نسيجًا وحده فى أدبه وتواضعه ووفائه. وتلمذته لأستاذنا العلامة محمود شاكر، ودفاعه عنه فى حياته وبعد وفاته وإكباره لإخوانه العلماء وحدبه على طلابه، كل ذلك يستحق أن يكتب عنه لتعرفه الأجيال الآتية وتقتدى به الناشئة من طلاب العلم ومحبى العربية.

رحم الله محمود الطناحى، وجزاه عن لغة القرآن وعلومها وعن تراث العرب وحضارتهم خير ما يجزى العلماء العاملين.

* * *

البقية من المحققين(*)

أ. د. محمد مريسي الحارثي

في الليال العشر من هذا الشهر العظيم شهر ذي الحجة لعامنا هذا ١٤١٩هـ ودعت قاعات البحث العلمي وطلاب العلم وأساتيذه علمًا بارزًا من علماء الأمة العربية الذين نصحوا لدينهم وتراثهم وأمتهم وقد كان رحيله مفاجأة مؤلمة لمحبيه ولمن له علاقة بتجاربه العلمية المتميزة في تحقيق النصوص ونشرها ذلكم هو أخونا المحب الأستاذ الدكتور محمود بن محمد الطناحي الذي عرفت اسمه وجهده في تحقيق عيون من التراث العربي قبل أن أعرف شخصه ولما توثقت صلتي به قبل عقدين من الزمان وذلك بعد انضمامه إلى كوكبة من العلماء المتخصصين الذين قدموا خبراتهم العلمية لطلاب الدراسات العليا بجامعة أم القرى كان منذ بدء عمله معنا محل تقدير زملائه وطلابه واستمر هذا التقدير وهذا الاحتفاء به بعد عودته إلى مصر.

« ونكرم جارنا ما دام فينا
ونتبعه الكرامة حيث سارا »

وهو قمين بالتكريم المستمر فعندما عزم على العودة إلى مصر لم نكن حريصين على تلبية رغبته حتى بعد أن شرح لنا الكثير من أسباب عزمه على العودة إلى مصر؛ فقد وقفنا أمام رغبته منتظرين زوال تلك الأسباب أو بعضها على أقل تقدير حتى لاتفقد هذه الشخصية المتميزة في علمها وحسن خلقها ولا نزكى على الله أحدًا غير أن محاولاته العديدة والمتكررة دفعتنا إلى تحقيق رغبته.

(*) جريدة « المدينة المنورة » - السعودية - ١٢ أبريل ١٩٩٩ .

أخي محمود أخاطبك وأنت الآن في دار غير دارنا وبيننا مسافة حياتين وأقول لك: إن اهداءاتك بتوقيعاتك الكريمة على بعض كتبك ورسائلك وخطاباتك المشحونة بمشاعر الود التي بعثت بها من أرض الكنانة لن تستحيل إلى مجرد ذكريات تطوى وتنشر إنها محصلة صداقة قوية، وأخوة صافية، ومحبة في الله، لن يطويها النسيان.

لقد كان أخي الأستاذ الدكتور محمود الطناحي وفيًا لمكة المكرمة حرمًا ودولة، وجامعة وأساتيذَ وطلابًا، كان معلمًا بارعًا، ومشرفًا ومناقشًا حريصًا على مكانة العلم وأهله، وغيورًا على تراث أمته، ولست في مجال تقريظ أعماله العديدة التي قدمها للمكتبة التراثية العربية من حيث خبرته الواسعة في معرفة مصادر التراث ومعرفة علومه، وتوثيق النصوص والتعليق عليها، وإخراجها في صور صحيحة.

وما فتئ رحمه الله يستنهض همم الدارسين، ويبصرهم بأهمية تراثهم وطرائق الوصول إليه، وتجليته لناشئة الأمة وإزالة الغبش الذي ران على رؤية هذا الجيل الحاضر لتراثه حتى صرفهم ذلك عما ينتمون إليه من مرجعية معرفية إما جهلًا بها، وإما تشكيكًا أو ترددًا في جدواها فيما يخص حل إشكالية العصر الحاضر.

إن موقف الأستاذ الطناحي رحمه الله من التراث تدريسًا وتحقيقًا وإشرافًا ومناقشة يحتاج إلى درس يجلي منهج الرجل في تأثره بأساتيذه أمثال الأستاذ عبد السلام هارون وسيد صقر، ومحمود شاكر - رحمهم الله جميعًا - ممن تلقى الطناحي على أيديهم كيفية التعامل مع النص التراثي، وفي تأثيره في ناشئة

المحققين، وفي موقفه الدفاعي عن التراث ذلك الموقف الذي كرره في أكثر من كتاب من كتبه ورسائله.

رحمك الله يا أبا أروى رحمة واسعة فقد كنت الزميل الوفي والصاحب الصدوق، وبهجة المجالس، كنت تبهج جلساءك بعلمك النافع وبتسامحك في بعض الكلام المباح، وكنت بذلك التسمح تداري أمورًا في نفسك ما كنا نعرفها إلا في وقت متأخر عندما كنت تعاني من مرض أم أروى، وكنت تخشى أن تسبقك إلى المقر الأخروى فلا تملك إلا البكاء الحار، وسكب الدمع المدرار، وها أنت قد سبقتها ولعل ذلك ما كنت ترغب فيه لكنها الآجال المقدرة بتقدير الله لها في الأفراد والأجيال ، والأمم ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ .

جعلك الله مع السابقين الأولين المقربين الذين يسارعون في الخيرات، وحفظ الله أروى ومحمد وأمهما.

ولا حول ولا قوة إلا بالله ، و﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾.

* * *

عالم فقدناه(*)

محمد بن ناصر العجمي

توفي في الأيام المنصرمة بتاريخ ١٩٩٩/٣/٢٣م العلامة الدكتور محمود بن محمد بن علي بن محمد الطناحي، وقد لقيته قبل نحو شهر في بلده القاهرة المعزية في منزل سعادة الدكتور عبد الله المحارب، وقد كان اللقاء به عامرًا حيث كان كالسيل المتحدر في الكلام على العلم وكتب التراث وعيونه، كيف لا وهو أحد فرسانه وممن ضرب فيه بنصيب وافر يدلك على ذلك تحقيقه لكتاب « طبقات الشافعية » للسبكي المطبوع في عشرة مجلدات ضخام، وتحقيقه لكتاب « غريب الحديث » لابن الأثير المطبوع في خمسة مجلدات ضخام أيضًا.

كان هذا العالم الأديب الجليل أحد الصحبة والرفقة الذين تخرجوا من مدرسة العلامة محمود شاكر رحمة الله عليه، وقد درس رحمه الله في جامعة أم القرى بمكة المكرمة عدة سنين وتتلمذ على يديه جمع من أهل العلم، صاروا فيما بعد أساتذة معروفين، وصحب في مكة بعض أهل العلم فكان بينه وبينهم مطارحات علمية ومسامرات أدبية منهم الأستاذ الدكتور عبد الرحمن العثيمين، والدكتور عياد الثبيتي صاحب مكتبة التراث بمكة المكرمة.

وقد شارك رحمه الله في عدة مؤتمرات علمية حول التراث وخدمته، كما سافر عن طريق معهد المخطوطات بالقاهرة لاختيار

(*) جريدة « الوطن » - الكويت - ١٤ أبريل ١٩٩٩ .

نفائس المخطوطات من عدة بلدان، وزار الكويت سنة ١٩٩٤م أستاذًا زائرًا بجامعة الكويت فأنسنا به واستفدنا من اللقاء به إذ كان يرتاد ديوانية الأستاذ الدكتور يعقوب يوسف الغنيم كل يوم ثلاثاء فكانت تلك اللقاءات مثمرة جامعة لصدور من أهل العلم ومحبيه كالشيخ عبد الحميد البسيوني، وأستاذنا القدير الدكتور عبد الله الغنيم فضلًا عن صاحب الديوانية وغيره من أهل الفضل.

كما ألقى محاضرة عامة في قاعة المحاضرات بتاريخ ١٥/٥/ ١٩٩٤م في جامعة الكويت عن رحلته مع التراث وتجاربه المفيدة فيه حضرها جمع كبير من الأساتذة والدكاترة وكان لها القبول التام.

ومن كتب الدكتور الطناحي القيمة ما دبجته يراعة قلمه في كتابه المعطار « مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي » هذا الكتاب الذي أبان فيه عن حبه العميق لهذا التراث وتكلم فيه عن مراحل نشر التراث كما أفاض في الكلام فيه عن الأفذاذ من رجال التحقيق والهيئات العلمية على وجه الخصوص في مصر، وعلى وجه العموم في خارجها ذاكرًا لأهل الفضل فضلهم وجهدهم معرفًا بأماكن كثيرة لنشر هذا التراث وقد كتب في إهدائه لهذا الكتاب « الإهداء إلى هؤلاء الأعلام أحمد شاكر، محمود محمد شاكر، السيد أحمد صقر، عبد العزيز الميمني الراجكوتي، أحمد راتب النفاخ الذين قاموا على حراسة العربية وجاهدوا في سبيلها وكشفوا عن جوانب فذة منها ».

وقال في آخر هذا الكتاب: « وكلمة أخيرة: إن الاشتغال بالتراث موقف حضاري وليس نبشًا في القبور واهتمامًا بالرمم والبلى:

«وعيرها الواشون أني أحبها
وتلك شكاة ظاهر عنك عارها»

ومن تحقيقاته كتاب: «ذكر النسوة المتعبدات» لأبي عبد الرحمن السلمي وكتاب «أعمار الأعيان» لابن الجوزي وغيرها.

وبعد: فهذه كلمة وجيزة جدًا عن أحد أعلام التراث المبرزين في هذا العصر وإن أنسى فلن أنسى حينما سألته هل رأيتم العلامة خير الدين الزركلي صاحب كتاب «الاعلام» المشهور فقال: نعم حينما أخرجت أنا وصاحبي الدكتور عبد الفتاح الحلو المجلد الأول من طبقات الشافعية رأيته في باب الخلق بالقاهرة فعرفته بنفسي فقبل بين عيني وقال: بارك الله فيك أنت وصاحبك أرجو أن تتما إخراج هذا الكتاب القيم.

رحمك الله يا أبا محمد وأروى، وجمعنا بك في مستقر رحمته.

* * *

اليوم نرثي الدكتور الطناحي(*)

أ. د. محمد يعقوب تركستاني

بعد أن فجع الوسط العلمي في بلادنا بنبأ وفاة فضيلة الشيخ عمر بن محمد فلاتة؛ في المدينة المنورة- بعدة أيام- فجع بنبأ وفاة الدكتور محمود بن محمد الطناحي، في القاهرة؛ بنوبة قلبية؛ يوم الثلاثاء السادس من شهر ذي الحجة الحالي؛ الموافق للثالث والعشرين من شهر مارس الجاري.

وبوفاة هذين العلمين تفقد الأمة حجتين آخرين في العلم الصحيح والعمل النافع وحصنين آخرين من حصون التراث العربي والإسلامي؛ فقد كانا- رحمهما الله- ممن نذروا أنفسهم وجهودهم، وأفنوا أعمارهم ونور عيونهم في خدمة أمتهم الإسلامية وتراثها؛ بما كتبا وحققا، وأعانا على الكتابة والتحقيق، وبما شاركا به من جلائل الأعمال في حقل التربية والتعليم، وكانا - أينما كانا- مضرب المثل في النهوض بأعبائهما، وفي حرصهما على عملهما، وكلفهما بالإنتاج الذي منحاه من صحتهما وجهدهما.

نذر الشيخ عمر نفسه لخدمة السنة والسيرة النبوية، ونذر الدكتور الطناحي نفسه لخدمة النحو العربي وتراث العربية، وعملا- منذ هما يافعان- على تبسيط العلم في هذين المجالين؛ فرزقا السعادة في جل عملهما؛ إذ أقبل عليهما الناس، وانتفعوا بهما، وأصبح كل منهما علمًا في مجاله، حميد الذكر، نبيل

(*) جريدة « البلاد » - السعودية - ١٥ أبريل ١٩٩٩ .

الأثر، وصاحب يد مبسوطة فيه، وبصر نافذٍ، ونظر ناقد. والعجيب أن بينهما شبهًا من عدة وجوه.

لقد كانا صاحبي سلوك يعد مثالًا رائعًا في المواءمة بين شغف الإنسان بالعلم وكلفه بمكارم الأخلاق؛ فهما متفوقان في علمهما، ومتفوقان في خلقهما، والذين خالطوهما من خلصائهما ومحبيهما وعارفي فضلهما من زملائهما وتلاميذهما هم أكثر الناس إعجابًا بعلمهما، وسماحة نفسهما، وصفاء قريحتهما، وسلامة صدرهما، وبحلمهما وأناتهما، وإعجابًا بهذه المواءمة؛ فهما عالمان عاملان؛ على دماثة طبع، ورقة حاشية، وتواضع جم، وأنس مجلس، وحلاوة عشرة؛ مع عفة لسان، وتأب على الصغائر، وإباء نفس في غير كبر ولا تطاول، وكانا لا يتسهلان ولا يتصعبان ولا يندفعان إلا فيما ينفع الناس.

وكان من أظهر خصائصهما؛ التي عرفا بها، واشتركا فيها كذلك: عزوفهما عن مظاهر الحياة الفانية، وتعاليهما عن زخرفها الزائل؛ إذ لم ينل من نفسيهما زهو أعبائه الكبيرة الكثيرة الجسيمة؛ التي يتوليانها- في هذه الدنيا- عن أن يحتسباها عند الله، شأن من ذاق حلاوة طلب العلم وخدمته وبذله؛ وهما اللذان كانا من خير التلاميذ لخير المشايخ، ومن خير المشايخ لخير التلاميذ؛ إذ لازما شيوخا أعلامًا، وتعلما على أيديهم العلم وأدب العلم، ثم لزمهما تلاميذ أصبحوا أعلامًا.

لقد أوتيا توفيقًا من الله في أمرهما كله، وأول ذلك: أنهما نشآ في بيئة علمية شرعية، وأخذا عن المشايخ العلم الصحيح، وثانيه: أنهما لم يتخلفا أو يقعدا عن نشر هذا العلم الصحيح، والنهوض بحاجة الناس منه لتتواصل بيئة الخلق السامي الرفيع

المحبوب؛ والناس مجبولون على محبة الشئ ما داموا ينتفعون به، وتتتابع خيراته عليهم، ومجبولون على السير على هدي الخلق السامي، أو مجبولون على تقديره وإجلاله - على أقل تقدير- إن هم توانوا عن السير على هديه.

نسأل الله أن يغفر له ويرحمه، ويثيبه كفاء ما قدم لأمته، فقد كان مع من يرى أن حياة الإنسان لا قيمة لها إلا إذا بذلها في إسعاد الآخرين، لوجه الله، فبذل الكثير، وخلد في عمله، وأحبه الناس، وهو الآن في جوار رب كريم رحيم

* * *

الأُسْتَاذُ الدّكتُور مَحْمُود الطِّنَاحِيُّ
عَالِمٌ محَقِّقٌ فَقَدتهُ الأُمَّةُ(*)

أ . د . محمود حسن زيني

رحل عنا في أيام العشر المفضلة عند الله ؛ عشر ذي الحجة ، أخٌ فاضل ، وعالم ، وعَلَم من أعلام المحقِّقين في عالمنا العربي والإِسلامي ؛ ألا وهو الأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي (رحمه الله) .

نشأ الطناحي (رحمه الله) في مصر ، وفي مرحلة متقدمة من شبابه شق طريقه إلى سبل النجاح ؛ فتتلمذ على أئمة التحقيق والعلماء في مصر ، ولازم مشيخة فاضلة من كبار المحققين والعلماء والنقاد ؛ أمثال الشيخ محمود شاكر وأخيه الشيخ أحمد شاكر (رحمهم الله جميعًا) .

وولج عالم التحقيق في التراث العربي والإِسلامي أستاذان فاضلان حتَّى قبل أن يحصلا على الشهادة العالية ؛ هما : الأخ الدكتور محمود الطناحي ، والدكتور مصطفى عبد الواحد ؛ أولهما اختار أن يكون درعميًا (أستاذًا في دار العلوم بالقاهرة) ، « والآخر أزهريًا » ، وكانا رفيقي حياة عامرة بالعلم والتحصيل والتحقيق ، وكونا مدرستين متميزتين في عالم التحقيق الأصيل .

لقد برع د . الطناحي (رحمه الله) بل تخصص في تحقيق كتب ابن الأثير ، وحقق « طبقات الشافعية » للسبكي ، وإذا ما

(*) جريدة « البلاد » – السعودية – ١٥ أبريل ١٩٩٩ .

ذكر الطناحي يذكر معه رفقيه دائمًا في العلم والتحقيق أ. د. عبد الفتاح الحلو.

ولقد كان الطناحي يميل إلى مدرسة الشيخ محمود شاكر في التحقيق، بل كان ملازمًا وتلميذًا وفيًا له، ولطالما رأيته في حلقته في بيته «وبلكونته» الشهيرة في مصر الجديدة. والحق أن أخانا الطناحي (رحمه الله) كان ينهج نهج شيخنا محمود شاكر؛ الذي كان قمة شامخة في مصر في العلم والخلق والفضل والتحقيق (رحمهما الله).

ولقد أكرمني الله بزمالة حبيبنا الدكتور محمود الطناحي في مكة المكرمة في قسم الدرسات العليا بكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى، وسعدت بالاشتراك معه في مناقشة رسالة علمية للدكتوراه كنت قد أشرفت عليها للباحث د. حمد الزايدي؛ في تحقيق شرحي الوقشي والبطليوسي على كتاب «الكامل» للمبرد، ونال بها درجة (الدكتوراه).

ولقد كان للدكتور الطناحي بمكة نشاط علمي متميز أشرف على رسائل للماجستير والدكتوراه وتخرج على يديه نفر من أبنائنا الباحثين؛ الذين ساروا على نهج أساتذتهم في العناية بالتراث الإِسلامي وتحقيقه بالسبل العلمية الجادة؛ التي كان يعني بها الرواد من المحققين الكبار في عالمنا العربي من أمثال الأستاذ سيد صقر، والأستاذ عبد السلام هارون، والأستاذ عبد الستار فراج، والأستاذ الدكتور شوقي ضيف، الأستاذ محمود شاكر، وأخوه الأستاذ أحمد شاكر (رحمهما الله).

ولئن كان الدكتور محمود الطناحي من جيل الشباب من الرواد في مجال التحقيق ؛ فلقد كان شيخًا وإمامًا وعالماً بحق في مجال التحقيق العلمي الجاد، وكنا نعده في مجلس قسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية وآدابها بجامعة أم القرى : دائرة معارف، ومكتبة تراثية متنقلة ؛ لا يفوته أي جديد في الساحة ؛ ويلم إلمامًا تامًا بعلم المخطوطات، وطرق التحقيق فيها.

ولقد فقدنا برحيله عنا عالماً متخصصًا في التراث العربي والإسلامي، واليوم لا نجد- وياللأسف- شبيهًا له، ونعتبر ذلك خسارة، نسأل الله أن يعوض الأمة بمثله، وأن يرزقها المحبين للتراث العربي الإسلامي ؛ الذين خلت منهم الساحة، وظهر جيل همه وحبه للتراث الغربي والأوروبي، وإن كان على سبيل التقليد ؛ لأنه جيل لا يحسن حتى فقه ثقافة وتراث الغرب ؛ بل ولا يحسن حتى معرفة لغاته وأساليبه، ولا يعرف منابع تلك الثقافة الأجنبية الغربية.

رحم الله العالم محمود الطناحي والمحقق المحب للتراث العربي والإسلامي، ورحم سابقيه، وبارك الله في لاحقيه، وجعلنا منهم، ممن رزقهم الله حب دينهم وتراثهم الإسلامي ؛ فأفنوا شبابهم وعمرهم في العناية به، والصبر على تحقيقه ونشره.

* * *

محمود محمد الطناحى

أديبًا ومحققًا[*]

أ. د. محمود على مكى

لم نكد نجفف دموعنا ونفيق من وقع فجيعتنا فى وفاة العلامة الكبير محمود محمد محمد شاكر (٧ أغسطس ١٩٩٧م) حتى رزئنا برحيل تلميذه محمود الطناحى، ونحن أوسع ما نكون أملا فى أن يكون خليفته ومواصل مسيرته العلمية، ولا سيما فى مجال تحقيق التراث وخدمته. وكأن شاعرنا القديم كان يصور مصابنا فى العالمين الجليلين حينما قال:

« مصاب ولم أمسح يدى من قسيمه
وجُلَّى وَمَا نَفَّضْتُ من أُخْتِها رُدْنِى »

على أن الملابسات التى أحاطت بما تم من قدر الله فيهما قد اختلفت بين الفقيدين. فقد كانت وفاة محمود شاكر وهو على مشارف التسعين من عمره بعد صراع مع المرض امتد طوال أكثر من عام، وكنا نتابع إلحاح العلة عليه يومًا بعد يوم، ونفوسنا تتقطع عليه حسرات ونحن نراه يذبل عضوًا فعضوا، إلى أن نفذت فيه إرادة الله. وأما محمود الطناحى فقد اختطفته يد الموت فجأة فى مارس ١٩٩٩م وهو لم يجاوز الستين إلا بسنوات قليلة، وكان فى كامل عافيته، فقد كنا نلتقى به قبل وفاته بأيام وهو كالعهد به نشاطًا جمًا وحيوية دافقة، وكأنه نبت حصده منجل الموت وهو فى تمام روائه ونضرته. وهكذا لم يمض عام ونصف عام حتى لحق

(*) مجلة « الهلال » - مصر - مايو ١٩٩٩ .

التلميذ بشيخه، فربطت إرادة الله بينهما فى الحياة، ثم سوى بينهما الموت:

«والموت أجور حاكم وكأنه
فى الناس قسمًا بالسوية عادل»

ولد محمود الطناحى عام ١٩٣٥م فى محافظة المنوفية، وانتقل إلى القاهرة وهو فى الثامنة من عمره، وحفظ القرآن الكريم وهو فى الثالثة عشرة، فالتحق بمعهد القاهرة الدينى التابع للأزهر الشريف، فحصل منه على الشهادة الابتدائية ثم الثانوية سنة ١٩٥٨م، والتحق بكلية دار العلوم وحصل على شهادة الليسانس فى علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية سنة ١٩٦٢م. وواصل دراساته العليا فنال شهادة الماجستير فى قسم النحو والصرف والعروض عام ١٩٧٢م، ثم الدكتوراه عام ١٩٧٨م.

هذه فى سطور رحلة محمود الطناحى فى طريق التعلم والدراسة، وهى رحلة استغرقت أكثر من أربعين عامًا، وأما حياته الوظيفية فقد بدأت منذ تخرجه فى دار العلوم، إذ عُيِّن فى سنة ١٩٦٣ معيدًا بمعهد الدراسات العربية فى الجامعة الأمريكية، ولكنه انتقل بعد سنتين إلى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، فعمل خبيرًا به طيلة سنوات دراسته العليا أى حتى حصوله على الدكتوراه سنة ١٩٧٨م. وأكسبه هذا العمل - الذى كان يتعاون فيه مع عالمى المخطوطات الكبيرين رشاد عبد المطلب وفؤاد سيد - خبرة واسعة بكنوز التراث العربى فى سائر أنحاء العالم. فكان المعهد يعهد إليه بالاشتراك فى البعثات التى كان يوجهها إلى البلاد التى احتوت خزائن كتبها على نوادر المخطوطات: تركيا عام ١٩٧٠ والمملكة المغربية عامى ١٩٧٢، ١٩٧٥، والمملكة العربية

السعودية عام ١٩٧٣م وجمهورية اليمن الشمالية عام ١٩٧٤م. وكان الهدف من هذه البعثات دراسة ما فى خزائن تلك البلاد من مخطوطات وانتقاء النادر منها لتصويره وحفظه فى معهد المخطوطات حتى تكون تحت تصرف المحققين والباحثين.

وبعد أن نال درجة الدكتوراه انتدب أستاذًا مشاركًا بقسم الدراسات العليا بكلية الشريعة وكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى فى المملكة العربية السعودية، وظل يباشر عمله فى التدريس بتلك الجامعة حتى عودته النهائية لمصر فى سنة ١٩٨٩. وفى سنة ١٩٩١م عين أستاذًا مساعدًا بكلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة القاهرة فرع الفيوم، ثم رقى أستاذًا فى سنة ١٩٩٥م، وانتقل للعمل فى كلية الآداب بجامعة حلوان فى قسم اللغة العربية. وخلال هذه السنوات اختاره مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية خبيرًا به، كما انتخب عضوًا بالهيئة المشتركة لخدمة التراث العربى فى معهد إحياء المخطوطات العربية فى منظمة اليونسكو العربية. وكانت شهرته فى مجال معرفة التراث وتحقيقه مؤدية إلى أن يختاره مجمع اللغة العربية بالقاهرة خبيرًا به، كما انتخب عضوًا بالهيئة المشتركة لخدمة التراث العربى فى معهد إحياء المخطوطات العربية فى منظمة اليونسكو العربية. وكانت شهرته فى مجال معرفة التراث وتحقيقه مؤدية إلى أن يختاره مجمع اللغة العربية بالقاهرة خبيرًا فى لجنة المعجم الكبير، وكان عمله خلال السنوات الأخيرة فى هذه اللجنة مثريًا لها بما كان يقدمه من تحقيقات ومراجعات تشهد بعلمه الواسع بالتراث ومعرفته العميقة بمظانه والتمرس بتحقيق مخطوطاته. وبلغ من تقدير المجمع لجهوده أن كثيرًا من أعضائه رأوه جديرًا بأن يرشح

لعضوية المجمع، لولا أن وفاته المفاجئة حالت بيننا وبين إسعاد الحظ لنا بذلك.

وأما جهود محمود الطناحى العلمية فى التحقيق والتأليف فقد بدأت منذ تخرجه . إذ أخرج فى سنة ١٩٦٣ بالاشتراك ثلاثة أجزاء من كتاب « النهاية فى غريب الحديث والأثر » لمجد الدين ابن الأثير، ثم انفرد بتحقيق الجزأين الأخيرين من هذا الكتاب. وفى السنة التالية نشر - مشتركا مع زميله الفقيد عبد الفتاح الحلو - كتاب « طبقات الشافعية الكبرى » فى عشرة أجزاء، ثم أعاد نشر هذا الكتاب الموسوعى سنة ١٩٩٢، بمزيد من التنقيح والإضافة فى هذه الطبعة الثانية.

وتوالت بعد ذلك أعماله فى تحقيق نصوص تراثية بالغة القيمة منها « العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين » (مكة المكرمة) لتقى الدين الفاسى (١٩٦٩)، وكتاب « الغريبين » -غريبى القرآن والحديث- (١٩٧٠)، وجزأين من معجم « تاج العروس » للمرتضى الزَّبيدى - السادس عشر والثامن والعشرين - (١٩٧٦- ١٩٩٣)، و« منال الطالب فى شرح طوال الغرائب » لمجد الدين ابن الأثير (١٩٨٣)، وقد حصل بتحقيقه لهذا الكتاب على الجائزة الأولى فى تحقيق التراث بمجمع اللغة العربية، وكتاب « الشعر » لأبى على الفارسى (١٩٨٨)، و« أمالى ابن الشجرى » (فى ثلاثة أجزاء- ١٩٩٢).

وجهود محمود الطناحى فى هذه المصادر التى قام بتحقيقها تضعه فى مصاف كبار العلماء الذين نهضوا بهذه الرسالة الجليلة، من أمثال عبد العزيز الميمنى وعبد السلام هارون ومحمود شاكر رحمهم الله وأثابهم على ما قدموه لأمتهم من غيرتهم على تراثها الفكرى وخدمة له، والمقدمات التى كان يكتبها الطناحى لما نشر من هذه الكتب تعد فى ذاتها كتبًا أصيلة تحدد أصول المنهج الذى

ينبغى أن يلتزم به من يضطلع بالتحقيق، وما أكثر ما يتسوّر على هذا الميدان من ليس له بأهل، فإذا بهم يهدمون من حيث ظنوا أنهم يبنون **﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾** . ويكفى أن أحيل القارئ على تقديم الطناحى لكتاب « الشعر » لأبى على الفارسى، فقد أوضح فيه - ببيانه الجلى البديع- كيف يسىء للتراث من يظنون أنهم يحسنون العمل فى نشره، ونبه على أوجه الخلل فى الطرق التى يتبعها هؤلاء، ثم رسم خطوط المنهج القويم لتحقيق كتب التراث، وهو المنهج الذى كان هو أول الملتزمين به.

النشر العلمى :

ولمحمود الطناحى بعد ذلك مؤلفات أصيلة دار كثير منها حول هذا الموضوع الذى قضى معظم سنى حياته فى خدمته، وهو النشر العلمى لتراثنا الفكرى، أذكر منها « مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى ». و« الموجز فى مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم » و« نبذة فى تاريخ الطب العربى » وغير ذلك من التحقيقات والمراجعات والفهارس التى تعد نماذج لما يجب أن تكون عليه الفهرسة للكتب التراثية، وهو عمل يخطئ من يظنه جهدًا آليًا تكميليًا لتلك الكتب، وإنما هو لون من ألوان التأليف يفرض على من يمارسه من دقة النظر وحصافة الرأى ما يلتزم به المؤلف الأصيل.

وما أكثر ما نجد فى تعليقات محمود الطناحى ومقدمات الكتب التى نشرها من آراء يصحح بها كثيرًا من أحكام تتردد فى الكتب المدرسية وغير المدرسية وكأنها مسلمات ثابتة، ومنها ما ورد فى تقديمه لأمالى ابن الشجرى من « أن كثيرًا من الدارسين يخطئون حين يسرفون فى تقسيم عصور الفكر العربى إلى عصور علو وعصور انحطاط. وإن المتتبع لحركة الفكر العربى فى عصوره

المختلفة يروعه هذا الحشد الهائل من العلماء وطلاب المعرفة. وقد شمل هذا النشاط العالم الإسلامى كله، مشرقه ومغربه، ولم يفضل عصر أو مصر سواهما إلا ما يكون من بعض الفروق الهينة التى تفرضها طبائع الزمان والمكان. أما حركة العقل العربى من حيث هي فلم تخمد جذوتها، ولم تسكن حدتها، بتغير الحكام وتبدل الأيام، وإن أردت أن تعرف صدق ما أقول فانظر إلى ما اشتمل عليه القرنان السادس والسابع (الهجريان) من كبار المفكرين والعلماء، وأنت تعلم أن هذين القرنين قد شهدا أعنف هجوم تعرضت له الأمة الإسلامية: الحروب الصليبية، والغزوة التترية، وقد كان هذا الهجوم الكاسح كفيلًا بالقضاء على هذه الأمة الإسلامية لولا دفع الله وصيانته».

لقد شغلنا تتبع جهود محمود الطناحى العلمية عن جانب آخر من جوانب شخصيته، وهو خلقه وسلوكه فى حياته وعلاقاته بمن حوله. والحقيقة أن الجانبين مرتبطان أشد الارتباط، فالعالم الذى يعرف حق العلم عليه لا يمكن إلا أن يكون فاضلًا يعرف حق أسرته ومجتمعه عليه. وهكذا كان محمود: لقد اتصلت الأسباب بينى وبينه على مدى سنوات طوال، فلم أعرف فيه إلا دماثة الخلق، وطيب العشرة، وحب الخير للجميع. يجمع ذلك إلى التواضع وعدم الإدلال بعلمه، والوفاء لأساتذته وزملائه، وعفة اللسان. لقد حورب حتى فى رزقه، ولكنى لم أسمعه يذكر أحدًا بسوء حتى أولئك الذين آذوه لم يجر على لسانه إلا طلب المغفرة لهم.وفى ذلك من نبل النفس والترفع عن الصغائر ما لا نجده إلا فى نماذج نادرة من الرجال.

* * *

الطناحي.. وداعا(*)

أ. مصطفى عبد الله

آخر لقاء به كان فى جناح مكتبة الخانجى بمعرض القاهرة للكتاب فى فبراير الماضى. فقد جاء مصطحبًا الناشر التونسى الحبيب اللمسى صاحب دار العرب الإسلامى فى بيروت وطلب كتابًا من كتب التراث التى يحتاج إليها من صديقنا المشترك محمد أمين الخانجى الذى نشر له الكثير من كتبه ومنها: (مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي) و(الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم).

ولأننى كنت أبحث عن الحبيب اللمسي وفرحت كثيرًا بلقائه المفاجئ فى هذا المعرض مترامى الأطراف فقد أخذت أتحدث إليه حول جهوده فى خدمة الكتاب العربى وولعه بالتراث وإهدائه لمكتبته الضخمة إلى دار الكتب التونسية، ومن فرط إعجابه باهتمامى بصديقه الحبيب اللمسى عرض على الدكتور محمود الطناحى أن يكتب لأخبار الأدب مقالا عنه، بل عرض أن يصحبه فى الغد فى زيارته للروائى جمال الغيطانى بعد انتهاء زيارتهما دار الكتب.

وذهبا، وأخذت أتحدث مع الصديق محمد أمين الخانجى عن هذين الرجلين، وأعربت له عن إعجابى الشديد بهذا الكتاب الذى نشره للطناحى، والذى يعطى فيه صورة دقيقة لحركة نشر الكتاب العربى فى مصر. بالإضافة إلى كتابه الصغير الذى صدر

(*) مجلة «أخبار الأدب» - مصر - ٢٨ مارس ١٩٩٩ .

فى سلسلة (كتاب الهلال) فى أغسطس ١٩٩٦م بعنوان: (الكتاب المطبوع بمصر فى القرن التاسع عشر.. تاريخ وتحليل) ويتتبع فيه نشأة المطبعة العربية فى مصر منذ طبعة بولاق وما قدمته من إنتاج علمى تقوم عليه نهضتنا العربية الحديثة مع التعريف بمن قاموا على خدمة هذا الكتاب العربى من أسماء لامعة أفنت عمرها فى مراجعته وتصويب أخطائه وتحقيقه ونشره.

وظهر الثلاثاء الماضى جمعنى لقاء فى مكتب الأستاذ نبيل أباظة رئيس قطاع الثقافة بدار أخبار اليوم بالدكتور محمد عبد اللطيف مدير عام دار سفير للنشر - وقد كان مهمومًا على غير عهدى به - فسألته عن السبب فرد : كنا نتصل منذ ساعات بالدكتور محمود الطناحى لنؤكد على ضرورة حضوره اجتماع دائرة سفير للمعارف الإسلامية فإذا بنا نعلم أنه لفظ أنفاسه الأخيرة فى السابعة من صباح هذا اليوم.

وبعد الظهر يتصل بى الشاعر الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم لينقل إلى الخبر الذى بلغه فى دار العلوم، التى تخرج فيها الفقيد عام ١٩٦٢م، وحصل منها على الماجستير عام ١٩٧٢م والدكتوراه عام ١٩٧٨م بمرتبة الشرف الأولى. وأخذنا نجتر ذكرياتنا عنه وكيف أنه اتصل بالمخطوطات العربية منذ كان طالبًا بالسنة الأولى بدار العلوم: ناسخًا ومفهرسًا ومحققًا . فقد نسخ كثيرًا من المخطوطات المشرقية والمغربية، وأعان بعض المستشرقين الذين نزلوا مصر. فضلًا عن مشاركته فى نشاط معهد المخطوطات العربية بالقاهرة على مدى خمسة وثلاثين عامًا وقد خرج عضوًا فى بعثاته لدراسة وتصوير المخطوطات العربية فى العالم ومن البلاد التى زارها وفهرس نوادر مخطوطاتها: تركيا عام ١٩٧٠م، المملكة

المغربية ١٩٧٢م، ١٩٧٥م، المملكة العربية السعودية ١٩٧٣م، جمهورية اليمن الشمالية ١٩٧٤م، وكيف أنه اكتشف فى هذه البلدان بعض المخطوطات المجهولة التى لم يكن العالم يعرف عنها شيئًا ولم تدرج فى قوائم المخطوطات فى هذه البلاد.

كما تذكرنا جهوده فى ندوات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى التى أقامها الدكتور أحمد زكى يمانى لدراسة وفهرسة المخطوطات الإسلامية بالقاهرة فى يناير ١٩٩٤م وفى اسطنبول سبتمبر ١٩٩٤م، وفى لندن فى يونيو ١٩٩٥م.

وإسهامه فى ندوة تاريخ الطباعة العربية فى القرن التاسع عشر التى عقدها مركز جمعة الماجد للتراث والثقافة بدبى فى أكتوبر ١٩٩٥م.

ولم ننس مشاركته فى تدقيق مدخل قاموس القرآن الكريم الذى أصدرته مؤسسة الكويت للتقدم العلمى سنة ١٩٩٢م. رحم الله هذا العالم الجليل الذى يندر أن نجد مثله اليوم راهبًا فى محراب التراث العربى... عالمًا بأسرار لغة الضاد.... وقد ترك للمكتبة العربية ما يخلده ويحيى ذكره من مؤلفات خالصة وتحقيقات أحيا بها أثارًا عظيمة. يرحمه الله.

* * *



أوجـع الطعنـات(*)

أ. مصطفى محمود

أيا قلب، من أحببت فارق دارنا
فكن نابضًا أو كن بلا نبضاتِ
حملت له ما قد حملت من الهوى
ولا زلت حتى هذه اللحظاتِ
موات موات قد تمكن من دمي
وما كنت قبلًا شاعرًا بمواتِ
فيا عين جودي بالدموع غزيرةً
ويا نفس ذوبي إثره حسراتِ
أتحسبني تنساك نفسي للحظةٍ
إذًا بُليت نفسي بكل أذاةِ
هل الحب يُنسى وهو كالنسيم هين
فكيف وحبي كالعواصف عاتِ
طُعنت كثيرًا في فؤادي وغايتي
ولكن هذي أوجع الطعناتِ
لقد كنت لي ظلًا من الحب وارفًا
أفيء إليه من هجير حياتي
وكنت إذا ما لي ابتسمت أرى الدُنا
غدت رحبةً معمورة الجنباتِ
فأمرح مثل المُهر فيها بنشوةٍ
وألقى الذي ألقى بكل ثباتِ
وأشعر أن النجم لو شئت لمسه
لمستُ برغم البُعد والعقباتِ

(*) حفل تأبين « كلية الآداب » - « جامعة حلوان » - مصر - ٣ مايو ١٩٩٩.

حنانك هذا لم يحطنى به أبي
وعطفك هذا كان يغمر ذاتي
فماذا وقد أصبحت عني مُغيبًا
وأصبحتُ محرومًا من البسماتِ
أراني إذا جاء المساء تعودني
رؤاك وتهمي ثرةً.. عبراتي
وتملكني الذكرى فأطرق آسفًا
وأهتز من شوقي ومن شهقاتي
وأرحل حيث الراحلون تجمعوا
وحيث بلوغ الأُفق في خطواتِ
فتُشرق من بين الوجوه محيِّيًا
وضيء المحيا هادئ القسماتِ
وتمنحني كفًا تألق نورها
فأغمرها بالدمع والقبلاتِ
وشيئًا فشيئًا تختفي عن نواظري
وشيئًا فشيئًا لا ترى نظراتي
وتنطفئ الرؤيا وأصحو بحسرتي
وأعرف أني كنت في سبحاتِ
صنعت بنا ماذا فلست معلمًا
فقط يملأُ الآذان بالكلماتِ
هو الحب قبل العلم فينا زرعته
وفجرته في أنفسٍ ظمئاتِ
كأنك من فرط التُقى والوفى أبٌ
لكل فتىً وكل فتاةِ
ولم تك مزهوًا وعلمك أبحرٌ
وغيرك مزهوٌ ببعض فُتاتِ
تريد بنا خيرًا وترشدنا له
وتجعلنا نشتاق ما هو آتِ

وتمحو خنوعًا في النفوس أذابها
وأسلمها لليأس والشهوات
وتوقظ إحساس الطموح بها وقد
غفا من ضياع البأس والعزمات
أيا موت لم تحفظ لنا أي موثقٍ
أتأخذه منا بغير.. أناةِ
وتتركنا من بعده في مرارةٍ
نَغَصُّ بها في الجهر والخلواتِ
ووالله ما روحٌ فقط قد قبضتها
ولكنها روحي وروح مئاتِ
ذهبت به وهو الذي كان قدوةً
تُضيء سبيل الحق والطرقاتِ
ألا أيها الطود الذي ليس راحلًا
ولكنه باقٍ على السنواتِ
ستُذكر في التاريخ إن كان صادقًا
وتُذكر في الأسفار والصفحاتِ
وقفت أقول الشِعر فيك ومن أنا؟
وأنت الرفيع القدر والدرجاتِ
ولكنه الحب الذي في جوانحي
على القلب يُملي هذه الزفراتِ
غدًا نلتقي عند الإله جميعنا
ويجتمع الأحباب بعد شتاتِ
سندعو بما نسطيعه من دعائنا
وما أنت محتاجٌ إلى الدعواتِ
جزاك إله الناس عنا جزاءهُ
وجاءك بالغفران والرحماتِ
ولا زلت في روضٍ –بقبرك– طيبِ
تُزار من الجنات بالنفحاتِ

كَان عِشقُه للتُّرَاثِ عشقَ مُتَيِّم(*)

أ. د. ناصر بن سعد الرشيد

رحم الله أبا أروى؛ عاشق التراث؛ الدكتور محمود الطناحي، رحمة واسعة، وجزاه الله خيرًا؛ كفاء ما قدم لأمته من خدمة للتراث.

نعم، كان أبو أروى عاشقًا للتراث عشق متيَّم؛ يجمعه، ويفهرسه، وينتقيه، ويحقق منه ما يصطفى، كان عشقه له عشق مبدإٍ، وعشق إعجاب.

ولذلك كان طموحًا في تحصيل هذا التراث أو تحقيقه، منذ أن بدأ يرافقه، ويتلذذ بهذه الرفقة: محررًا نصه، وحالًا عويصه، وقارئًا منه مستغلقه، وكان أول ما عرف به الطناحي- رحمه الله- من تحقيق أن وضع اسمه مع اسم مؤلف علم؛ هو «ابن الأثير» في كتابة «النهاية في غريب الحديث» مما جعله في مصاف المحققين الكبار؛ على أنه لما يزل يافعًا.

ثم أعقبه- مع زميله الحلو - في إخراج وتحقيق كتاب لا يقل أهمية أو حجمًا عن كتاب «ابن الأثير» ألا وهو كتاب «طبقات الشافعية» للسبكي، وظل أبو أروى يواصل تحقيق كتب كبيرة؛ لا يخرجها إلا الطامحون؛ مثل «منال الطالب فى شرح طوال الغرائب» لابن الأثير.

كان مناخ التحقيق وعالمه، في ذلك الوقت، يزخر بأئمة التحقيق المشهورين؛ مثل محمود شاكر، وعبد السلام هارون،

(*) جريدة «البلاد» - السعودية - ١٥ أبريل ١٩٩٩ .

وشوقي ضيف وعبد الستار فراج، وعبد الكريم العزباوي، وأبي الفضل والبجاوي وغيرهم في مصر، ومثلهم في الشام، والعراق والجاسر، والعطار في السعودية؛ كل هؤلاء قد قرحوا في التحقيق؛ وهو لما يزل جذعًا بيد أنه استطاع أن يدركهم وأن يسد مسدهم مع رفاقه بعد أن اخترم من اخترم وضعف من ضعف واعتزل من اعتزل.

واتجه في آخر أيامه إلى تدريس مناهج التحقيق وطرقه في بعض الجامعات، وأخرج كتابه «مدخل إلى نشر التراث العربي» وضع فيه عصارة تجربته في التراث: تحقيقًا، وتاريخًا ورجالًا، ومنهجًا، فرحم الله أبا أروى رحمة واسعة وأعظم الله الأجر لأسرته ولتلاميذه ولأصدقائه ولمحبيه.

* * *

حامى العربية(*)

أ. نصر الدين شريف باعطوة

وفودٌ قد أتتك بلا صياحِ ... لتشهدَ حفل تأبين الطناحى
حبست الشعر من حججٍ ثلاثٍ ... فلا يُجدى مقامى أو براحى
فلما قيل تأبين المُجلِّى ... وجدت الشعر مطلوق السراحِ
ولو ظلَّ اللسانِ يقول شعرًا ... لظلَّ من الغدو إلى الرواحِ
وما وفَّاك حقَك من ثناءٍ ... فذا جهد المُقِلِّ وذا افتتاحى
أبا أروى ومثلك ليس يُنسى ... تجلَّى فى المشارف والبطاحِ
فُجعتُ بموتكم والموت حقٌ ... ولولا الدين لم يهدا نواحى
فأهرقتُ الدموع وبى جراحٌ ... لأطفئ بالدموع لظى جراحى
ذُبحتُ بغير سكين مرارًا ... ولم أشكو من البلوى ذِباحى
عزاء الصابرين أبا مغيرِ ... فمثلك من أناب بلا صياحِ
أبا أروى لقد ربَّيْتَ جيلًا ... وكم أبقيتَ من آيٍ فِصَاحِ
ففى لغة العروبة همت عشقًا ... وكم نظرتْ عيونك منَ مِلاحِ
حميت عرينها من كل عادٍ ... ومالك غير علمك من سلاحِ
تزود به فيقهر كل باغٍ ... ويفعل فعل ألسنة الرماحِ
وضعت مناهجًا للنحو شتَّى ... كنور الصبح فى ليل التلاحى
سرت فى عقلنا من غير لأيٍ ... كما يسرى العبير من الأقاحِ
وكم جئنا إليك بكل صعبٍ ... فجئت به كمنبلج الصباحِ
أسرت قلوبنا بدقيق علمٍ ... وأسكرت العقول بغير راحِ

(*) حفل تأبين « كلية الدراسات العربية والإسلامية » - « جامعة القاهرة » - الفيوم - مصر - ٨ مايو ١٩٩٩.

ويؤذيك النفاق بكل شيءٍ فتصدر فى ودادك عن جماحِ
وكم زان الهلالَ لكم مقالٌ تردَّ به عن البدع القباحِ
علـى قـولٍ يـردده غـواةٌ قد اغتصبوا القيادة بالصياحِ
وقد ظنُّوا، وبعض الظنِ إثمٌ، بأن النجم كالكلأ المباحِ
أتنويرًا بهدم صروح قوم بنوها بالسهادِ وبالكفاحِ
هتكت ستورهم وفضحت غيًّا وبيَّنْتَ المراضَ من الصحاحِ
فزاد النحو واللغة ارتفاعًا وهل ضِيرَ الغضنفر بالنُباحِ
إذا افتخرت بكم حلوان ، مرحى ونحن أحقُّ بالفخر الصراحِ
هو المجد الظريف لهم ولكن لنا المجد التَليد به ارتياحى
فأبقى الله ذكرك فى البرايا ضياءَ السائرين إلى الفلاحِ
يُعلمنا الطموح إلى المعالى وأن العزَّ صنوٌ للصلاحِ
فلم تحو الكنانة مذ تولى أبو فهر... لها ابنًا.. كالطناحى
ولم تحملَ كشيخكم المفدَّى نهوضًا بالأمانةِ والطِماحِ
أبا أروى ! أرقتُ وبى لهِيبُ وفى ذكرى الأحبة مستراحى
رحلتَ مطهَّرًا وفدحت قَومًا وأبكيت المدائن والضواحى
ديار العُرب قد ضجت عويلًا بكتْ لَيْثًا من الحراس صاحى
تغشَّاها من الحسرات ليلٌ وليل الثاكلين بلا صباحِ
فمن للنحو بعد أبى محمدْ يدافع عن حماهُ المُستبَاحِ؟!

* * *

الإنتاج العلمى
للأستاذ الدكتور/ محمود محمد الطناحى
من سنة ١٩٦٣ إلى سنة ١٩٩٩م

التحقيقـات

١- النهاية فى غريب الحديث والأثر. لمجد الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦هـ (خمسة أجزاء : الثلاثة الأولى بالاشتراك، والرابع والخامس بالانفراد) مطبعة عيسى البابى الحلبى. القاهرة ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م.

٢- طبقات الشافعية الكبرى. لابن السبكى المتوفى سنة ٧٧١هـ. (عشرة أجزاء. بالاشتراك) الطبعة الأولى بمطبعة عيسى البابى الحلبى. القاهرة ١٣٨٣هـ= ١٩٦٤م. والطبعة الثانية بدار هجر. القاهرة ١٤١٣هـ= ١٩٩٢م.

٣- العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين (مكة المكرمة). لتقى الدين الفاسى المتوفى سنة ٨٣٢هـ (الجزء الثامن). مطبعة السنة المحمدية. القاهرة ١٣٨٨هـ= ١٩٦٩م.

٤- الغريبين - غريبى القرآن والحديث - لأ بى عبيدة الهروى المتوفى سنة ٤٠١هـ (الجزء الأول) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. القاهرة ١٣٩٠هـ= ١٩٧٠م.

٥- الفصول الخمسون - فى النحو - لابن معطى المتوفى سنة ٦٢٨هـ- وهو رسالة الماجستير بكلية دار العلوم - مطبعة عيسى البابى الحلبى. القاهرة ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.

٦- تاج العروس، شرح القاموس. للمرتضى الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥هـ. (الجزء السادس) وزارة الإعلام بالكويت ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

٧- الجزء الثامن والعشرون منه. الكويت ١٤١٣هـ=١٩٩٣م.

٨- منال الطالب فى شرح طوال الغرائب. لمجد الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦هـ. مركز البحث العلمى وإحياء التراث الإسلامى - جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م- وقد حصل هذا الكتاب على الجائزة الأولى فى تحقيق التراث بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٩- أرجوزة قديمة فى النحو. لليشكرى المتوفى سنة ٣٧٠هـ (نشرت ضمن: دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أبى فهر محمود محمد شاكر، بمناسبة بلوغه السبعين) مطبعة المدنى. القاهرة ١٤٠٣هـ=١٩٨٢م.

١٠- كتاب الشعر- أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب- لأبى على الفارسى المتوفى سنة ٣٧٧هـ (جزءان) مكتبة الخانجى. القاهرة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

١١- أمالى ابن الشجرى المتوفى سنة ٥٤٢هـ (ثلاثة أجزاء. اشتملت على (٨٤) مجلسًا، منها (٤٩) مجلسًا، حصل بها المحقق على شهادة «الدكتوراه» من كلية دار العلوم مكتبة الخانجى. القاهرة ١٤١٣هـ=١٩٩٢م.

١٢- ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات. لأبى عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ هـ مكتبة الخانجى. القاهرة ١٤١٣هـ= ١٩٩٣م.

١٣- أعمار الأعيان. لابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ. مكتبة الخانجى . القاهرة ١٤١٤هـ=١٩٩٤م.

المؤلفات

١٤- مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربى. مكتبة الخانجى. القاهرة ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م.

١٥- عن التصحيف والتحريف - محاضرة نشرت بآخر الكتاب السابق.

١٦- الموجز فى مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم- مكتبة الخانجى. القاهرة ١٤٠٦هـ=١٩٨٥م.

١٧- نبذة فى تاريخ الطب العربى- مقدمة لكتاب الطب النبوى. لابن قيم الجوزية. مطبعة عيسى البابى الحلبى. القاهرة ١٣٩٩هـ=١٩٧٩م.

١٨- التنبيه على خطأ «الغريبين» للحافظ أبى الفضل بن ناصر. مجلة البحث العلمى والتراث الإسلامى - مكة المكرمة ١٤٠٠هـ= ١٩٧٩م.

١٩- فهارس كتاب غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ- مجلة البحث العلمى والتراث الإسلامى - مكة المكرمة ١٤٠١هـ=١٩٨٠م.

٢٠- فهارس كتاب الأصول فى النحو . لابن السراج المتوفى سنة ٣١٦هـ. مكتبى الخانجى القاهرة ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م.

٢١- فهرس الأشعار لكتاب ديوان المعانى .لأبى هلال العسكرى المتوفى نحو سنة ٣٩٥هـ مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة . المجلدان ٣٧، ٣٨- ١٣١٣، ١٤١٤هـ=١٩٩٣، ١٩٩٤م.

٢٢- ديوان المعانى. لأبى هلال العسكرى وشئ من التحليل والدراسة العروضية المجلد ٦٦، ج١، ٣. مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤١٠، ١٤١٢هـ=١٩٩٠، ١٩٩١م.

٢٣- مجد الدين بن الأثير وجهوده فى علم غريب الحديث - بحوث ندوة أبناء الأثير - جامعة الموصل بالعراق - كلية الآداب ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م.

٢٤- المتنبى للأستاذ/ محمود محمد شاكر. تقديم- موسوعة عصر التنوير (أهم مائة كتاب فى مائة عام) دار الهلال - الجزء الأول. القاهرة ١٩٩٢م.

٢٥- الرسالة. للشافعى. تحقيق الشيخ/ أحمد محمد شاكر. تقديم. موسوعة عصر التنوير. الجزء الثانى. القاهرة ١٩٩٣م.

٢٦- من إعجاز القرآن - العلم الأعجمى فى القرآن مفسرًا بالقرآن للأستاذ/ محمد رءوف أبو سعدة. تقديم. دار الهلال . القاهرة ١٩٩٣م.

٢٧- جموع التكسير والعرف اللغوى. مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة - المجلد ٧١- ١٤١٣هـ=١٩٩٢م.

٢٨- شرح شواهد الإيضاح لأبى على الفارسى . تأليف ابن برى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢هـ- عرض ونقد. مجلة مجمع اللغة العربية . القاهرة. المجلد ٧٢- ١٤١٣هـ=١٩٩٣م.

٢٩- كتاب الفرق - بين صفات الإنسان وصفات الحيوان- لثابت بن أبى ثابت ، من علماء القرن الثالث، عرض لنشرته، وتعريف بمخطوطة ثانية له اكتشفها الدارس بخزانة القرويين بفاس. مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. المجلد ٥١، ج٢، ١٣٩٦هـ=١٩٧٦م.

٣٠- الفهرس الوصفى لبعض نوادر المخطوطات بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . الرياض ١٤١٣هـ=١٩٩٣م.

٣١- الكتاب المطبوع بمصر فى القرن التاسع عشر. كتاب الهلال- أغسطس ١٩٩٦م هذا إلى (٤٠) أربعين مقالة بمجلة الهلال المصرية ، فى قضايا العربية.

٣٢- قضية إنقاذ المخطوطات - ماتحقق ومالم يتحقق . مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة ١٤١٧هـ=١٩٩٦م.

٣٣- كتاب صنعة الشعر لأبى سعيد السيرافى . تحقيق نسبته ونقد نشرته . مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة ١٤١٧هـ =١٩٩٧م

٣٤- كتاب الردة والفتوح . لسيف بن عمر التميمى . عرض ونقد . الكتاب التذكارى للأستاذ الدكتور / ناصر الدين الأسد . الأردن ١٩٩٧م .

٣٥- مراجعة كتاب أعلام النصر المبين فى المفاضلة بين أهلى صفين لأبى الخطاب عمر بن الحسن بن دحية الكلبى المتوفى سنه٦٣٣هـ =١٢٣٥م . دار الغرب الإسلامى - بيروت ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م .



الفهرس

* * *


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com